عزيز بنبين




11.5.2017

# تازمامرت



ترجمة

عبد الرحيم حزل



عزيز بنبين

# تازمامورت

ترجمة

عبد الرحيم حزل




2011

Twitter: @ketab_n

# تازمامرت

Twitter: @ketab_n

الكتاب : تازماموت
المؤلف : عزيز بنبين
المترجم : عبد الرحيم حزل
الناشر : منشورات دار الأمان
العنوان : 4، زنقة المامونية - الرباط
الهاتف : 05-37-72-32-76
الفاكس : 05-37-20-00-55
البريد الإلكتروني : libdarelamane@yahoo.fr
الطبعة الأولى : (2011/1432)
رقم الإيداع القانوني : 2010MO3139
ردمك : 978-9954-561-01-0
الطبع : مطبعة الأمنية - الرباط

Twitter: @ketab_n

العنوان الأصلي :

Aziz BineBine

*Tazmamort,*

*Dix-huit ans dans le bagne de Hassan II*

Ed. Denoël, Paris 2009.

Twitter: @ketab_n

إلى أمي الذي ولدتني وبكت الوليد الجاحد الذي كنت،
إلى كريستين التي ولدت الشيخ العارف للجميل الذي أنا الآن،
إلى كل النساء اللابسات الحداد على أشباح تازمامرت،
إليكن أيتها الفتيات والأمهات والزوجات والأخوات
إنني أحبكن.

Twitter: @ketab_n

كنت أحلم أن أكون صحافياً أو كاتب سيناريوهات، فصرت عسكرياً. وكنت حفيداً وابناً لجليس ملوك، فصرت سجيناً. لكن وكما يقول المثل : «العبد في التفكير والرب في التدبير».

كانت أمي بنتاً لقبطان جزائري في الجيش الفرنسي قدم إلى المغرب بين 1912 و1915 في ركاب جيش الحماية الذي جاء يحمل التهدئة إلى البلاد. ثم أصبح ضابط اتصال بالأهالي، وهي الوظيفة التي كان فيها مقتله. فقد تعرض للتسميم بأيدي الأعيان المغاربة لخشيتهم من هذا الجندي الفرنسي، والعربي المسلمِ مثلهم أن يسلبهم مكانتهم. وليلقى حتفه في خدمة فرنسا؛ فارساً يتقلد وسام الشرف والوسام العسكري ووسام صليب الحرب ووسام الاستحقاق، وهلمجرا... كانت أمي يومها في الثامنة، فغدت ربيبة الأمة. ثم لما صارت في الثامنة عشرة تزوجت بوالدي. وكان ابناً لعازف يعيش في قصر الكلاوي، باشا مراكش ذائع الصيت، وكان له أخلص الرفقاء.

وأما والدي فقد كان عالماً؛ أي فقيهاً في الأمور الشرعية في أرض الإسلام؛ حيث كان الدين والعلم مقترنين على الدوام لا يفترقان



Twitter: @ketab_n

ولا يزالان مصدرين للسلطة والثراء، ولاسيما عندما يكونان يتنفسان تحت جناح «الأمير» الراعي والسخي.

وما كان لوالدي أن يشذ عن هذه القاعدة.

فقد كان علمه وثقافته الواسعة يهيئانه ليدخل في خدمة كبراء البلاد. فخدم أولاً الباشا الكلاوي، ثم دخل بعدئذ في خدمة الحسن الثاني وأصبح مقرباً إليه. لم يكن له من مهام رسمية غير مرافقة الملك؛ فهو يراه صباح مساء وفي أخص الأوقات التي يكون فيها الملك ينعم بالراحة والاسترخاء. وقد أفلح والدي بقوة ذاكرته وذلاقته الباهرة في أن يأخذ بنصيب من الأدب والشرع. فكان يحفظ القوانين المدنية والقوانين الشرعية عن ظهر قلب ويحفظ كتب النحو العربي والبلاغة، ويتقن العربية والأمازيغية والفرنسية. وتوج تلك المعارف بأن انبرى يحفظ الشعر العربي كله بداية من العصر الجاهلي. وقد كان في سنّي شبابه يصادق أحد كبار الشعراء المغاربة، ذلك هو ابن إبراهيم، «شاعر الحمراء»، نسبة إلى لون مدينته مراكش. وكان شاعرنا لا تواتيه القريحة بجياد القصائد إلا وهو ثملٌ؛ فإذا طلع عليه النهار تبخر ما أنشأ من قصائد بما تتبدد عنه الثمالة. وليتدارك هذا النسيان كان يدعو إليه والدي، الذي لم يكن يشاركه شربه. ثم يأتيه في اليوم الذي بعدُ فيبيعه القصائد الذي هو صاحبها. فقد كان والدي يحفظها ما أن يسمعها أول مرة. فلما التقى أمي أحبها من أول نظرة ثم تزوجها، من غير أن يصارح تلك الفتاة العصرية بأنه كان متزوجاً من امرأة أخرى.



Twitter: @ketab_n

بقيتُ حتى سن السادسة عشرة أحمل الجنسية الفرنسية من جانب الأم. فلما استقلت الجزائر في 1962 اختارت لها الجنسية المغربية؛ فذلك كان الشرط لترتقي إلى درجة المفتش المالي. وكذلك حملت أنا بطبيعة الحال الجنسية المغربية؛ فهي جنسية والدي المغربي القح الجامع بين الثقافتين الأمازيغية والعربية؛ فهو يعود بأصوله إلى الجذرين معاً. فلما حصلت على شهادة الباكالوريا وحان الوقت لأختار لي مهنة، كانت أيسر السبل أمامي أن أجري امتحان الأكاديمية الملكية العسكرية. فكنت ضمن الفوج الأول من الخريجين الذين التحقوا بهذه المؤسسة الراقية، ولأصير ضابطاً، وهو ما كانت ستفخر به أمي كثيراً. لولا أنه فخر لن يدوم طويلاً؛ فبذلك جرت المقادير. فقد وقع حادث تافه، لا يزيد عن مشاداة طلابية جعلنا في البداية تحت رحمة العقيد اعبابو، فقضى بتحول كارثي على مساراتنا في الحياة، وصيرنا المسوِّدين لأحلك صفحة في تاريخ بلدنا الحديث.

فعند نهاية السنة الأكاديمية الأخيرة، 1970، كنا نستعد للخروج في عطلة، كجري العادة منذ أجيال؛ بيد أن المدير قرر لغير ما سبب معقول أن يحرمنا تلك العطلة، ويرسلنا لنجري تدريباً على الآليات لم تكن له من أهمية. فوجدنا في ذلك الإجراء ظلماً فادحاً، وهربنا من التدريب. وعند الدخول كان الإجراء التأديبي؛ وبدلاً من أن نعينَ، والفوج السابق علينا، في مختلف الأقسام العسكرية، كجري العرف، عُهِد بنا إلى العقيد اعبابو، المعروف بقسوته. فجرى تعييننا في أهرمومو بصفة الضباط المدرِّبين.


Twitter: @ketab_n

وأهرمومو قرية صغيرة في الأطلس المتوسط، تقوم في سفح جبل بويبلان. الشتاءات فيها باردة صقيع، والأصياف حارة خانقة. والمدرسة تقوم في طرف القرية، فوق تلة تشرف على سفح شديد الانحدار، لا تفتأ الرياح تكنسه وتكشطه. وقد ضمت المدرسة قرابة ألفي تلميذ، زيادة على المؤطرين وأسرهم. فكانت هذه الساكنة تبعث الحياة في تلك القرية، يقودها العقيد اعبابو بقبضة من حديد يساعده ضباط أوائل مخلصون قد كُلفوا بشؤون الإدارة. وكان الضباط، أقصدُنا نحن، يقومون بمهام التدريب.

في أهرمومو كان النظام في غاية الصرامة، على التلاميذ كما على الضباط سواء بسواء. فلم يكن لأي واحد من حظ في معاملة تفضيلية، ولو كان من أشد المقربين إلى العقيد. بل إن هؤلاء كانوا يخافونه أكثر مما يفعل سواهم؛ إذ جُعِلوا في المقدمة، فتكون الخسائر عليهم أعظم مما على سواهم. بيد أنهم لم يكونوا جميعاً ينهضون بالمهام نفسها؛ فقد كان منهم المشتغلون بالإدارة ومجموعة من العملاء المكلفين بأحط المهام. لقد كانت مافيا حقيقية مخلصة قلباً وروحاً لسيدها. ويشرف عليها المساعد أول الشهير عقّا، الذي كان ذراع اعبابو اليمنى وعينه وسمعه.

ولئن كان النظام صارماً فإن الفوائد والحسنات كانت هي الأخرى كثيرة، وهو شيء كنا له مدركين. وما كان المسؤولون يتوانون عن تذكيرنا به عند الحاجة. فقد أفلتت غالبيتنا يومها من عقوبة قاسية، فأنزلنا في دارات جميلة، لا نؤدي عنها كراء، وكنا نطعم مجاناً من على موائد الضباط وقد توفر لنا كل العتاد العسكري



Twitter: @ketab_n

الذي نحن في حاجة إليه، من غير أن يُحصى علينا، أو نجبر على تعويضه أو تسديد قيمته إن ضاع أو تلف.

صرنا في أهرمومو نتعود السلطة والنظام. وما كانت الأمور كلها خيراً أو كلها شراً؛ فكان يلزمنا أن نتعلم كيف نميز الفوارق واللوينات وقد كانت عندنا كثرة كثيرة. وكان يلزمنا خاصة أن نتعلم المصانعة والنفاق؛ فلم يكن عنهما غنى لكل راغب أن يكون لنفسه مساراً ناجحاً في العمل الإداري، كلزوم إجادة السباحة للبحار. وقد كان لدينا في هذه الأمور سيد كبير، حاز قصب السبق بين المنافقين والمخادعين : ذلك هو اعبابو، الذي صنع لنفسه أسطورة داخل القوات المسلحة الملكية. فكأنه جحا أو علي بابا. لقد كان لصاً شديد البأس، على رأس كوماندو مخلص متفان. فهو يغير ليلاً على ضواحي فاس، فيسطو على الآليات التي بحوزة الجماعات والمقاولات والخواص، ويستولي على كل ما يقع عليه ويكون فيه نفعٌ للحامية، أو تعزيز للبنيات التحتية لضيعات العقيد الخاصة. وليس ببعيد أن تكون عمليات السطو تقع كذلك على رؤوس الماشية؛ فقد كانت جراءة ذلك الكوماندو بلاحدود. وقد كان الرجال عديمو الذمة يحظون وقتها بالتقدير. فالناس يحسبون موت ضمائرهم من الشجاعة، وينظرون إلى أفعالهم في السطو الواسع على أنها أعمال بطولية باهرة. لقد كانوا محط إعجاب وخوف، ويلقون الكثير من المصانعة، ما لم يلقوا من الضغينة والحقد. وقد انجذب هؤلاء السادة إلى السلطة كالذباب ينجذب إلى العسل، فكانوا ينحنون أكثر مما يفعل الآخرون، ليتسنى لهم أن يتخطفوا الكعكة في اللحظة المواتية.


Twitter: @ketab_n

وكانوا يتعارفون ويترابَتون ويتراقَبون، وهم يخفون أنيابهم ومخالبهم في براعة متناهية.

كان العقيد رجلاً قصيراً يميل إلى السمنة، بوجه كوجه الدمية تلوح منه نظرة قاسية وباردة. وكان يحب أن يذعن له سائر من حوله فلم يكن يقعد عن وسيلة لتحقيق هذه الرغبة، والويل لمن اعترض عليه؛ فقد كان شديد الحقد والضغينة. وليس ببعيد أن تكون تلك الضغينة في نفسه هي التي قادته إلى جنون الانقلاب فأضاع نفسه وأضاعنا نحن أيضاً. لقد كان ناقماً على البشرية جمعاء أن خُلق قصيراً وفقيراً، وما هو بالأمر الصحيح كله؛ فأهل اعبابو كانوا أسرة من الأعيان، قد خرج من بين ظهرانيهم في الماضي أحد الوزراء. وكان والد العقيد نفسه «شيخاً» على عهد الحماية، يأتمر بأوامر القايد المذبوح، أبي الجنرال الشهير المذبوح، الذي سيصير العضُد المكين لـ«صديقـ»ـنا، وسيصير خاصة المدبرَ لمحاولة الانقلاب عليه. لكن مهما بلغ اعبابو من علو الشأن فإنه ظل مثل أبيه مرؤوساً لآل المذبوح. فما وجد نفسه أمام الجنرال إلا تنبهت في نفسه عقود من الخضوع المرير. وقد تأكد من محاولته المشؤومة كم كان يتوق إلى أن يجعل ذات يوم تحت جزمته، لاسائرَ آل المذبوح فحسب، بل وآخرين غيرهم كثراً، وأن يتخلص - ولِمَ لا؟ - من شخص الملك... فإذا أصبح هو السيد الأكبر ذات يومٍ... وقد كان يمتلك الوسائل لبلوغ هذا المرام! فقد تخرج من بين الأوائل في دفعته من الأكاديمية العسكرية الملكية، وكان هو الأول في مدرسة قيادة الأركان، ونجح متفوقاً في امتحانات المدرسة الحربية في فرنسا. فاستحق بتلك


Twitter: @ketab_n

النجاحات أن تُسند إليه قيادة المناورات العامة للقوات العسكرية التي أجريت في مراكش سنة 1968، وحضرها الملك الحسن الثاني. وقد كان يقع على كل وحدة في تلك التمارين القتالية التي جرت على صعيد جيش بكمله أن تتحرك بناء على أوامر معلومة وفي مهام محددة سلفاً لأجل أن تساند وحدات أخرى أو تعيقها، حسبما هل تناور بصفة الصديق أو بصفة العدو. وقد كان يمكن لتلك المناورات أن يستعمل فيها الرصاص الحي أو الرصاص الفارغ. فما كان أعظمه من فخ! وقد كان اعبابو يمثل الجيل الجديد من الضباط المتحدرين عن ذلك الجيش المغربي الوليد، وأحدَ أنبغ عناصره. ولما أن كان أول الناجحين في المدرسة العسكرية فهذا جعله الضابط الأول في ذلك الجيل المؤهل لقيادة مناورات على الصعيد الوطني. ولربما قيض له ذات يوم أن يرأس الجيش. فكان من شأن أي غلطة تبدر منه مهما تكن هينة، أن تقوض عليه مساره كله. لكن التجربة كانت ناجحة من كل الوجوه؛ فتلقى التهنئة من الملك ومن سائر أفراد قيادة الأركان. ويومها ولِد قائد جديد، وربما ولدت معه كذلك عزيمة قوية ستقلب ذلك الخدر الذي كان يرين على النظام السياسي والاجتماعي في المغرب.



Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

لقد سبق للعقيد اعبابو والجنرال المذبوح أن دبرا لمحاولة انقلاب أولى أثناء مناورات شبيهة أجريت في الحاجب، غير بعيد عن مدرسة أهرمومو، خاصة ملحقتها التي في صفرو. فقد جاء الأمر يومها إلى التلاميذ في صفرو ومؤطريهم بالتوجه إلى الحاجب معززين ببعض العناصر من عندنا، للمشاركة في تلك المناورات. ولم أكن يومها بين الجنود. ثم بدأ الإعداد لكل شيء؛ فتشكلت الكوماندوهات وتجهزت الوحدات بعرباتها وأسلحتها وذخيرتها. وفي اللحظة الأخيرة جاء الأمر بتفريق الجنود؛ وألغيت مشاركة المدرسة. وحقيقة الأمر حسبما علمنا في وقت لاحق، بعد أحداث الصخيرات، أن الملك توجس يومها من شيء يُدبَّر له، أو يكون إنما تقاعس بسوء الطقس فألغى مشاركته في اللحظة الأخيرة. فأُحبِطت العملية؛ لكنها لم تُلغَ، بل أرجئت إلى حين. ففي 9 يوليوز 1971 جاءنا الأمر صباحا بالاستعداد لنجري في اليوم الذي بعدُ مناورات بالذخيرة الحية في بنسليمان، على بعد بضعة كيلومترات من قصر الصخيرات.

أمضينا النهار بطوله نعد العدة ونؤلف التشكيلات وننادي على الجنود بالأسماء ونتحقق من الأمتعة ونقوم على توزيع المؤن



Twitter: @ketab_n

والأسلحة والذخيرة. لقد كانت مهمة صعبة، لأن الرجال لم تكن لهم تجربة على العمليات المستعمَل فيها الرصاص الحي؛ بل لم تكن لهم من تجربة على الإطلاق. ومعظمهم لم تكن مضت على التحاقهم بالخدمة أشهرٌ ستة. والأسوأ من ذلك كله أنه لم يكن أي واحد منا في ذلك اليوم يتولى القيادة على تلاميذه.

وفي المساء اكتملت لنا كل الاستعدادات. وقد كانت جرت إعادة التمرين على تلك العمليات بضعة أشهر قبلُ، لكن ليس بالأفراد أنفسهم وأما تلك المرة فنحن الذين وقع علينا اختيار القدر. فأمضينا النهار في عمل شاق، وفي العشاء اجتمعنا على مائدة الضباط ونحن في لباس القتال بطبيعة الحال، وبأيدينا أسلحة وذخيرة. وإذا طبيب المدرسة، وهو ملازم فرنسي في مقتبل العمر يدخل علينا قائلاً : «رباه! هل ستقومون بانقلاب؟». فقوبلت ملاحظته بانفجار ضحكة عارمة. لكن شرارة ار تياب تولدت لدينا حينها، وإن لم نصرح بها لبعضنا.

وفي اليوم الذي بعدُ كان كل فرد قد اتخذ موقعه. وبدأ الموكب بالتحرك في الصباح الباكر. وقد كان يتألف من عشرين شاحنة محملة بالرجال، يتقدم كل واحدة منها ضابط وضابط صف. وفي مقدمة الموكب كما في مؤخرته يوجد ما كنا نسميها الكوماندوهات وقوامها سيارات جيب خفيفة، بعضها مزودة برشاشات ثقيلة من نوع «12/7»، والأخريات مزودة بمدافع مضادة للذبابات. وجعِل على كل واحدة من تلك السيارات أربعة جنود، معظمهم مسخرون للعقيد. وقد علمنا في ما بعد أن بعض هذه الوحدات الخفيفة كانت مكلفة

Twitter: @ketab_n

بمهمة خاصة جداً : أن تحرص على ألا يخرج جندي أو تخرج عربة من بين تلك التشكيلة. وقد أعطيها الأمر بإطلاق النار على أولئك الذين ربما عنّ لهم أن يخرجوا عن المسار المرسوم.

قطع الموكب مسافة ثلاثمائة كيلومتر الفاصلة بين أهرمومو والعاصمة من غير أن يتوجس أفراده من شيء، أو يلاقيهم درك أو شرطة، أو تستوقفهم مراقبة على الإطلاق. وهو أمر أقل ما يقال عنه في بلادنا إنه غريب. فلما بات الموكب على مبعدة كيلومترات من الرباط، بإزاء الموقع الصغير المسمى بوقنادل، توقف عند مؤخر غابة. وتلقى الضباط وحدهم الأمر بالنزول. كان اعبابو هنالك بانتظارنا ومعه أخوه محمد، الذي يكبره سناً لكنه لم يكن له بكفء. وكان هنالك أيضاً أشخاص آخرون لم يسبق لنا أن رأيناهم؛ وكانوا من ضباط الصف. وسنعرف في وقت لاحق أنهم أفراد من عائلة العقيد. وحينذاك ألقى إلينا بالأوامر لإتمام المهمة : سيقسم الوحدة إلى موكبين، يتولى هو قيادة أحدهما، ويتولى أخوه قيادة الآخر. وينبغي لكل موكب أن يدخل من باب وينزل إلى المماشي، ولا يطلق النار إلا بأمر، وأن يمنع أياً كان أن «يخرج».

لكن يخرج من أين؟

ويجدر بي أن أتوقف ههنا لأوضح أمراً أساسياً، أختلف فيه عن رفاقي، وهو المتعلق بمكان العملية. فأما أنا فقد سمعت من فاه بكلمة «قصر». وأما هم فمنهم من زعم أنه سمع «مكان المناورات». وكان هنالك آخرون يقرون بسماعهم كلمة «قصر»، لكن يزيدون إليها



Twitter: @ketab_n

توضيحاً أن «الملك كان في خطر»! فأنى لنا أن نمسك، لا بالحقيقة بل بالواقع؟ فالزمن والأحداث كثيراً ما يبدلان من ذكرياتنا عن الوقائع والأحداث.

ثم اشتغلت آلة القدر؛ ولسوف تسحق كل المشاركين في تلك المأساة؛ فلا يفلت منها واحد بسلام.



Twitter: @ketab_n

كان قصر الصخيرات هو الإقامة الصيفية للملك، وفيه يحتفل بأعياد ميلاده التي توافق أعياد الشباب. وفي ذلك اليوم أقبل على القصر كبار الشخصيات من سائر أنحاء البلاد؛ من عوالم السياسة والدبلوماسية والجيش والأعمال، وتحلقوا من حول الملك. وجُعل على المدخل رجال الدرك وبرفقتهم جنود من الحرس الملكي ليقوموا بمهام الحراسة. فلما رأوا الموكب رفعوا الحاجز ووقفوا استعداداً لتلقي الأمر. فدخلنا من غير أن ينتبهوا إلى أن الأمر الذي بحوزتنا كان شيئاً ملفقاً، وأن الملك لم يكن له علم بتلك المناورات!

الممشيان اللذان طلعنا منهما كانا يوجدان في طرفيٍّ القصر من الناحيتين الشمالية والجنوبية. وبينهما يمتد ملعب للغولف على مساحة معشوشبة فسيحة، تناثرت فوقها خُرِيْجات وبضع أشجار حيث كان يجري الاحتفال بعيد ميلاد الملك، في حشد مختلط عجيب من نخبة البلاد. وفي المؤخرة تقوم بناية شديدة الطول، تضم مجموعة من القاعات الكبيرة تطل في ناحية الشمال على الحجرات الملكية وملحقاتها. الواجهة الغربية تتخللها كوى كبيرة مزججة تطل على الشاطئ الخاص، فيما الواجهة الشرقية المطلة على ملعب


Twitter: @ketab_n

الغولف مغلقة من كل ناحية. وفي الصورة التي كانت عليها تلك الأمكنة بعض تفسير للمذبحة التي وقعت في ذلك اليوم.

كان الدرس القتالي الأول الذي أعطيَ للتلاميذ أن عليهم، في حال تعرضوا لكمين أو تعرضوا لإطلاق نار من العدو، أن يندفعوا من الشاحنات ويردوا على الهجوم. ومن أسف أنهم نفذوا هذه النصيحة من غير تفكر ولا تمعن...

دخل الموكب الذي يقوده أخو اعبابو أولاً من البوابة الشمالية وتقدم حتى جاء الملعب المعشوشب حيث ضيوف الملك متجمعون. وأما نحن فكنا على الجانب الآخر نستعد للنزول. وفجأة سُمعت رشقة رصاص. أتكون نوبة هلع استبدت بأحد التلاميذ؟ إنه لغز محير. فكانت الشرارة التي أطلقت البلبلة. وإذا التلاميذ يبادرون إلى تنفيذ التعليمات. فقد اندفعوا من الشاحنات، وشرعوا جميعاً في إطلاق النار. ولكم حاولنا بكل الوسائل أن نجعلهم يتوقفون لكن عبثاً. فلم تكن لنا حيلة إلا أن ننبطح أرضاً لنقيٍ أنفسنا الإصابة برصاصة طائشة. فقد كان الرصاص ينهمر طوفاناً من الرتلين فوق الشاحنتين اللذين كانا يطوقان المكان، فكانت مذبحة على الجانبين. فالطلقات المتقاطعة حصدت الأشخاص الذين لبثوا واقفين في ملعب الغولف، كما حصدت تلاميذ كثراً، لم يُكشَف عن عددهم بعد الأحداث، لكنه يزيد عن الماءتين.

وما أسرع ما عمت الفوضى الأرجاء. فما عاد لأحد أن يتحكم في زمام أحد، ولا عاد أحد يهتدي إلى ما يفعل. وحتى لقد فقد اعبابو نفسه كل سلطان على الأوضاع، فما كاد يترجل عن الشاحنة


Twitter: @ketab_n

حتى تعرض لرصاصة نفذت في كتفه. ورأيت بعض التلاميذ يسقطون أمامي، وتعذر عليّ أن أعرف حتى إن كانوا من تلاميذي. واستولت عليّ الحيرة. وعبثاً أطلقت عقيرتي بالصراخ، فلم يستمع إليّ أحد. أردت، أو كان يفترض بي، أن أدعوهم بأسمائهم، لكنني لم أكن أعرفهم. فقد أعطونا تلاميذ غير تلاميذنا، فضيقوا علينا نطاق التدخل. وكانت الكارثة.

ثم توقف الرصاص. وما توقفت البلبلة والاضطراب. ونهضت لأجمّع وحدتي، لكن كم واحداً بقي منها؟ أنى لي أن أعرف؟ فاللائحة تُركت في الشاحنة. وأي شاحنة؟ وحده السائق كان بمكنته أن يخبرني، وما كانت سبيل للاهتداء إليه؛ فلقد اختفى. ومن دون لائحة كان يتعذر عليّ الاهتداء إلى التلاميذ الذي لم أكن رأيتهم إلا مرة واحدة مساء اليوم الذي قبل.

استولت عليّ الحيرة والتلف. وعنّ لي أن أقوم بجولة عساي ألملم خيوط ما حدث. فلم يعد يساورني شك حينها بشأن الهدف من تلك المغامرة التي أقحمت فيها. كان المشهد مريعاً؛ أجساد تناثرت في كل مكان، قد نزفت حتى آخر قطرة من دمائها. تلك كانت أول مرة أرى فيها أمواتاً رأي العيان. والأشد قسوة عليّ كان أن أقع على جثة لتلميذ من تلاميذي؛ فهذا كنت أعرفه، وهذا قمت على تكوينه وتدريبه، وما كان إلا فتى صغيراً. فأعظم بها من خسارة!

دخلت القصر من ردهة ملتوية، وجزت باباً ألفيتُني بعدها في قاعة فسيحة الأرجاء تطل على الشاطئ، يحيط بها زجاج كبير يقيها الريح والرمل. كان المكان فارغاً. فأين يكمن الملك؟ تُراه أفلح



Twitter: @ketab_n

في الالتجاء إلى مكان ما؟ ومن الجانب الآخر دخل مجموعة من التلاميذ، فحيوني من غير اكتراث أو اهتمام لأمري، ثم مضوا في سبيلهم. فمن أين جاءوا؟ وإلى أين يمضون؟ لم يكونوا هم أنفسهم يعون شيئاً. وفجأة جاءني أحدهم وقال لي : «هل تعلم أيها الملازم أول أن هذا الزجاج مصفح؟ انظر!». ورشقه بطلقات من رشاشه ثم هز رأسه : «أرأيت!». ثم مضى ليلتحق برفاقه الذين كانوا قد غادروا المكان.

لقد كنت بقدر حيرتهم وضلالهم. فواصلت سبيلي، وآثرت إلا أخرج من أول باب تُتفق لي. فلم آنَس إلى ذلك المكان، المقفر على غير العادة، المحفوف بصخب الموت وريبة وتوجس طاحنين. في الخارج كانت الأجساد متناثرة يكاد لا يخلو منها شبر من ذلك المكان : أجساد لتلاميذ قد اختلطت بأجساد المدنيين من رجال الأعمال الأثرياء ورجال السياسة المتنفذين وعبيد القصر البسطاء قد باتوا جميعاً سواسية تحت سلطان الموت.

ثم وجدتني فور ذلك على جانب ملعب الغولف، بقرب ما خيِّل إليَّ أنها المطابخ. وهنالك كان اعبابو، يرافقه ضابط صف وأربعة تلاميذ. كان هائماً على وجهه، كروح معنَّاة. وكان شاحباً يطوي ذراعه الجريحة. لم ينظر إليَّ. كان يبدو شارداً. فسرت أقفو خطى أولئك الجنود. وفجأة نهض رجل، كان منبطحاً على بطنه وصاح في اعبابو وهو يتميز من الغيظ :

- اعبابو، ما هذا؟



Twitter: @ketab_n

فدنا أحد التلاميذ من الرجل، وأمسك بذراعه، لكن الرجل تفلَّت منه بعنف، واستمر يصب جام غضبه على العقيد :

- ماذا كان اتفاقنا؟

ألقى إليه اعبابو بنظرة شاردة، ثم أجابه في شيء من اللطف :

- أأنت هذا أيها الجنرال؟ أين الملك؟

- قل لي أولاً ماذا تفعل هَهُنا، وفي هذه الساعة؟ ما هكذا كان اتفاقنا!

لقد بدا واضحاً أن الجنرال المذبوح لم يكن يريد أن يجيب عن سؤال العقيد؛ فقد كان حدسه يحدثه أن تلميذه قد غدر به. وبدا أن خللاً قد أصاب آلية الانقلاب الذي دبرا له هما الاثنان. غير أن المذبوح كان يعلم أن الملك كان يلبد في غرفة داخلية أسفل الصالونات، مختبئاً ومعه الجنرال أوفقير ووالدي، الذي لم يكن يفارق سيده في أوقات الاستراحة والترفيه. ولربما كانوا ثلاثتهم يبتهلون إلى الله ألا يجعل أحداً يفكر في الذهاب للنظر من وراء تلك الباب الخفية. ولو أنه كشف للكولونيل عن المخبإ، فما كان مستيقناً أنه لا يزال قادراً على التحكم فيه. لقد بات يشعر أنه لم يعد له من سلطان على الأوضاع. فكان ينظر إلى فتاه، كما المعلم ضبط تلميذاً بالجرم المشهود. واستاء اعبابو من موقف مخاطبه أكثر مما ساءه ألا يظفر منه بجواب عن مخبإ الملك. وبدا من سلوكه الغريب أنه قد بات مدركاً أنه خسر اللعبة.


Twitter: @ketab_n

وفجأة أمسك بذراع الجنرال وجذبه نحو غيضة، وهو يهمهم :

- تعال أيها الجنرال، ولنتفاهم!

ثم التفت إلى التلاميذ الذين كانوا بقربه وأومأ إليهم أن يتبعوه. وإن هي إلا هنيهنة حتى سُمع صوت طلق ناري. ثم عاد العقيد يتبعه التلاميذ من دون المذبوح...

في تلك اللحظة صار الجميع مرتاباً في الجميع؛ فجنرالات يغدرون بجنرالات، وجنرالات يغدرون بملكهم. وما فطن الجميع إلى أن القدر كان هو سيد اللعبة.

لقد حمدت للسماء أن بقيت بمنأى عن تلك التصفية للحسابات. فما أكثر ما راودني أثناء اعتقالي سؤال : لو أنني كنت في موضع أولئك التلاميذ، وقد أعطيَني الأمر بإطلاق النار على أحد الأشخاص، وليكن الجنرال، فماذا كنت فاعلاً؟ هل كنت سأجد الشجاعة لأرفض، مع احتمال أن يكون فيه مقتلي، أم كنت سأجبنُ فأنفذ الأمر؟ وأحمد الله أن جنبني تلك المحنة. فكيف كان يمكن لي أن أعيش مع ذلك العبء المثقل على ضميري؟ كلا إنني لن أدين أولئك الذين وضعهم حظهم العاثر في المكان الخطإ في الوقت الخطإ. فليغفر لهم الله، وليرحم الضحايا.

لقد وعيت بالحظ الذي قيِّض لي، وأدركت خطورة الوضع الذي كنت فيه، فقررت التعجيل بالابتعاد قدر الإمكان عن قائدي. وصرت حينها وقد اتضحت الأمور في ذهني : لقد شاركنا في انقلاب، ويبدو أنه مُني بالفشل. وقد كان كل شيء في وضع



Twitter: @ketab_n

العقيد، وفي الوضعية الميدانية يصرخ لي بتلك الحقيقة. فلم أكن راضياً، وأحسستني ساخطاً من الطريقة التي جرت بها الأحداث. وحدثت نفسي حينها أنه مهما كانت النتيجة، «فلقد حزمت أمري وقررت أن أهرب»، كما تقول الأغنية.

قصدت موقف السيارات، وبحثت عن سيارة مدنية، فوقعت على واحدة من نوع فياط 600، ووجدت المفاتيح فوق لوحة القيادة. فركبتها. وابتداء من تلك اللحظة صرت كالبهلوان أتقدم فوق حبل مشدود. «كان الشر جارفاً من الجانبين». وسواء أكان اعبابو سيفشل أو سينجح فإنني لم يعد لي بد من الرحيل. لقد كنت بحاجة إلى نصيحة أو مشورة. فقصدت أحد أعمامي، وكان مفوضاً للشرطة ومقرباً إلى الجنرال أوفقير. لكنني لم أجده في بيته ووجدت إحدى بناته، فحكيت لها مغامرتي الخائبة. اقترحت عليّ أن أستشير أحد أصدقائها، وكان دبلوماسياً ليبياً. فقبلت، كالمتعلق بأي شيء تطوله يداه. ثم كان أن التحق بنا الرجل، وجعل يقلب الأمر على كل الوجوه. ونصح لي في أول الأمر أن أغادر بيت عمي لأن وجودي فيه يضر بنا نحن الاثنين. وعرض عليّ أن يستضيفني في بيته وأن أمكث عنده إلى أن يتدبر الوسيلة لترحيلي عن البلاد. كان أمراً مأموناً؛ فلن يخطر ببال أحد أن يأتي للبحث عني في بيت دبلوماسي. لولا أن هذه المسألة كانت هي الأخرى تقض ضميري : هل يحق لي أن أقحم أجانب في سقوطي؟ لذلك قررت أن أتولى أموري بنفسي. فطلبت إلى صديقنا أن يرافقني إلى لواء المظليين وفي نيتي أن أسلم نفسي، وأنتظر تتمة الأحداث. فأقلني في سيارته وأنزلني غير بعيد


Twitter: @ketab_n

عن الثكنة. وهناك قدمت نفسي إلى مركز الحراسة الذي قام بإعلام ضابط المداومة، وقد اتفق أن كان هو الذي أشرف على تدريبي على القفز بالمظلة. لم يكن الرجل على علم بشيء فلم يهتد إلى ما يصنع بشخصي. أجملت له الوضعية، وقلت له إنني جئت أسلم نفسي. شعر بالتضايق، أكثر من أي شيء آخر. ثم قبل في الأخير. فتناول سلاحي وأفرغه وأحصى الرصاصات؛ وهو الأمر الذي لم يكن للشرطة ولا لقاضي التحقيق أن يتجشما القيام به. ومع ذلك فقد وضع تقريراً بالأمر؛ فهو شيء يلزم الضابط أن يقوم به : لم تكن تنقص رصاصة واحدة.

لبثت في مكتب المداومة، من غير أن يوصد عليَّ بابه، وحتى لقد قدموا إلي طعام العشاء. وكانوا جميعاً مترقبين : ماذا سيحدث؟ وهل يكون الانقلاب نجح، مصداقاً لما كان يعلن المذياع؟

وأما العقيد فقد رأى مخططه يمنى بالفشل في الصخيرات بعد أن أفلت منه الملك ومات الرجل الوحيد الذي كان بمقدوره أن يقوده إليه، فإذا هو يتوجه بما أمكن له أن يلملم من جنود صوب دار الإذاعة، التي كان يقوم على حمايتها الملازم الطيف، أحد مرؤوسيه السابقين. فحاول الرجل أن يمنعه من الدخول، فأرداه قتيلاً فوق درج المدخل. فلما استحكم له الأمر، أجبر ملحناً مغربياً ذائع الصيت على أن يتلو على أمواج الإذاعة خطاباً يعلن نهاية الملك الحسن الثاني واستيلاء العسكريين على السلطة. ثم توجه إلى قيادة الأركان العامة في الرباط، مؤملاً أن تنضم إليه سائر وحدات الجيش الملكي المغربي. وهناك مني بخيبته الأخيرة. وتكشفت له حقيقة


Twitter: @ketab_n

الأمر؛ فلم يكن أحد ليتبعه. فقد علمت هذه الوحدات أن الملك كان لا يزال حياً يرزق، وتلقت الأمر بالزحف على الرباط. فأما الجنود الذين سمعوا، وهم لا يزالون في الصخيرات، بتلك التعليمات ونفذوها وإن يكونوا متورطين بدرجة معينة في العملية، فقد تخلصوا من تلك الورطة بذكاء، وأما الآخرون فدفعوا فيها حياتهم. وأما اعبابو فقد وجد نفسه وحيداً في قيادة الأركان. وما أسرع ما طوقته الوحدات المسلحة للعاصمة. فاستسلم التلاميذ الذين كانوا معه من غير مقاومة؛ ومنهم من تعرض للتقتيل لم ينفعهم الاستسلام بأمر من ضباط شديدي حماس وجسارة ليأمروا بإطلاق النار على أسرى عزل. وظهر الجنرال البشير، وهو يومها قائد الأركان فغامر على رأس وحدة باحتلال مركز القيادة، من غير أن يلاقي مقاومة ونادى على المتمرد بقوله :

- اعبابو، أيها النذل، سلم نفسك، وإلا جئت لأركل مؤخرتك!

فكان رد اعبابو أن أفرغ ما تبقى لديه من ذخيرة في جسم الجنرال العجوز، الذي أطلق النار هو الآخر، فأصاب خصمه إصابة بليغة. وترنح اعبابو، وهو يدرك أن كل شيء قد انتهى بالنسبة إليه لكنه كان يرفض أن يسلم نفسه حياً. فالتفت إلى المخلص له عقا وأعطاه آخر أوامره :

- أجهز عليّ!


Twitter: @ketab_n

ومن المؤكد أن عقا قد كان تلقى من سيده تعليمات واضحة بهذا الاحتمال؛ فهو لم يتردد برهة في التنفيذ. فقد سدد رشاشه الثقيل، الذي كان يمسكه بكلتا يديه، إلى سيده، وأطلق عليه النار. ثم قفز من فوق السور واختفى وسط الأشجار.



Twitter: @ketab_n

في جوف الليل أيقظني القبطان المداوم في لواء المظليين ليطلب مني، في انزعاج، أن ألتحق بالمحجز؛ حيث أوصد عليّ الباب بالمفتاح. لقد حم القضاء. وفي اليوم الذي بعد تم نقلي إلى اللواء الخفيف للأمن. وهناك وجدت جل رفاقي مقيدي الأيدي ومكبلي الأرجل، وممددين على الأرض ليس بينهم وبينها شيء. الواضح أن أفراد اللواء الخفيف للأمن قد كانوا دون المظليين شهامة. فكبِّلتُ وقُذف بي كما الحزمة وسط زملائي. وعلى تلك الحال أمضينا النهار من غير أن نشرب أو نطعم شيئاً. وكان بعض الجنود الضاغنين يركلوننا بأحذيتهم في جنُبنا، سعداء أن بات بمقدورهم أن يركلوا مؤخرات ضباطهم. فهو حظ قلما يجود به القدر!

ها نحن بين عشية وضحاها قد انحدرنا إلى الدرك الأسفل من السلم الاجتماعي. وما كنا نعلم بعدُ أنها لم تكن إلا بداية السقوط. وفي المساء حررونا من أغلالنا وزجوا بنا في قاعة؛ لافرق بين ضباط وضباط صف وجنود. وكان التلاميذ كثراً؛ إذ فصُل منهم ألف وزيادة. فارتأت السلطات يومها أنهم سيعاملون معاملة خاصة ولن يتابعوا بشيء؛ فقد كانوا هناك بصفة الشهود. ووقتها بدأ


Twitter: @ketab_n

الإعداد لمحاكمتنا، من غير أن يجشموا أنفسهم أن يبحثوا عمن قام بالأفعال، بل كان كل همهم أن يبحثوا عمن يقتصون منه عن كل ما جرى. فأما اعبابو والمذبوح فقد ماتا، وأما بعض الجنرالات والضباط السامين، الذين اعتُبروا جناة لمجرد أن وجدوا في الصخيرات، فقد أعدموا رمياً بالرصاص في اليوم الذي بعدُ، من غير أن يكون لهم حق في أي محاكمة. ومع ذلك فما كانوا في ملعب الغولف إلا بصفة ضيوف الملك بمناسبة الاحتفال بعيد الشباب. فبعضٌ اتهم بالتدبير للانقلاب بالتعاون مع الانقلابيين، وبعض اتُّهم بالتحاقه بقطار الانقلاب. وحقاً إن بعض الجنرالات قد تحدثوا مع اعبابو في الصخيرات؛ وبين رفاقنا من زعم أنه رأى بعضهم في بوقنادل؛ بما يجعلهم شركاء في الانقلاب. وأما أنا ففي اعتقادي أن أحداً منهم لم يأت إلى بوقنادل، وأن اعبابو حاول أن يتخطى الجميع وأن الذين اتهموا بأنهم كانوا وإياه في القصر وفي هيأة الأركان إنما أجبروا على الحضور فيهما. فهل كانوا على علم بالانقلاب؟ ذلك أمر لَيس لي به من علم. فأنا لن أعيد عجلة التاريخ إلى الوراء. لكنني أعرف أن في ذلك اليوم كان الموت والرعب يجولان في شتى الأنحاء. وما كان اعبابو يرعوي أمام شيء أو يقيم اعتباراً لشيء. فقد صار كالحيوان الجريح؛ يجر الجميع في سورة سقوطه.

وما زلت على اقتناعي أن الرجل قد كان منذ البداية، وقت أن التقيته في الصخيرات، يعلم أنه خسر كل شيء، وأنه قد تراءى له حينذاك المآل الذي سينتهي إليه. بيد أنه لم يكن الرجلَ الذي يسلم بالهزيمة بسهولة. فقرر أن يقاوم إلى النهاية، وأن يصفي حساباته


Twitter: @ketab_n

ويقترف من الخسائر على قدر ما يستطيع. وأما نحن فقد وجدنا أنفسنا محبوسين كالبهائم في قاعة للواء الخفيف للأمن شديدة الضيق. فما وسعنا فيها أن نتمدد، ولا تسنى لنا مجرد الخروج إلى المراحيض. وقد جعلوا في وسطها برميلاً بسعة مائة ليتر لنقضي فيه حاجتنا. فإذا عن للواحد منا أن يصعد فوق ذلك البرميل لم يكن له بد بطبيعة الحال من الاستعانة بآخر. وكانت المصابيح تظل موقدة ليلاً ونهاراً. فكانت لنا فيها إهانة زائدة؛ فلم تكن تترك للواحد منا أن يستتر لقضاء حاجته. وكانت على أكثرنا خجلاً محنة وأي محنة. ناهيك عن صنوف الاستفزازات التي كنا نلاقيها من الجنود، فقد كانوا سعداء وهم يرون، كما يقال، كيف انقلبت الأحوال. وأدركت أن عليّ أن أكظم كرامتي وأتصاغر ما استطعت ولا ألفت إليّ الأنظار، وأن ألين ما وسعني اللين حتى لا أنكسر. وتوالت علينا الأيام في إهانة واحتقار، وكل ما فيها لا يعدو عن خيبة ومرارة. وصرنا نعود أنفسنا على تجرع البوس والانحطاط. فقد كان رفاقنا في الفوج يأتون هم أنفسهم ليسخروا منا، ما لم يتعرضوا لنا بالسباب. فما كنا إلا خونة ومنبوذين وكفرة. وبعد ثلاثة أسابيع جرى ترحيلنا ونحن مكبلو اللأيدي ومعصبو الأعين إلى إدارة الأمن الوطني. فطالت بنا الاستنطاقات عشرة أيام؛ لم يحرروننا يوماً واحداً من تلك الأغلال ولا من تلك العصابات. كان الطعام جيداً، ورجال الشرطة لطفاء. وقد علمنا في ما بعد أن الجنرال أوفقير كان يشرف بنفسه على إجراءات المحاكمة. وقد أعطى أمره ليلاً تشدد لنا المعاملة. وحرص كذلك على أن يتولى استنطاقنا رجال



Twitter: @ketab_n

الشرطة وهو ما لم يكن في حالتنا بالأمر القانوني. فكل ما يتعلق بالجيش إنما يدخل في اختصاص الدرك. وقد رأى البعض في هذا التصرف من أوفقير دليلاً على ضلوعه في ذلك الانقلاب. ولست من هؤلاء. إنما كان أوفقير مديراً للأمن، فكان يفضل أن يعهد بنا إلى جهاز له به معرفة ودراية، وكان لا يزال له عليه بعض نفوذ. وإخال أن ذلك السلوك منه كان ينم عن تضامن، مهما يكن محدوداً، مع الجيش. وأما أكثر ما آلمني خلال تلك المحنة، وبعدها، ولا يزال إلى اليوم يبعثني على غصة ومضاضة، فإنما هو الموقف الذي كان من الجيش نحونا. وعلى خلاف التضامن الذي كان، ولا يزال يلقاه أعضاء الأحزاب السياسية والمنظمات وحركات المعارضة ضحايا سنوات الرصاص من هذه المنظمات، صرنا نحن كالموبوئين. فستطرحنا الطبقة السياسية، وستشفي فينا غليلها وتثأر لخوفها من العسكريين، وسيتنكر لنا الجيش طمعاً في التكفير عن خطاياه.

فلما انتهت إجراءات الشرطة جعلونا نوقع على بياض، ثم أرسلونا إلى السجن العسكري في القنيطرة، في انتظار المحاكمة. وفي القنيطرة وضِعنا تحت مسؤولية الدرك والمقدم بوعزة، وهو عسكري سابق في جيش الاستعمار. وما كان الرجل في مبتدئه سوى عسكري، فارتقى الدرجات بقوة العزيمة والاندفاع الذي كان يقتحم به ساحة الوغى حيث كان الفرنسيون يضعون أمثاله في مواجهة الموت. وقد ظل الرجل يحتفظ من ماضيه بهيأة توحي بشيء من البلادة وكلام خشن، لكن صريح. وعلى كل حال فإنه لم ينخدع بما كان يقال؛ فما كان يرعوي أن يظهر لكبار المسؤولين في الأمن أنه


Twitter: @ketab_n

داخل السجن هو القائد. لقد كان من العسكريين القلائل الذين تعاطفوا وإيانا؛ فلم يكن يتردد أن يقول لكل ذي أذن سامع إننا ضحايا، وإن من المؤسف أن نخسر ذلك العدد من الضباط الشبان. وما زلت أحتفظ بذكرى طيبة لهذا العجوز؛ فقد كان قاسياً، لكن رؤوفاً، في ذلك الوقت الذي كانت فيه الأفعال المواسية شيئاً لا يقدر بثمن. وكان أكثر ما ميز هذا القائد يوم أن حصل لنا على رخصة للذهاب للعلاج. فتلك كانت معجزة حقيقية، وحتى إن منا من وضِع في المستشفى. ثم كان أن التجأت إليه في نازلة أخرى. حدث ذلك في وقت كنا نخرج تباعاً لنروح عن أنفسنا في الساحة، لكن لم يكن لنا حق في أي شيء. ويومها أهداني أحد الرفاق ثوباً داخلياً دافئاً. فتقبلته منه. ثم ما كدت ألبسه حتى بدأت تتأكلني سائر أطرافي. وخشيت الإصابة بسوء، فاغتنمت خروجي إلى الساحة لأبدد شكوكي؛ فقد كان الثوب يعج بالقمل، فانتقل إلى سائر ثيابي. ولم يكن بإمكاني تحمل تلك الذويبات القذرة. فلم أخجل من المناداة على القبطان بوعزة، فوحده القادر على أن ينصت إليَّ وهو وحده الذي كان يمكنه بحق أن يتفهمني. فجاء ليراني، وشرحت له الوضع. فلم يجبني بشيء، والتفت إلى مساعده وأمره أن يأتيني بمسحوق الدي دي تي. فنثرته على ثيابي كلها وفوق جسمي وفي الزنزانة. وبعد يومين استحممت جيداً فتخلصت من ذلك الوباء. لقد خلصني ذلك الحادث من القمل لكنه كشف لي عن كثير من المقملين الذين كانوا يصبرون بدافع الخجل أو بدافع الحياء على لسعات تلك الهوام.



Twitter: @ketab_n

ثم حان موعد المحاكمة. وما كنا إلا مفرطي السذاجة؛ فقد كنا نعتقد موقنين أننا لم نكن بحاجة إلى محامين، وأننا كنا أبرياء وأن الحكم لن يعدو أن يكون إجراء شكلياً. وغاب عنا أن الملك تحدث في خطابه عن تلك النظرية الشهيرة؛ نظرية «الكمامات الذكية» وهي التي تقضي بأن المرؤوس لا يكون مجبراً أبداً على إطاعة أمر غير شرعي. وإن مجرد إطلاق هذه الجملة قد كان فيه إدانة مسبقة لنا. ولم نكن نعلم كذلك أن الملك قرر أن نحاكم، لا في محاكمة عسكرية، حسبما يقتضي القانون، بل في محاكمة خاصة، يرأسها قاض مدني... يساعده ضباط سامون. وتولى الدفاعَ عنا محامون عينتهم المحكمة أو وكلهم بعض المتهمين (معظمهم من أقارب اعبابو)، أو جاءوا متطوعين، وبعضهم إنما جاء بغرض المباهاة. وحضر آخرون، وقد كانوا أقل عدداً، لكن أكثر فعالية، لأسباب أخلاقية أو إديولوجية. ولن أعلق بشيء على موقف زعيم حزب الاستقلال السيد علال الفاسي، الذي طلب إلى المحامين في حزبه أن يمتنعوا من الدفاع عنا. إنه رد فعل صادر عن موقف سياسي سيكون عليه هو وحده أن يبرره أمام محكمة التاريخ، وأما الذين أطاعوه إلى ما أمرهم فماذا سيكون عذرهم أن تخلوا عن واجبهم الأول : الدفاع؟

ظهر محاميّ، الذي عينته لي المحكمة، والذي أتكتم عن اسمه إشفاقاً عليه، في الطور التمهيدي من محاكمتي - وحتى لقد حمل إليّ علبة سجائر، وتصنع وتكلف لاجتذاب كاميرا التلفزة إليه. ثم اختفى، إلى أن كان يوم النطق بالحكم عليّ، فقد كان من المفترض



Twitter: @ketab_n

أن يُعاد نقله على شاشة التلفزة. فكان أن مثُلت أمام المحكمة من غير محام يدافع عني.

لقد ابتدأت قضيتي بداية سيئة. ففي يوم محاكمتي كان القاضي شديد العدوانية نحوي. أكان بسبب هيأتي التي لم ترق له، أو لأنه كان على نزاع مع أحد أقربائي، ولربما هو والدي؛ فقد كان الرجل يتردد من حين إلى آخر على القصر. وقد تضمن ملف المؤاخذات عليّ أنني كنت عارفاً بتلك الأمكنة، وما هو بصحيح وأنني قد كُلفت من طرف العقيد بالبحث عن الملك في الصخيرات وما كان هو الآخر إلا ادعاء كاذباً لا يستند إلى شيء، لا إلى أدلة ولا إلى اعترافات. وفي يوم الترافع عين الرئيس لتمثيلي محامية مبتدئة لا أعرف أي صدفة شاءت لها أن توجد في تلك المحكمة. فارتجلت خطاباً كان أولى أن يلقى في تجمع لنساء الحي في الدعوة إلى الأعمال الخيرية.

فكان الحكم عليّ بعشر سنوات سجنا لمجرد أخذي بالشبهات.

وانسدل الستار على أوهامي، إن كان قد بقي عندي من أوهام. وكان الواقع مراً، ولم يكن بد من تقبله. وابتدأت لديّ حياة جديدة، وعليّ أن أمضي عشر سنوات في السجن. وفكرت حينها أنني كلما سارعت بالانسجام مع شخصيتي الجديدة إلا تيسر عليّ أن أتحملها.


Twitter: @ketab_n

*Twitter: @ketab_n*

دارت عجلة الحياة في المعتقل، فإذا هي أقل قسوة من ذي قبل. فبعد أن صدرت فينا الأحكام أصبح لنا الحق في بعض الزيارات وأصبح في إمكاننا أن نتلقى الطرود من أسرنا ونتلقى الرسائل. ثم صرنا نركن إلى الرتابة اليومية المعتادة في حياة السجين: الأكل والنوم وشيء من الرياضة وشيء من القراءة. وكنت عندما نُقلت إلى القنيطرة قد صرت أفعل كما يفعل الجميع؛ إذ أقبلت على الصلاة. وقد كنت إلى ذلك الحين أؤدي صلواتي اليومية الخمس بجري العادة، وأقرأ بين الفينة والأخرى بعض السور القرآنية. كنت أعتبرني مسلماً، غير أنني لم أكن أبالغ في ممارسة الشعائر. وقد خبرت منذ سني شبابي أهم الديانات؛ بدءاً بالبراهمانية وانتهاء بالبوذية، وكذلك قرأت الڤيدا والجيتا وكونفوشيوس، ودرست العهدين القديم والجديد. وكنت كعموم أبناء جلدتي أمتلك تصورات واضحة نسبياً عن الإسلام ولم أكن أتعداها.

وكما الكائنات التي تألم وتتخبط في الريبة والشك، أو التي انجرحت عميقاً بنوائب الحياة، وجدتني قبل المحاكمة ألوذ بإيمان مغرض، وأقبل على الصلاة بحماس شديد. كانت الصفقة واضحة:



Twitter: @ketab_n

ربي، تخلصني أعبدْك. ولم أسأل نفسي قط ما فعلتُ لأجل الرب أو لأجل مخلوقاته، وماذا صنعت بشخصي وحياتي. ثم صدر الحكم ومعه انهار إيماني الوليد المهتز. فانقطعت عن الصلاة في غير تمرد ولاسخط أو ابتئاس. وأحسستني حينها «غريباً»، فكأنني مورسولت يوم دفن أمه.

وذات يوم وقع التحول. لا يمكنني أن أقول من أين ولا كيف جاء. فما رأيت ملاكاً، ولا لمحت نوراً أبيض، أو سمعت مجرد صوت. كنت بمعية الرفاق في مجاز البناية حيث توجد زنازننا، ونحن في طريقنا للخروج إلى الساحة في فسحتنا اليومية، وحينها التفتت إليهم وقلت :

- إنني أسلم نفسي من غير شروط!

نظروا إليّ تعقد الدهشة ألسنتهم. فلم يفقهوا شيئاً مما قلت وخيل إليهم أنني إنما كنت أهذي أو أخرف. فقد صرنا لا يستغرب منا أحد للتصرفات الغريبة تصدر عن الآخرين بعد كل ما ألمَّ بنا. بل صارت حالة السواء عندنا هي ما يدعو إلى الاستغراب.

عدت أعقابي إلى زنزانتي وتناولت ثيابي النقية، وقصدت الصنابير لأتوضأ الوضوءين الكبير والصغير وأؤدي صلوات اليوم. لقد فوضت أمري إلى الله، من غير قيد أو شرط ولا خلفيات ولا أي غرض إلا الخلاص لروحي. وقطعت مع نفسي عهداً ألا أطلب شيئاً في المقابل. ووفيت بعهدي إلى النهاية. لقد انخرطت في تجربة وفي اختبار سيعطيان حياتي معناها.



Twitter: @ketab_n

إن كل ما حدث لي، وما يفترض أنه سيحدث لي، كان يدخل في نظامَ أراه في منطق الأمور. وذلك كان عندي هو المعنى الكامل لكلمة «إسلام».

لقد تكتشفت لي هذه التجربة عن شيئين أساسيين : الله ونفسي. ففوضت أمري إلى الله، واستسلمت؛ لا أطلب شيئاً. أعطي بلا مقابل وفي غير ما نفاق. أعطي لأجل ما عشت، ولأجل كل ما أخذت، وكل ما تعلمت؛ أعطي فقط. وقد وطنت نفسي طوال سنّي محنتي في المعتقل، على أن أؤدي واجبي الديني، من غير أن يساورني شك، أو أُنحو باللائمة على السماء، أو أخلط قط بين إيماني ومصيري. لقد أُقحمت في ذلك المكان بفعل الإنسان. ولسوف أخرج منه بمشيئة الله. ولو كنت أخللت، ولو لبرهة من زمن، بهذه القاعدة، لكان فيها ضياعي.

بعد بضعة أسابيع من صدور الحكم إذا ببعض وحدات الشرطة تنزل علينا على حين غرة وتنقلنا من السجن العسكري إلى السجن المركزي في القنيطرة. فصرنا يومها مدنيين، وسقطت عنا الصفة العسكرية إلى غير رجعة، وصار بإمكاننا أن نؤمل في الحصول على وضع السجناء السياسيين. وكذلك كان؛ فقد عاملتنا إدارة السجن بشيء من المراعاة. فجنبتنا الأشغال الشاقة والأعمال التي تُنزَل ببقية المعتقلين. وكانت تسمح لنا بالحصول على الطعام والكتب وأجهزة المذياع، وأجازت لنا أن نمارس التمارين الرياضية وأن نلعب كرة القدم. لقد كنا يومها المحظوظين في ذلك المعتقل.


Twitter: @ketab_n

كان المستوصف مشرع الأبواب في وجوهنا، فكان الرفاق يفيدون مما فيه. وكان الأطباء لا يترددون أن يصفوا لنا شتى أنواع المهدئات ومضادات الانحطاط، عملاً بالنظرية القائلة إن كل سجين هو شخص مريض بالقوة.

وذات يوم كنت في المستوصف، فجيء بأحد سجناء الحق العام، تلوح عليه سيماء المرض. فنظر إليه الممرض باستعلاء، ثم التف إلى الطبيب وقال له :

- إن هذا ليس بمريض يا دكتور، بل يتمارض!

فرد عليه الطبيب :

- أن تكون سجيناً يا صديقي هو في حد ذاته مرضٌ. وهذا الرجل مريض ويبغي معاملته كمريض.

كان پروست يقول : «كما الشعراء في وقت التغني، وكما العشاق في مبتدإ الحب، يكون المرضى أقرب إلى أرواحهم». وكذلك هم السجناء، يكونون أقرب إلى أرواحهم.

في الداخل اختلطنا بمعتقلي الحق العام. فكانوا ما أن يجوزا باب بنايتنا ليقوموا بأعمال التنظيف حتى تنصرف عنهم عدوانيتهم. فتمحي تلك الفوارق العضلية التي تخلق التراتبات داخل السجن وتأخذ ملامحهم في الانبساط. إنهم يستعيدون على وجه الإجمال شيئاً من كرامة.

فما السبب في ذلك التغيير الذي يجدونه من أنفسهم لمجرد أن يوضعوا خلف سياج؟ هل مصدره من الشعور بنوع من الأمان؟


Twitter: @ketab_n

دون شك. لقد وجدوا أنفسهم في محيط أكثر عقلانية؛ فكنت تراهم يبحثون، ولو من خلال ما يقومون به من تلك السخرات عن دليل بأن المرء، ولو كان سجيناً، يمكنه أن يحتفظ بإنسانيته. وكنا نحن المثال الحي على تلك الحقيقة. فقد كنا نتخلص من توافه الحياة المادية بالتشبث ببعض المثل وبعض المبادئ أو بالإيمان والثقافة. وتأثروا كذلك بعدد الكتب التي كانوا يرونها لدينا. فالمعرفة كثيراً ما تدخل الروع في نفوس الأشداء.

وإذا كان المرء يعيش في خضم من الشك والريبة والجهل لم يكن ما يعصمه أن يتهالك على شتى أنواع الترهات. فمنذ أن ابتدأت أحداث الصخيرات والشائعات بشأنها تنثال من كل حدب وصوب. وما أكثر ما سمعنا كذلك من أكاذيب وافتراءات على أثَر محاولة الانقلاب الثانية على الملك الحسن الثاني؛ تلك المحاولة التي قام بها «الطيارون» في غشت 1972! فقد قامت مجموعة من الضباط باعتراض طائرة البوينغ التي كانت تقل الملك في طريق عودته من رحلة إلى فرنسا، وحاولوا عبثاً أن يجبروها على النزول في القاعدة العسكرية في القنيطرة. ولقد بذلوا أكثر من محاولة لإسقاط الطائرة الملكية، وألحقوا بها إصابات شتى، لكنها أفلحت في الوصول إلى مطار العاصمة. وشاءت الأقدار أن ينزل منها الملك وهو سليم معافى. وحينذاك هاجم الانقلابيون القصر وقنبلوا بنايات كثيرة فيه. لكن بعض الوحدات العسكرية أفلحت في الاستيلاء على قاعدتهم واعتقال كل من كان فيها. واتهم الجنرال أوفقير بأنه المدبر لتلك المحاولة الانقلابية الفاشلة، فتم قتله في اليوم نفسه. وما


Twitter: @ketab_n

أكثر الروايات الملفقة التي راجت يومها عن المدبرين لتلك المحاولة الانقلابية الجديدة وعن البركة التي يتحلى بها الملك وعن شتى التمائم والتعاويذ التي يتقلدها على الدوام؛ تلك الرقى التي يعدها الفقهاء بالاستعانة بشمهروش، ملك الجن. إنها ترسانة كاملة من الرقى الخارقة المحصنة من كل شيء؛ من قبيل ما سلمه الباشا الكلاوي قبل وفاته؛ تلك «التباريد» المعلومة التي من شأنها أن تحصن المرء من الرصاص فلا ينفذ إليه. وفي ذلك الخضم من الشائعات مرت واحدة من غير أن ينتبه إليها أحد؛ وهي التي كانت تتحدث عن معتقل عسكري كان يجري بناؤه في الصحراء ويسمى تازمامّرت.

حل الطيارون محلنا في السجن العسكري في القنيطرة، وبعد المحاكمة جرى ترحيلهم مثلنا إلى السجن المركزي. وبذلك اكتملت الحلَقة.

كان المكان ضيقاً لا يسع الجميع، فأنزلتنا الإدارة في جناح المحكومين بالإعدام. فهل تراها كانت إشارة من القدر؟ فلما تم الإفراج عن أولئك من بيننا المحكوم عليهم بعقوبات هينة؛ أي ثمانية عشر شهراً، بات المكان يتسع للباقين. فجرى حينها، في جوف الليل، نقل الطيارين إلى القاعات التي باتت شاغرة. وبتنا ليلتها متحرقين أن يسفر الصباح لنراهم، وقضينا ليلتنا نفكر كيف سيتسنى لنا أن نقترب منهم ونتحدث إليهم. ويومها اجتمع شملنا طيارين ومشاة. وقد كنا نؤمل أن تسير الأمور نحو الأفضل؛ لكنها ستسير إلى الأسوإ.


Twitter: @ketab_n

لم نعرف بعضنا يومها، ولن يتسنى لنا أبداً أن نتعرف على جيراننا الجدد بغير السمع. ففي منتصف الليل، وفي جو الحرارة الخانق لشهر غشت 1973، غشي سربٌ من رجال الشرطة والدرك البنايةَ، وفتحوا الزنازن واحدة فواحدة، وعصبوا أعيننا وقيدونا وحملونا في شاحنات كانت متوقفة في فناء السجن. لم يسبق لي أن رأيت انتشاراً لمثل تلك القوة، حتى أثناء أحداث الصخيرات. والمؤكد أنهم قد أعدوا لتلك العملية بإحكام فهي لم تستغرق غير وقت يسير. وإن هي إلا هنيهة حتى أفرغت الزنازن، واكتمل نقلنا وبدأت الشاحنات تتحرك باتجاه القاعدة الجوية؛ حيث بعض الطائرات العسكرية تجثم على أهبة الإقلاع. وفي الفجر أنزلنا في مكان لم نكن نعرفه، ولم يكن بوسعنا أن نراه بأي حال : كان مطار الرشيدية. وهنالك كانت شاحنات أخرى، عسكرية، في انتظارنا. فحملتنا ومضت بنا صوب المجهول.

عندما توقفت الشاحنات سمعت ضجة قد باتت مألوفة لديّ؛ تلك الضجة التي تُحدثها أقفال أبواب الزنازن؛ ضجتان قصيرتان وشديدتان، «طاق طاق»، يعقبهما صدى يتردد كما صنجة في قرارة بئر أو قعر مغارة. فلما حان دوري شدت على كتفي يدان وأقامتاني. فتقدمت مترنحاً في الشاحنة. فلما بلغت الحافة قذفتا بي بعنف في الفراغ. انقطعت أنفاسي لبرهة في خضم من السديم الشامل. وتسارعت أفكاري، وصرت لا أكاد أشعر بجسدي. إنه من فعل الخوف الشديد. فلما أوشكت على السقوط تلقتني أربع أذرع شديدة، فأمسكت


Twitter: @ketab_n

بي ووضعتني فوق أرض وجدتها على شيء من وداعة. وقبل أن أعود إلى رشدي وجدتني أمام ما سيصير، منذ ذلك الحين قبرَ حياتي. إنها الزنزانة ثلاثة عشر.


Twitter: @ketab_n

القبو الذي أُنزلت فيه لم يكن يزيد عن مكعب من الإسمنت والظلمة، بسعة مترين على ثلاثة؛ يعجز ضوء النهار الباهت أن يبدد ظلمته. وفي العمق توجد بلاطة إسمنتية تقوم مقام المقعد والسرير. وفي الزاوية، على مقربة من الباب مرحاض تركي. وتطل على المجاز ثلاثة صفوف من الثقوب بحجم عشرة سنتيمترات، قد جعلت في أعلى الحائط على ارتفاع مترين ونصف. ويتوسط السقف ثقب من الحجم نفسه يسمح بمرور الهواء، ينفتح على ما يشبه الحظيرة بعلو متر وثمانين أو نحوها، تشكل طابقاً من فوق الزنازن. إن هذا الطابق، الذي لم يكن بوسعنا إلا أن نتكهن به، ولا نراه، كان مغطى بسقف من القصدير، وقد جعلت في جانبيه فتحات عليها قضبان. وأبواب الزنازن تطل على مجاز يتوسطها ويخترق البناية كلها، ويتوسط سقفها شقٌ عليه قضبان من انفولاذ، كان هو مصدرنا الوحيد وغير المباشر من الهواء والنور.

ها أنذا في مقامي الجديد. وما كنت قبل ذلك اليوم أعرف التطيرً، على الأقل ما تعلق منه بالتواريخ والأرقام. لكنني ابتُليت بالتطير، كسائر بني البشر الذين نهشتهم المصائب.



Twitter: @ketab_n

ما أن أوصدوا عليّ الباب حتى اكتنفتني الظلمة. وخيّم صمت ثقيل. وخرست حتى العصافير. وما أفلحت ضجة أحذية الجنود ولا فرقعة الأقفال أو الانصفاق الحاد للأبواب أن تبدّد الفراغ الذي هيمن على روحي وعلى فكري. جعلت أجيل النظر في تلك الحفرة وأنا لا أصدق نفسي. لقد جعلتني أفكر في دياميس المسيحيين. فكرة جعلتني أبتسم. وكأن للموت ديانة مخصوصة!

ثم تنبهت إلى حالي. ووجدتني أحدث نفسي : «ماذا فعلت بنفسك يا هذا!...». لقد كنت في ما يبدو أنه قبري.

كانت الزنزانة رقم «13» أسوأ الزنازن. فقد كان مرحاضها من غير رشّاف؛ فكانت الزنزانة تغص برائحة مزاريب البنايتين، فتشتد عليها النتانة، حتى إذا فتح الحراس عليّ الباب ليقدموا إليّ قوتي اليومي، كانوا لا يتمالكون أنفسهم في كل مرة إذا صفعتهم هبة الهواء النتن أن يتراجعوا إلى الوراء. والسقف منخرق كغربال، فإذا أمطرت استحالت الزنزانة دشاً حقيقياً. فإذا توقف المطر في الخارج ظلت تمطر في زنزانتي لما لا يقل عن الأسبوع بعدها، إلى أن تجف بركة الماء المتجمع فوق السطح. وفي الشتاء تنخفض الحرارة إلى ما دون الصفر، فإذا الزنزانة جحيم لا يطاق.

كانت الزنزانة خالية مقفرة، إلا من بلاطة إسمنتية وغطاءين عسكريين يعودان إلى العام 1936، قد بليا حتى نسلت خيوطهما. وعلى الأرض وضع إبريق للماء من فئة الخمسة لترات أو نحوها وصحن وقنينة بلاستيك.


Twitter: @ketab_n

لزمني أن أنفعل بسرعة، وأتخذ قرارات جذرية، وأقتلع من ذهني كل تساؤل، وكل ما يمكن أن يكبله أو يشله أو يجذبه إلى الأسفل وإلى لجج الندم واليأس.

فلما سمعت الأقفال تنصفق كأنها الصنجات، أدركت أننا مقيمون في ذلك المكان لوقت غير يسير. فعقدت العزم على أن أسلو عن الخارج. فما عاد لي أسرة ولا أصدقاء، ولا عاد لي من ذكريات خاصة ولن يكون لي من مستقبل. لقد كنت في ذلك المكان، وليس في أي مكان سواه. وإذا زنزانتي هي عالمي ورفاقي في النكبة ومجتمعي وثقافتي وعقيدتي، وهي كل ثروتي. ولم يعد بد من القبول بمصيري وأن أضرب عن التفكير بعدُ في الأسباب والمسببات. ولزمني أن أتقبل أولاً ما كنت أسميه الأحكام الثلاثة.

حكم بني البشر، الذين وصلت إلى ذلك المكان بإرادتهم والذي وطنت نفسي على ألا أعترض عليه، ذلك بأنني قد دخلت مسلحاً، ولو على الرغم من أنفي، بيتَ رجل، وانتهكت خصوصيته وكدرت عليه هدوء أسرته وأطفاله. ويقال في ثقافتنا : «الهاجم يموت شرعْ !». والأحرى أن أقول إنه يموت بكل مشروعية.

وحكم السماء، الذي رضيت به محنة أو اختباراً أو بلوى. بلواي. فما الحياة عندي إلا تجربة واختبار. فمن الناس من يهبهم الله كل شيء، ومن يحرمهم كل شيء؛ فينظر في ردود أفعالهم جميعاً. ولا أزال على يقين أنني لو كان الله وهبني كل شيء لكنت فشلت ولكنت اليوم جنرالاً عجوزاً أكرش مدمناً للكحول وفاسداً.


Twitter: @ketab_n

ثم حكمي أنا على نفسي : فأنا مسؤول عن المصير الذي كان من نصيبي، فلا يمكنني إلا أن أقر بذنبي. لقد كنت سيزيف وأنتيغون معاً، وكنت منقاذاً وشجاعاً. وبعد هذه المحاكمات الثلاث ألغيت أناي، وأقبرت في نفسي السؤال عن الأسباب. فصار بوسعي حينها أن أعيش وأصمد، وأعض على الحاضر بالنواجذ، وأن أكون أنا وحدي سيد قراري.

في الخارج توقفت ضجات العساكر فجأة، فما عدت أسمع غير هرير محركات الشاحنات وهي تبتعد، منسحبة بما بقي عندي من شك وارتياب في مصيري.

تصرم النهار متثاقلاً، وأصبح الصمت أشد وطأة. فكأن الزمن توقف والحياة تجمدت. حتى العصافير أصرت على البقاء خرساء يزدحم صمتها بكل الاحتمالات. ثم انبعث صوت، على استحياء يحمله الصدى خلال الحيطان الباردة الصماء؛ فكأنما يبحث في الإسمنت المسلح عن شق أو موضع رحيم يسكن إليه. ثم تلاه صوت آخر وثالث. وبدأت تنثال الأسئلة، ثم تلتها أجوبة لم يكن يسمعها أحد؛ أسماء مجهولة وأصوات شوهاء، وذلك الإسمنت القاسي الذي كان، كمصاص دماء قد استبد به الجوع لقرون من السغب؛ فهو يلغ بنهم من تلك المزق من حيوات. ثم إذا العصافير قد استخفها عناد الطبيعة والتفاؤل القدري من بني البشر، فإذا هي تطرد عنها الخوف وتنخرط في ذلك الشغب العام.

في الزوال جاء الحراس، فدفعوا إلينا بخبزة من نحو مائة غرام وصحن به حمص مطبوخ في الماء مع شيء من الملح. وستكون



Twitter: @ketab_n

تلك هي وجبتنا الدائمة والثابتة في تازمامرت، مع طعام عشاء قوامه صحن عجائن مطبوخة هي الأخرى في الماء مع قليل من الملح.

لقد جرى نقلنا في عز شهر غشت، فحصلنا جميعاً على سراويل وقمصان كاكية؛ فتلك كانت الكسوة العسكرية التقليدية لفترة الصيف. وتم تجريدنا من اللباس المخطط الذي هو لباس السجن المدني. لكننا احتفظنا بالصندل البلاستيكي الذي كنا نلبسه عند وصولنا إلى المعتقل. فاستبدلنا ثيابنا في شيء من الحبور؛ إذ كنا نشعر في قرارة أنفسنا بالارتياح أن تخلصنا من لباس العار إلى لباس آخر على شيء من الاحترام، هو اللباس العسكري الذي كانت لا تزال لنا به وشائج. وكان يخيل إلينا، على الرغم من فظاعة تلك الأمكنة، أننا قد استعدنا فيها احتراماً ظاهراً؛ ذلك بأن الأشد علينا في كل ما فقدنا، وقد فقدنا كل شيء، كان أن نفقد كرامتنا. بيد أن ذلك الوهم بالاحترام المستعاد، بعودتنا إلى حضن كيان عسكري لن يدوم طويلاً. إننا لم نتراجع إلا لنتمكن من القفز بعيداً... إلى الهاوية.

وابتداء من مطلع شهر أكتوبر بدأت الحرارة في الانخفاض. وبعد أن اصطلينا بحر الصيف الخانق، سنصير نخبر أهوال الشتاء القر الصقيع، الذي تُعرف به المناطق شبه الصحراوية، تزيد إليها قساوة المناخ في الأطلس المتوسط. ثم إن الخريف لم يعمر إلا قليلاً. وبدأت درجات الحرارة في الانخفاض بلاهوادة. وطلبنا لباساً للشتاء كما كانت العادة داخل الجيش، لكن من غير طائل. لقد اصطدمنا بما سيصير منذئذ حصتنا اليومية : اللامبالاة.



Twitter: @ketab_n

ولأستطيع أن أنام في الليل كنت أطوي غطائي لأجعله كحزام في عرض خمسة عشر سنتيمتراً أو نحوها. وبذلك أحصل على شيء من سُمك، ولو قليل بين جنبيّ والإسمنت؛ فلم يكن بمستطاعي أن أنام بطبيعة الحال إلا على الجنب. فإذا عن لي أن أتحول إلى الجنب الآخر لزمني أن أنهض وأعيد إعداد تلك العدة ثم أعود إلى الاضطجاع على الجنب الآخر، بعد أن أعيد العدة كلها هيأتَها الأولى؛ أي أن أعيد عليّ الغطاء الآخر وقد طويته مرتين، وأحرص على أن أثبت طرفيه تحت جسمي. وقد كانت الحكمة تقتضيني ألا أترك من شق، مهما يكن صغيراً يمكن أن ينفذ منه الهواء. تمرين حقيقي لم يكن لي منه مناص بعد كل حركة أقوم بها كأنه طقس ثابت لا يتبدل. فأقل شق يلحق تلك القوقعة المرتجلة يصير مصدراً للتعذيب؛ فهو يكون تياراً نفاذاً ومتواصلاً يخترق منك الجلد والعظم. فإذا الحالة الجوية داخل ذلك المخبإ قد صارت في الحال شيئاً لا يطاق. فلكي أتدارك الأسوأ كان يلزمني أن أعيد ترتيب كل شيء من البداية. ولا حاجة إلى القول إن الأمر كان يستغرق من الوقت بلا حساب. ثم صرت بتوالي الأيام خبيراً بهذه الأمور، فإذا تلك المعالجات قد غدت عندي في تناقص. فصار يتيح لي مزيداً من الوقت للنوم ويخفف عني أسباب الإجهاد.

فإذا صرت تحت الغطاء باتت كل حركة أجيئها مخاطرة كبيرة. فلزمني أن أتحمل الآلام في وركي والآلام في كتفيّ أطول ما في الإمكان، ولزمني خاصة أن أقتصد في الهواء المختزن؛ فلا أجيز


Twitter: @ketab_n

لنفسي أن أغيره إلا عند الضرورة القصوى، متى صار غير قابل للتنشق. فقد كانت الحاجة ماسة إلى كل مصدر للدفء، وليس عليَّ أن أفلت شيئاً؛ فكنت أحفظ أقل ضُراط (ويعلم الله كم كان عندنا كثيراً بسبب القطاني التي كنا نبتلعها كل يوم!)، إلى حين أصير تحت الغطاء، وقد استيقنت أن ضراطي لن يضيع. الروائح؟ أي روائح؟ لقد كانت كثيرة. وتزداد كثرة مع كل يوم. حتى لقد صرنا عنها ساهين. فلقد اعتدنا النتانة، مثلما اعتدنا الجوع والبرد ومحناً عداها كثيرة، واعتدنا العطش أيضاً، لأن الماء الذي يقدم إلينا يكون ملوثاً، فإذا أفرغناه في الإناء البلاستيكي استحالت جوانبه على الفور لزجة دبقة؛ وعلا سطحه غشاء من حمإ. وسرعان ما اجتمع رأينا على الإضراب عنه فما عدنا نشربه. فقد كان الطعام في معظمه من السوائل فكان يجنبنا الموت عطشاً. وما عدنا نتجرع ذلك الماء القذر إلا في حالات الضرورة القصوى. وأما الذين أخلوا بتلك القاعدة فقد كانت العواقب عليهم وخيمة.

وتكون الحاجة ماسة في الشتاء إلى التمشي. من ركن المدخل حتى الركن الذي يقوم بين المراحيض والمرقد؛ ذلك كان هو كل قُطر الحياة عندي؛ قُطر التمشي. ولم يكن لدينا عير ذلك الحيز نتحرك فيه، وما كان يزيد عن أربع خطى في جانب وأربع في آخر ثم أستدير تارة إلى اليمين وتارة إلى اليسار، حتى لا أصاب بالدوار فذلك شيء تعلمته من السينما. فإذا لم أتمشَّ كنت أصلي فالصلاة تمرين بدني جيد. فلقد قررت أن أسدد الديون التي في ذمتي نحو الله. الإسلام يأمر بالبدء في الصلاة في الثانية عشرة


Twitter: @ketab_n

لذلك قررت أن أؤدي لاخمس صلوات، بل خمساً وثلاثين صلاة في اليوم الواحد؛ بما يوفر لي ستة أيام إضافية ويكون لي وسيلة جيدة للحفاظ على لياقتي البدنية.



Twitter: @ketab_n

في الأيام الأولى تعارفنا مع جيراننا الجنُب. فقد كنا مجموعتين منفصلتين : طيارون ومشاة. وكل مجموعة قد توزعت إلى قسمين : من كانوا ضباطاً ومن كانوا ضباط صف. وقد كان تدبير المجموعة من أولى الأولويات في حياتنا الجديدة. لذلك تقربت إلى الملازم محمد الشمسي، الذي كان صلتي الأولى بالطيارين. فاتفقنا على ضرورة التعجيل بتحطيم الأسوار وتنقية الأجواء وإزالة العداوة والريبة من نفوس الطرفين، ناهيك عن الحاجة التي يجدها كل طرف إلى التمترس في مجاله الصوتي والنفسي.

ومن حسن الحظ أن كل واحد قد وعى أنه كلما تم التعجيل بتذليل الاختلافات إلا سارت الأمور على خير ما يرام. واتفقنا على توقيت : بعد صلاة المغرب ينقطع الجميع عن الكلام إلى حين مجيء الحراس في خدمة الصباح، ما عدا في حالة الضرورة القصوى بطبيعة الحال. فكنا خلال النهار نتناوب على الحديث في النصف المخصص لنا من البناية. ولم يسلم الأمر في البداية من بعض العراقيل وبعض الخلافات؛ لكنها كانت كلها هينة وأمكن تذليلها. فإذا تكلمَ الواحد أنصت الآخرون. فقد كان أولئك



Twitter: @ketab_n

الغرقى في بحر الصمت يستبسلون في التعلق بأي قشة صوتية تُلقى بين كتل الإسمنت المسلح، فتنفذ خلال الثقوب في الحيطان لتغذي أحلامهم وآمالهم. فقد بات السمع في ذلك الخضم من الظلمة الشاملة هو الحاسة الأساسية التي بها نستمسك بالحياة. فهذا جعل لحضوري معنى وشأناً في ذلك القبو. لقد صرت بائعاً للأحلام ومطلقاً للخيال، وساحراً بالصوت؛ إذ تحولت في الحين إلى حكاء. وتلك كانت مساهمتي في حياة المجموعة : السفر بطريق الصوت. وبه صار لوجودي شأن بين رفاقي.

تبتدئ حكايتي وأنا في الثانية عشرة. فلا أزال أراني أركب دراجتي الهوائية في طريقي إلى الإعدادية. كنت في الفصل السادس فكنت أمر كل يوم من أمام بلدية المدينة في مراكش؛ تلك البناية الحديثة بمقياس ذلك الوقت والمهيبة. كانت هندستها تتحدث إليَّ بقدر ما كانت تثير فضولي. لقد كانت تمثل كل الالتباس الذي يسم ثقافتنا؛ فهي مزيج من الحداثة الاتباعية المقرونة بالاستعمار وطابع تقليدي، مع كل ما يحبل به من قيود وإقواءات. وما كنت أعرف من تلك البناية غير الواجهة. وقد اتفق لي ذات يوم أن خرجت من المدرسة مبكراً، فعزمت على أن أمضي لاستكشافها. كانت تكتنف بناياتها حدائق قد أحيطت بالكثير من العناية. فجعلت أجول في أرجائها إلى أن وجدتني أمام موقف للسيارات يقوم قبالة باب كبيرة ومهيبة بقدر الباب التي في الواجهة. وفي الجانب الأيمن من البناية يُرى درج ينزل نحو باب تكاد تتوارى وسط أغصان الأشجار، وفوقها وضعت لافتة، كمثل الدعوة، قد انحفرت عليها كلمة سحرية : المكتبة.


Twitter: @ketab_n

تملكني الفضول. فقد كنت أعرف أن المكتبة مكان عمومي وكنت أعرف أنها كهف المعرفة والثقافة. كنت ابناً لمدرسة الجمهورية الفرنسية، بيد أنني أحسستني خائفاً وجلاً. فلم ألبث أن انصرفت إلى حال سبيلي. واستحوذت عليّ في ذلك المساء صورة تلك اللافتة، وما فارقتني في المساءات الأخرى. فلم أتوان ذات يوم عن استجماع قوتي، وقصدت مغارة علي بابا. دخلت قاعة فسيحة تسبح في الصمت ويكتنفها ما يشبه الظلمة. لم تكن بالنظيفة جداً. وقد أحاطت بها صفوف من الأدراج المحملة من المعرفة والأحلام فهي تبدو كأنها تنظر جميعاً صوب رجل مسن ذي شارب غليظ كان يجلس إلى قمطر قد وضع فوق منصة بقرب الباب، يحكي مراقباً في قاعة للدرس. تقدمت نحوه في وجل من فرط هيبة المكان بقدر تهيّبي من حارسه. كان الميراث الثقافي للاستعمار ينبسط أمام عينيّ. لقد كان ماضيّ الفتي ينبسط بجماعه أمام عينيّ. وكذلك كان هنالك، كما سأعرف بعدئذ، يكمن جزءٌ من ذلك المستقبل الذي سينجب الحكّاء الذي سأصيره بمحض الصدفة.

أثار انتباهي اسمٌ من فوق أحد الرفوف. فقد كان في أصوات أحرفه شيء كالسحر، الممهور بمسحة من حنين وشاعرية معاً : هنري طرويا. فتناولت الكتاب وقرأت عنواناً داعب فضولي : «الثلج في حداد». وتوجهت صوب الرجل وقلت له بصوت الواثق من نفسه :

- سآخذ هذا.



Twitter: @ketab_n

- هل عندك بطاقة، أيها الفتى؟

أي نعم! فقد كان ينبغي أن أكون منخرطاً وبحوزتي بطاقة وأكون أديت واجب الاشتراك. ولم أكن أنجزت شيئاً من ذلك كله.

نظر إليّ الرجل طويلاً، ولاشك أنه قد طالع الأسى والإحباط اللذين خالطا نظرتي في تلك اللحظة. ثم قال:

- حسنٌ، سأثق بك وأعطيك الكتاب، وستعيده إليّ عندما تفرغ منه. وإذا أردت أن تواصل القراءة فأتني بنسخة من رسم الولادة وصورة ومبلغ الاشتراك.

خرجت أكاد أركض. وفي مساء ذلك اليوم انكببت في حجرتي على ضوء شمعة - خشية أن ترى أمي النور فتجبرني على أن أخلد إلى النوم -، أقرأ ذلك الكتاب حتى أتيت عليه كله. لقد ابتليت بجرثومة القراءة، فانبريت ألتهم محتوى المكتبة البلدية. لم أحصل قط على بطاقة، ولا أديت قط ثمن الاشتراك، ولا سرقت قط كتاباً. فلقد أحببت الكتب حباً جماً، وما كان بوسعي بأي حال أن أخون ثقة ملاكي الراعي.

وها إن هذه الفترة من حياتي قد لحقت بي وأنا قابع في زنزانتي. فقد غدوت فيها حكاء. دورٌ لم يكن ليسوؤني؛ بل كان لي مصدر متعة كبيرة، وإن يكن يكلف الذاكرة جهداً جهيداً. ففي كل ليلة أقوم برحلة في أغوار الماضي. فأنفض الغبار عن قراءاتي القديمة وأطرق من جديد قاعات السينما الشعبية في حي الطفولة، وأبتعث صوت حاضنتي الدافئ الشجي، الذي كان يملأ أمسياتي حكايات


Twitter: @ketab_n

وخرافات عجيبة. وفي الصباح أنبري أقص مما حصدت في الليل على مسامع سجناء كانوا يتعلقون بصوتي ويستقترون كل كلمة من كلماتي، ويهتبلون تلك الفرصة للهروب من خلال تلك النافذة المشرعة على الحلم، وعلى ثقافة كانت جديدة على بعضهم : الماضي الأدبي لفرنسا والكتّاب الروس الكبار في القرن التاسع عشر والكتاب الأمريكيون في مطلع القرن العشرين.

امتد هذا الأمر سنين. وقد كنت في بعض الأحيان أمنح نفسي استراحة، فينوب عني أحد الرفاق ليحكي قصة، لكنني كنت أنا بلا منازع النجم الذي تنتظره البناية عن بكرة أبيها. وذات يوم أرسل إليَّ أحد الرفاق بقطعة خبز. فكان لها في نفسي وقع كأنه الزلزال فلم أصدق أنا نفسي ما رأيت؛ أجائع يشرك آخر في قوته البائس! وما كانت إلا طريقة في التعبير عن الشكر والعرفان. ثم لم أكد أفتح فمي بكلمة شكر لذلك الرفيق حتى أجهشت بالبكاء. فلقد حصلت على أكبر جائزة؛ فما همّ بعدها جائزة غونكور أو جائزة نوبل! تلك كانت مكافأتي على مجهوداتي. فأنا من جوف زنزانتي وفي خضم من القذارة والإسمنت والبرد والبؤس والأهوال، قد غرست شجرة، كانت أجمل الأشجار، وها هي ذي قد بدأت تعطي أكلها. لقد كانت المعرفة والحلم ينتصران على شراسة بني البشر. وبعد هذه الواقعة صار بعض الرفاق يرسلون إليَّ بقطع من الخبز؛ أعز ما يملكون.

كانت جلسات الاستماع مقصورة في البداية على النصف الخاص بنا من البناية؛ وسرعان ما انضم إلينا النصف الآخر، فصرنا نشترك في تلك الرحلة الجماعية.


Twitter: @ketab_n

وبمرور الوقت صار ينبوع الحكايات إلى نضوب. فبعد أن استنفدت القصص التي كنت أعمِل فيها ذاكرتي، شرعت أُلملم شذرات من القصص التي انفرط عقدها من الذاكرة. فجعلت حينها ألوذ بخيالي؛ فأمضي ليالي أستمتع بتركيب ما يشبه لعبة المربكة، بما أبتكر من القطع الضائعة. فتارة أراني ألحم نتفاً من حكايات ببعضها، وتارة أخرى، إذا استنفدت كل ما في جعبتي كنت أرتجل من بنات أفكاري. ثم جعلت أحكي مما اختلقت من قصص. لم أخبر أحداً في البداية بشيء مما كنت أفعل. حتى إذا لاقيت النجاح لم أجد بداً من الاعتراف بما اقترف خيالي.

إن الحكاية حلم، والكتابة فعلٌ، ومفارقة الحكاء تكمن كلها في ذلك المزج الذكي بين الاستكانة إلى ما هو موجود والعزيمة على الابتكار.

وبالإضافة إلى الحكاية، وجدت هواية أخرى؛ أن أكون «حارساً على الوقت». فقد شرعت أعدّ لروزنامة؛ جعلت بدايتها من يوم وصولنا إلى تازمامرت. فدونت التاريخين الميلادي والهجري وجعلت أحيِّنها في كل يوم. وأنتبه إلى السنوات الكبيسة، فأصوّب الروزنامة القمرية بالاستعانة بالحراس. كنت أجري العملية كلها في ذهني بطبيعة الحال. ثم انتقلت إلى الاشتغال بالتوقيت؛ أستعين عليه بالعصافير وبأذان يتناهى إليَّ من بعيد وبشتى أنواع الأصوات. فكنت أفلح في تخمين الساعة بفارق بضع دقائق، وأجد في هذا الأمر شاغلاً لي من الفراغ ووسيلة لأكون نافعاً. ثم إن القبض على الزمن كان لي وسيلة للإفلات منه. لقد صرت له الوعاء؛ فهو


Twitter: @ketab_n

يتصرم، وأنا لا أتعب من العد والإحصاء. فما عاد للأرقام حينها من كثافة، وقد باتت تتحلل في لجة الأبدية.

وكانت لي طريقة أخرى في قهر الملل؛ إنه الحساب الذهني. فقد كنت أستمتع بإنجاز عمليات حسابية في ذهني. فكان ابتدائي بعمليات الجمع، برقم واحد، فرقمين، ثم ثلاثة، وهلمجرا. حتى إذا بدا لي أنني قد أتقنت عمليات الجمع، انتقلت إلى عمليات الضرب. فكنت أصرف الساعات أجري العمليات نفسها وأعيدها. وكنت أبحث عن بعض الحيل والأسرار لأيسر عليّ ذلك العمل وأحد من احتمالات الخطإ. فإذا استحكم لي الأمر كنت أطلب المساعدة من بعض جيراني، في ما عدا جاري الذي على يميني، القبطان بندورو رئيسي السابق المباشر، والمنغص عليّ في تازمامرت. فقد كنت آخذ عدداً من الأرقام وأضربه بآخر؛ فكان كل واحد من الرفاق يقوم بضرب العدد الأول في رقم واحد من العدد الثاني، ثم نقوم بجمع النتائج التي تحصلت لدينا إلى بعضها، فيكون المجموع يوافق النتيجة التي أكون انتهيت إليها. وقد كنت لا أسلم في البداية من الوقوع في الكثير من الأخطاء، لكنني صرت بمرور الوقت إلى تحسن؛ فهذا مكن لي أن أبقي دماغي في حالة من النشاط المستمر على الأقل خلال السنوات العشر أو الاثنتي عشرة الأولى، لأن نقص الأوكسجين لم يلبث في الأخير أن قهر خلاياي العصبية.

وكنت أستمتع بنوع آخر من الحساب؛ إذ جعلت أعد القطرات متى أمطرت. فقد كان السقف يتخلع من كل جانب، فإذا الزنزانة قد باتت تسبح في الماء. ولا يعود لي غير ركن من الدكة ألوذ إليه وقد


Twitter: @ketab_n

تجمعت على نفسي وجعلت ركبتيّ لصق ذقني، وتدثرت بأغطيتي التي تصير لا تكاد تقيني رشاش الماء. وقد ألبث في بعض الأحيان أسبوعاً كاملاً وأنا متسمر في ذلك الركن بلاحراك، متجمداً مقروراً قد اقتصر كل نشاطي على تكميم مقادير المياه التي كانت تنهمر على زنزانتي. فكنت أتحصل في النهار الواحد على أرقام هائلة، قبل أن يضيع مني الخيط الرابط في خضم من الأرقام والمقادير. فكنت أنصرف عن العد للحظات، لكي أستطيع العودة إليه وأنا أقدر على التركيز. كنت لا أفتأ أعد وأحصي حتى لا أتردى إلى الجنون.

في اللحظات أشدها وأقساها كما في اللحظات أعذبها وأحلاها لأن هنالك لحظات عذبة وحلوة حتى في الجحيم (فبدون ذلك لا يكون للمكابدة من معنى) لم يتفق لي أن كنت في يوم بعيداً عن ذاكرتي، ولا ابتعدت عن خيالي أو عن حساباتي، أو ابتعدت بطبيعة الحال عن روحي. كنت كشجرة ضاربة الجذور في الإيمان ومتنفسة بفروعها في الثقافة وفي المتخيل. كنت أتنفس أحلاماً، في يقظتي ومنامي. أحلام وافرة غزيرة، كانت تكلأ نومنا من أسباب الكدر وتحميها من البرد والجوع والغم. الحلم كان يعني لي النوم والتعويض والهرب.

كان للحلم الأول الذي اتفق لي وأنا في تازمامرت في نفسي فعل وأي فعل. ولا أزال إلى اليوم لا أقدر أن أنساه. وما أكثر ما راودني من الأحلام والرؤى، بيد أن ذلك الحلم لا أزال إلى اليوم أراه كمثل ما اتفق لي أول ليلة. فقد رأيتني في الصحن الفسيح للرياض حيث أمضيت طفولتي، تتوسطه نافورة قد أحاطت بها أربعة أحواض


Twitter: @ketab_n

مزهرة تنتصب فيها أشجار فاكهة، فهي الأمينة على نداوة صحن الدار والحارسة على ذكرياتي. وفي الزاوية المقابلة للغرف كان يقوم المطبخ، وهو في حالة تشذ عن البذخ الذي يرفل فيه ذلك الرياض. فقد جُعل في حجرة مربعة خلو من أي ترتيب أو نظام، ولا تزال ترى على حيطانها، وإن طليت بالجير، آثاراً للزمن حين كانت المواقد لا تزال تستعمل فيها الأخشاب. فالسخام ينعم بطول الحياة! وفي مؤخر هذا المطبخ باب ضيقة تتأدى منها إلى ركن كان يسمى بيت البير. فقد كانت هنالك بالفعل بئر ترتفع بمسوّرها قليلاً عن مستوى سطح الأرض، وجعلت لها أمي غطاء حتى لا يقع فيها الأطفال. وقد كان لنا في تلك البئر نفع كثير قبل أن تُمد إلى البيوت قنوات الماء الشروب. وأما ما تبقى من تلك الحجرة فقد كان حيزاً طويلاً يُجعل للمهملات. فكانت تغلفه على الدوام ظلمة خفيفة وتخالطه رائحة عفونة.

رأيتي في الحلم وأنا أحفر في الحيز الخالي إلى جوار البئر. حتى إذا صارت تلك الحفرة إلى قدر من العمق تمددت فيها وجعلت أحاول أن أهيل على جسمي التراب. ألا ما كان أغربه من إحساس!

كنت الميت والحفار؛ وأجد الإحساسين معاً. فقد كنت أحس بعصا الرفش في راحتيّ كمثل ثقل الجرافة، وأسمع صوت التراب الذي كان يطمرني، ويثقل على جسدي، ويكتسح ثيابي ويملأ عينيّ وفمي وأذنيّ. وحينذاك استيقظت. فتحت عيني ونطرت حوالي، الزنزانة وثقوب التهوية والجدران الرمادية الكئيبة والصمت الضبابي الذي كان يخيم على البناية. كنت هادئاً، لم



Twitter: @ketab_n

أكن أحس بالخوف، فما كان كابوساً. لم أحدث بهذا الحلم أحداً قط في تازمامرت. بل احتفظت به لنفسي. كنت على قناعة من أن له معنى لم أكن أدركه، ولا كنت أسعى في معرفته. في ذلك اليوم حدست أنني سأخرج حياً من تلك الحفرة.

لقد لبثت حتى آخر يوم لي في المعتقل في خضم من الأحلام والرؤى. فالماضي الذي دحوته عن ذاكرتي كان يصر على العودة بكل تفاصيله ليملأ عليّ رقادي.



Twitter: @ketab_n

أول ما نستذكر من تازمامرت هم الرجال. أحياء وأمواتاً، وملائكة وشياطين، وحكماء ومجانين. رجال قذفوا في عالم، فتساكنوا فيه مع أقصى الحدود وتآلفوا مع الأهوال. أولئك الرجال هم من أحرص على أن أرفع إليهم ههنا التحية؛ أولئك الذين ما عادوا بيننا ليحكوا عن أتراحهم وأفراحهم وآلامهم وآمالهم. وبودي أن أحكي ما وسعني الصدق كيف عاشوا وكيف ماتوا، وأنقل تجاربهم على نحو ما عشتها، وعلى نحو ما خبرتُها، إلى أسرهم، وإلى أولئك الذين «يحسون على وجوههم بالصفعة التي يتلقاها الآخرون».

من بين هؤلاء الرجال، جاري المقابل : إدريس الدغوغي.

ألا ما أغرب المصير الذي كان من نصيبه، هو الذي ولد باسم قاسم. وكان أبوه شيخاً قد تزوج من امرأة أولى أنجبت له أبناء كثراً كان أكبرهم، والمسمى إدريس، في الأربعين عند مولد بطلنا. ثم لما صارت المرأة العجوز في سن لا تسمح لها بالإنجاب دفعت بزوجها إلى التزوج من امرأة ثانية من القرية، قامت هي نفسها باختيارها وذهبت لخطبتها، وقالت له : «هي تلد وأنا أربي».



Twitter: @ketab_n

وكذلك كان. فجاء صاحبنا قاسم إلى العالم محاطاً بحب امرأتين. وسرعان ما استأثرت زوجة الأب بالابن، حتى صار بمضي الوقت هو ابنها. والويل لمن يجرؤ على الاعتراض على مشيئتها! فصار الطفل قاسم يدعوها «ماما»، ويدعو أمه الحقيقية باسمها. وزاد القدر إمعاناً في السخرية أنه لما بلغ الطفل سن التمدرس اشترطت «أمـ»ـه أن يلتحق بالمدرسة ولا يكون أمياً مثل أخوته الكبار. فلزم أن يكون للأسرة كناش للحالة المدنية. واجتهد الأب لتحقيق هذا الأمر، ثم قام بتسجيل الأبناء جميعاً لدى الإدارة، لولا أن خطأ وقع في تاريخ ميلاد قاسم وإدريس. فلما ذهب الطفل لطلب نسخة من رسم الولادة للتسجّل في المدرسة تبينً، ويا للغرابة، أنه كان في الخامسة والأربعين من العمر؛ فيكون قد تجاوز سن التمدرس بكثير. ولزم لتصحيح ذلك الخطإ استصدار حكم من القاضي وسلسلة طويلة من الإجراءات التي لا تخلو من تعقيد.

وبدا الحل الأيسر أن يتبادل الأخوان اسميهما. فأصبح قاسم في سن الخامسة، يسمى إدريس. فورث اسم أخيه غير الشقيق مثلما كان قد ورث «أمـ»ـه، وبذلك تسنى له أن يلتحق بالمدرسة.

ثم انخرط في الطيران الحربي، وذهب ليجري تداريبه في الولايات المتحدة. رحل ليكون طياراً. وكانت كل المؤشرات تجمع على أنه يسير إلى النجاح. فقد كان يجيد الإقلاع ويجيد التحليق ويجيد القيادة. غير أنه لم يكن يفلح أبداً في الهبوط. فأسقِط ونُقِل إلى المراقبة الجوية.



Twitter: @ketab_n

بقي الدغوغي يتجرع مرارته، ولا يجد سلواناً أن أصابته لعنة إيكار، وحُكم عليه بأن يتكبد عقوبة طانطال؛ فصار يعلم الآخرين ما لم يستطع هو قط أن ينجزه : الهبوط! وانبرى يغرق إحباطه في الكحول القمار والنساء؛ عساه يسلو بها عن خيبته. وباتت حياته محكومة بنظام غريب؛ فقد كان يشتغل أربعاً وعشرين ساعة في اليوم، يكون أثناءها معتدلاً قنوعاً، متفرغاً إلى عمله، ينجزه بذمة ونزاهة، فإذا حانت الساعات الثماني والأربعون التي يتحلل فيها من العمل، صار فاقد الوعي من فرط السكر، أو مرتمياً في حضن مومس. إلى أن ساق له القدر في نهاية المطاف مومساً شغفت به حباً وجاءت لتشاركه بيته ولا تفارقه.

وجدت المرأة مأوى، وإن يكن مؤقتاً، ورجلاً كانت تحسبه لها وحدها، وكرامة خادعة. ووجد فيها هو الآخر فائدة له؛ فقد كانت تعد له الطعام وتنظف له ثيابه وتغسل الأواني وترتب البيت، ثم تشاركه الشرب، ولا تطلب مقابلاً. وقد كان ينفق أجره كله في القمار والكحول؛ فلم يكن يسأل قط من أين يأتي الطعام وما يتصل به من احتياجات البيت. واستمر الحال على هذه الصورة بضع سنين، إلى أن قررت أمه (زوجة أبيه) ذات يوم أن تصلح من أمور حياته. فجاءت عنده وأقنعته بالتزوج من فتاة لطيفة من القرية قد اختارتها له. فوافقها إلى ما أرادت. ورأى بسذاجته الغامرة أن من الطبيعي أن يرجع في الأمر إلى خليلته. فتلقت منه الخبر كخنجر في الظهر. ثم لم تعلق بشيء، بل اقترحت أن تبقى بجانبه إلى أن يحين وقت الزفاف.



Twitter: @ketab_n

لقد أعدت لانتقامها بصبر، لكن بإحكام. فجعلت في البداية تتردد على جميع الساحرات العجائز الدائرات في فلك المومسات ذلك العالم الخبيرة به، واختارت من قائمة السموم المحضرة ما به تخرب صحة عشيقها وتقضي عليها قضاء مبرماً؛ لكن من غير أن تقتله. واستخبرت من أخواتها عن رجل يكون مصاباً بالسفلس بدرجة متقدمة، ثم قصدته، وجعلته يضاجعها إلى أن استيقنت أنها قد حملت منه العدوى. ثم عادت لتنقلها إلى العشيق الخائن. فتحقق لها الانتقام.

وفي اليوم المحتوم أعدت حقيبتها، وجاءت لتقول له بصوت هادئ، يكاد يخلو من أي أثر للضغينة، وهي تفكر في منافستها :

- وداعاً، لقد أورثتك بؤس حالي!

وعلى الرغم من كل شيء، فقد أمكن لإدريس قاسم الدغوغي العاشق الخائن، والابن المدلل من زوجة أبيه، أن يتزوج. فوجد الاستقرار وعرف عيشة الحلال، لكن فقد صحته إلى غير رجعة. فقد كان يعاني من شقيقة مبرحة، وفقد الشهية، وإذا أكل لم يستطع أن يحتفظ بشيء من الطعام في معدته. لقد كان مصاباً بالسفلس من الدرجة الأخيرة؛ فلم يكن له حظ في الإنجاب.

كانت زوجته فتاة قروية قد نشأت على التقاليد والاحترام، وهو شكل متنكر للخوف من الرجل، فرضيت بوضع الشهيدة الذي قدر عليها. وأما هو فجعل يغرق في الكحول يعب منه لا يرتوي كما وأنه قد تهالك على مضادات الاكتئاب وأفرط فيها. وأصبح


Twitter: @ketab_n

مشتركاً في الخدمات النفسية في المستشفيات العسكرية. لكن الطب لم ينفعه بشيء. فقد كانت حالته مستعصية على العلاج وكان يائساً، لا يعيش إلا ليخفف من آلامه.

ثم كانت محاولة الانقلاب. وقد كان صاحبنا ترك العمل قبلها بشهور وخرج في عطلة مرضية. ثم ما كاد يعود لاستئناف عمله حتى وقعت عليه تلك اللعنة القاضية. فأمضى السنة الأولى من اعتقاله في مستوصف السجن؛ حيث كان الطبيب يخفف عنه بما يحقنه من الفاليوم. ثم وقع ذلك الانقلاب القدري فنُقل إلى تازمامرت. وأنزل في الزنزانة التي قبالتي، فكان الرفاق العارفون به يتوقعون لجيرانه الأقربين أن يتجرعوا من عذابه واضطرابه. فلم يحدث شيء من ذلك كله. لقد تعلق إدريس بالحياة وبي. فكنا نكثر من التحادث فيحكي وأنصت متى طاب له الحديث آناء الليل وأطراف النهار. وأذن له الرفاق العارفون بحالته في البداية أن يتكلم خلال الليل فكان يدعوني؛ فنتعاون على تخليصه من الهواجس التي كانت تهجم عليه. وكنت أجتهد في إقناعه بأن تلك الهواجس المستبدة به إنما مصدرها من افتقار جسمه إلى العقاقير؛ فكان يسلم بالأمر ويرضى به؛ لم يكن له من خيار. ففي تازمامرت لم يكن لأحد من خيار. والتصرف الوحيد الممكن كان المقاومة الذهنية. فقد كان يلزمنا أن نصون كرامتنا إلى آخر رمق كيفما كانت الأوضاع والمواقف. فذلك شيءٌ لم يكن بمقدور أحد أن يسلبنا إياه! ولقد نجا إدريس بحياته من تازمامرت. فلما وصل السجناء الأفارقة، تم نقله إلى البناية الأولى؛ حيث تخلص من تلك المحنة بقدرة قادر.


Twitter: @ketab_n

فلما خرج من المعتقل أجرى بعض الفحوصات والتحاليل الطبية و... تحقق من أنه قد شفي من السفلس!

وها إنه اليوم قد اجتمع بزوجته التي ظلت على انتظاره. فما عاد بحاجة إلى أدوية، لكنه لا يزال عاجزاً عن الإنجاب.

إن الدغوغي هو أكثر من يشعرني بالاعتزاز بمقامي في تازمامرت. ولو أنه قد كان لأجله وحده لما كان لي أن أندم أن أقمت فيها، ولكان لي مصدر فخار لامراء فيه.

لقد كنا نعيش في خندق مغلق، فكنا نتعاون عليه، فإما نخرج منه جميعاً أو نلبث فيه جميعاً.

ومن بين جيراني الأقربين إليَّ، فإن الذي على يميني هو وحده الذي لم يكن يشاركني هذا الرأي. كان يعيش متوحداً، ويصطلي في أتون من الحقد والضغينة، فأحال حياته إلى جحيم. ولسوف أعود إليه في النهاية، كان يدعى بندورو. وأما على يساري فقد كان ينزل الرقيب عبد العزيز اعبابو؛ تلك الفراشة التي احترقت أجنحتها من الاصطلاء بنور أخويه الأكبرين الشهيرين. وفي قبالته كان ينزل عاشور؛ وقد كان كأنه شخصية خارجة من أسوإ استيهامات دوستويفسكي.

ذلك هو المحيط البشري الذي كان عليّ أن أتعايش فيه، وقد كنت أراه يعكس الروح المغربية بما جُبلت عليه من حيل ومكر ودهاء وأراه يعكس لي صورتي أيضاً. ولقد تعلمت من اتصالي بجيراني أن أفرق بين المهم والتافه وأميز الخالد من العابر والزائل. وتعلمت أن


Twitter: @ketab_n

أتجاوز عن الغضب والحقد، وأحاول أن أتفهم، وأصفح ولا أجرؤ أن أقول إنني تعلمت أن أحب! فالحب يشعرني بجاذبية وبرهبة معاً. لقد تعلمته من قراءة الإنجيل والاتصال بالمسيح. فأنا مسلم صحيح الإسلام ومحب للمسيح؛ أرفض بعض المبادئ والقواعد في المسيحية، لكنني معجب بنبيها، لأنه علمني معنى الحب لكل إنسان والصفح والتصاغُر.

كانت دائرة أحلامي كثيراً ما يعمرها الأنبياء، ولربما يكون من حفظنا للقرآن الذي يتحدث عنهم جميعاً. ومن بعد عيسى فإن النبي الأثير على نفسي هو موسى. فقد كان كثيراً ما يتردد عليَّ في رؤاي، فتجمعنا أحاديث طويلة. لقد كان يمثل عندي القوة والمهابة والعدل. وهي الصورة التي نراه عليها في الكتاب المقدس. وقد كانت تستخفني نحوهما مشاعر مختلفة. فموسى أشعر نحوه بالصداقة. وكنت أرى كذلك إبراهيم ويوسف وداود وسليمان، وغيرهم كثراً. وأما محمد فقد منحني الحرية في الاعتقاد وممارسة للدين من غير وسطاء.

وأذكر بوجه خاص أنني ذات مساء رأيت حلماً كان له عليّ فعل وتأثير، فاحتفظت به لنفسي، كمثل ما كنت أفعل بأحلام أخرى أو ببعض الأفكار التي كنت أراها تخصني لوحدي. فقد كان عندي بستان سري؛ ركن من نفسي لا يطرقه عليَّ أحد. فقد رأيتني راقداً فوق بلاطتي، في وضعتي المعتادة، وفجأة إذا بي أستيقظ (في الحلم دائماً)، فأرى عند قدمي يقف رجل طويل القامة متلفعاً في البياض، وينظر إليَّ نظرة ملؤها طيبة وحنو. فنظرت إليه بدوري في


Twitter: @ketab_n

صمت وأطلت إليه النظر، مسحوراً بذلك النور المنبعث منه. ثم اضطجعت ثانية في سلام، وسرعان ما غلبني النعاس.

وخيل إليَّ في اليوم الذي بعد أنها كانت رؤيا. فأكون رأيت المسيح بشخصه. غير أنني لا أصدق المعجزات. ولا أزال إلى اليوم على قناعتي أنه ما كان سوى حلم، لكنه كان لي مصدر متعة كبيرة تلك كانت معجزة الإيحاء الذاتي.

لم يتفق لي قط أن رأيت النبي محمداً في رؤاي؛ ربما لأن بعض المفسرين يحظرون ظهوره بالصورة. ولقد رسخت هذه المحظورات في لاوعينا حتى صرنا نعجز أن ننتهكها، ولو في الحلم.

كان الحلم يمنحنا راحة وسلاماً. فبعد كل شيء ما هم أولئك الأنبياء وأديانهم ومعتقداتهم ومثُلهم. إن ما كان يهمنا هو ما يمثلون: الحب والرأفة والعدل والخير؛ أي كل ما هو معدود في الجمال. لقد كان الدين في تصوري في غاية البساطة، وكان عندي حاضراً في ما يتجاوز العقائد ويتجاوز الأناسي الذين يحيلونه إلى شيء بالغ التعقيد ضارب في العبث واللامعقول.


Twitter: @ketab_n

كان لي في الدين معينٌ على قهر الجنون والتغلب على الموت اللذين كانا لا يفتآن يملآن عليَّ أوهامي وغرارتي. ثم لم يكد يمر وقت يسير حتى أخذا يطرقان علينا أبوابنا ليذهبا بكائن كان إلى جواري وكنت بدأت حينها أتعرف عليه وألمس خصاله ومزاياه. فقد حصدا الشمسي الملقب عندنا بـ «شميشا»، ولما يمض على تعرفنا عليه إلا وقت يسير. لقد كان أول الراحلين. ذلك الفتى السمح الوقور الذي كان له شيء من النفوذ على رفاقه. وكان لنا في هذه المزية عند صديقنا نفع كبير في البداية، لتلطيف الأجواء بين المجموعتين : هم الطيارون، ونحن المشاة، القادمين من الصخيرات.

لقد ظل شميشا حتى آخر رمق لا يستطيع أن يسلم بما حاق به أو يعي سبباً لوجوده في تلك الحفرة. واستعصى عليه أن يفهم كيف لحياته ومساره المهني الذي كان شديد الفخر به، وتلك المرتبة داخل المجتمع التي أدركها بالجهد الجهيد، كيف لذلك كله أن يذهب أدراج الرياح ويتبدد دخاناً كدخان القذائف التي اخترقت جوف الطائرة الملكية، ففجرت في طريقها حياةَ العشرات من


Twitter: @ketab_n

المنفذين، وفجرت أسرهم وفجرت الخمول الذي كان يرين على المجتمع وعلى الجيش وعلى النظام في بلدنا.

وكان أكثر ما يشق على شميشا أن يُحرَم النظر إلى تلك الأم التي كانت تتربع في سويداء قلبه، والتي حسب ظني يدين لها بكل شيء. ثم فقد رشده فما عاد يطعم شيئاً أو يتغطى بشيء؛ فهو يُمضي الساعات الطوال يقتعد الثرى غارقاً في عتههِ وفي البرد والعزلة، يخيل إليه أنه بجوار أمه المسكينة؛ يراها أقرب ما تكون في ظلمة مطهره. فيضطجع على أحد جنبيه ثم على الآخر، ويضع رأسه المتعبة على فخذ أمه المتربعة، كفعل الأطفال بجانب الموقد قبل أن يغلبهم النعاس. أو يجلس قبالتها ويمد إليها بالطعام ويواسيها ويتوسل إليها ألا تحزن من شيء. وينشئ يقول لها :

- إنني ههنا، يا أمي، فلا تبكي، إنني قادم إليك، هاك كلي إنني قادم، لن أتأخر، أرجوك لا تبكي، سامحيني يا أمي!

ثم يغرق في مجاهيل ذهنه المريض المحتشد كآبة وندماً، ليعاود الظهور في عالمنا السمعي، وهو لا يفتأ يلاحق ذلك الخيال العزيز على فؤاده، متصاماً عن نداءاتنا إليه وقلقنا عليه.

عندما جاء الحراس وجدوا الطعام منتثراً على الأرض ووجدوا شميشا عارياً من غير غطاء يدفع عنه برد الشتاء القارس الصقيع. لقد بات مقروراً مجمد الأعضاء. ثم صار لا يقوى على أن يتحرك حتى الباب ليأخذ طعامه. وكان الحراس يمتنعون أن يحملوه إليه، فيلبث في موضعه إلى أن يجيئوه بالوجبة التالية.



Twitter: @ketab_n

فكانوا يفرغون الإناء، الذي لم يُمسّ، ويعيدون ملأه من غير أن ينظفوه، ثم يضعونه قرب الباب. وأما شميشا فقد ظل غائباً عن عالمنا. وكان لا يفتأ يكلم أمه، ولا يعي شيئاً من حوله. ثم مر كل شيء سريعاً؛ ففي 22 فبراير 1974، ولما تمض ستة أشهر على وصولنا إلى تازمامرت، توفي شميشا.

انتبه الحراس إلى وفاته عند مجيئهم لتقديم وجبة الفطور، فلم يبادروا بشيء خلال الصباح. فلما حملوا وجبة الغذاء في الزوال جاءوا بمحفة وأخرجوه. فحانت علينا لحظة من الذهول. حتى إذا خف مفعول المفاجأة، انطلقت التعاليق في سرعة البرق. فكان منا الذين قالوا إنه مات وإن الحراس حملوه ليدفنوه، وأولئك الذين كانوا يوهمون أنفسهم أن الحراس إنما نقلوه إلى المستشفى ليتلقى العلاج. وظلت البناية منقسمة على نفسها في هذا الأمر الذي لم تنجل حقيقته إلا بعد أن وقعت الوفاة الثانية، سنةً بعدُ؛ وفاة كينات.

ثم جاء أول رمضان. فكنا نتوقع تحسناً في حياتنا اليومية؛ أليس هو شهر المؤمنين؟ لكن الظاهر أن لا؛ فبعض الناس لا يؤمنون إلا متى وحين تكون لهم منفعة في الإيمان. فلم يتبدل الطعام قيد أنملة، وما تبدلت غير الأوقات. فعند الإفطار يقدَّم إلينا الخبز اليومي والقهوة والنشويات المطبوخة، وصحن العجائن وحصتنا من الماء. ثم توصَد علينا الزنازن لأربع وعشرين ساعة، ولكل واحد أن يتدبر يومه كما يحلو له. وأما أنا فقد كنت أطعم وجبتي مرة واحدة، ثم أشد حزامي على بطني حتى اليوم الموالي. كان رمضان الأول علينا عصيباً، لكننا لم نلبث بعد ذلك أن اعتدنا


Twitter: @ketab_n

عليه. وتعلمنا أن نتدبر الطعام. وتعلمنا خاصة كيف ندبر الوقت إذ كنا في ظلمة دامسة لا نميز فيها النهار من الليل. وما عادت الأبواب تفتح علينا غير مرة واحدة في اليوم بدل ثلاث. وبلغ الأمر مداه مع الحراس الذين صاروا يحثوننا على عدم الصوم ما دام الدين يعفينا منه حين الضرورة القصوى. وقد كانت بالفعل ضرورة قصوى تلك التي كنا نحيا فيها، لكن كيف لنا أن نستجيب إلى ما أرادوا؟ هل كانت من جانبهم وقاحة أو كانت سذاجة؟ أغلب الظن أنها كانت من البلاهة والحمق.

وقد كنت في السنوات الأولى، وقت أن كنت لا أزال أملك القوة، صمت شهرين متتاليين. وتلك تكون في الإسلام كفارة لمن اقترف ذنوباً. فأردت أن أطيل الصوم طلباً للتوبة واختباراً كذلك لنفسي. لقد كانت تجربة قاسية مريرة، غير أنني نجحت فيها أول مرة، ثم أعدتها مرة ثانية بضع سنين بعدُ، وكانت الآخرة. فما عاد الجسم يطاوع. بيد أن الصوم طل عندي نوعاً من العلاج. فأنا أنصت إلى جسمي. فعند أقل إنذار، وإن يكن إسهالاً هيناً، أو رغبة في التقيؤ، أو أي مشكلة تتصل بالجهاز الهضمي، كنت أتبع حمية لأربع وعشرين أو ثمان وأربعين ساعة. وقد أطلب إلى الحراس، متى لمست منهم استعداداً، أن يأتوني ببعض أغصان إكليل الغار والسعتر؛ تلك الأعشاب التي كانت تنبت في فناء ثكنتهم فأقوم بتجفيفها وأجعل أدعكها طويلاً في راحتيّ، ثم أبتلعها بجرعات من الماء. تلك كانت كل ما بوسعي الحصول عليه من أدوية، لكن بدا أنها ناجعة، بمثل


Twitter: @ketab_n

ما هو علاج الروح بالخيال وبالخوارق والخرافات، أو بالجَروع السحري الذي كان يمدنا به كينات، كاهننا وعرافنا في تازمامرت.

كان كينات هو مفسر الأحلام وبائع الآَمال. ففي كل صباح نقدم نشرة الأخبار؛ فيحكي كل واحد منا حلمه، ثم ينصت الجميع للتفسير، في حال كان في تلك الأحلام فأل حسن. فقد كنا ما أن نغمض أعيننا حتى تهجم علينا الأحلام. وحتى ليخيل إليّ أن منامي يكون كله أحلاماً؛ فيكون الحصاد وافراً على الدوام. وعلى الرغم من أن كينات قد لقننا المفاتيح لفك شفرات الرؤى والأحلام، فقد اكتشفت أن كل واحد منا كانت له رموزه الخاصة به. وقد كان لي في بعض النوازل مفاتيح لا تخطئ الأقفال. أفَيكون العيش في الظلمة الدائمة وملامسة الموت قد زودانا بحاسة سادسة ونظرة نفاذة إلى ما يخبئ الغيب؟

بعض أحلامي كانت تنبؤية. ففي كل مرة أراني آكل الكسكس إلا وتكون فيها وفاة أحد الرفاق. فإذا رأيتني أحتسي الشاي فسيكون لي فيه مكروه. وأما السمك فيكون فألاً سيئاً بدخولي في شجار. ويكون شربي الكوكا كولا إيذاناً بتعرضي لاضطرابات واختلاجات بسبب المرارة؛ فتعتريني آلام مبرحة تشلني عن أي حراك.

وبالإضافة إلى تفسير الأحلام كان لكينات هواية : فقد كان يأكل نصف حصته من الخبز ويخبئ البقية في كيس قد اعتنى بصنعه من مزق الخرق. وغاب عنه أن كائنات أخرى كانت تشاركه زنزانته وتطمع في مدخراته، خاصة منها الصراصير التي اتخذت


Twitter: @ketab_n

لها سكناً عنده. وما كان أعظمها نعمة على تلك الحشرات أن تسكن خزانة للأطعمة! فجعلت تبيض فيها وتتبرز. وكان كينات يأكل ذلك الخبز الملوث، فدفع الثمن. فقد بدأت بطنه تنتفخ بشكل فاحش وتمددت أجفانه، وتشوهت أسنانه؛ فبعضٌ يندفع إلى الأمام، وبعض يتراجع إلى الخلف، وبعض يسقط. وصار يفقد ملامحه البشرية وإذا هم بالكلام جاء صوته ثغثغة شوهاء. وقد كان يحس بالتغيرات التي تطرأ عليه، ولا يستطيع أن يراها إلا من خلال النظرة المتقززة يقذفه بها الحراس إذا فتحوا باب زنزانته. ثم انتهى به المطاف بالموت مسمماً في فاتح دجنبر 1974. وما قتله إلى تشبثه بغريزة البقاء. وترك لنا مفاتيح الرؤى والأحلام.

لقد نبهتنا هذه الوفاة إلى خطورة وضعنا؛ فقد كنا محكومين بالموت بالجوع والبرد والحشرات والهوام والأمراض؛ لاطمع لنا في نجدة أو شفقة؛ وليس لدينا من سلاح غير إيماننا وشبابنا وقدرتنا على التحمل وعلى تأثيث الزمن.

ما عاد الحراس يسعون في التستر على الوفاة؛ فلم يعد هنالك من محفة. فلم ينتظروا إلى موعد تقديم الطعام، بل جاءوا في الصباح، ففتحوا باب البناية وشرعوا يحفرون في الفناء. ثم جاءوا إلى الزنزانة حيث كان رفيقنا ممداً على الأرض وهو نصف عار، وقد مات وهمد، فلفوه في غطائه وحملوه من طرفيه، ومضوا به ليلقوه في الحفرة. ثم أفرغوا عليه من الجير الحامي وصبوا عليه الماء، ووضعوا عليه قطعة صفيح وأغلقوا الحفرة. لقد أدوا مهمتهم كجنود صالحين وعمي ومطيعين.


Twitter: @ketab_n

في تازمامرت خبِرْنا العذاب وخبرنا الألم. الألم المعنوي والألم الجسدي مجتمعين. وقد كنت أعرف الأول، ثم ابتُليت بالثاني ولما يكد يمضي عليّ في المعتقل وقت يسير؛ يوم أصيب إبهامي الأيسر. فقد بدأت أحس بحكة وأكلان في أصبعي، ثم برزت بثرة بين حافة الظفر والجلد. وقد كنت إلى ذلك الحين لم أكابد من الألم إلا القليل، وإلا ما يكون في أحلامي التنبؤية حين أراني أحتسي كأساً كبيرة من الكوكا كولا.

ثم تحولت البثرة إلى دمّل، وامتد الدمل إلى قمة الأصبع وتحت الظفر، الذي أخذ في الاصفرار. لقد صار حاسكاً، وكنت أعرف أنه يتسبب في ألم شديد. ثم كان مبتدأ الألم بوخزات صارت إلى اشتداد، وما كان الألم متواصلاً، بل متقطعاً؛ فهو يصير يشتد ويخف بوتيرة منتظمة.

لم يكن للصوم نفع في مثل هذه الحالات. فلجأت إلى علاج آخر؛ إنها اليوغا. والحقيقة أنني لم أكن أفقه شيئاً في هذا العلم إلا من بعض المبادئ الأولية التقطتها بطريق الصدفة من الكتب التي قيّض لي أن أقرأها. فحاولت في بادئ الأمر أن أتحكم في تنفسي. ثم



Twitter: @ketab_n

حاولت أن أركز تفكيري على تياري العصبي لأوجهه حيث أشاء. لم أفلح به في تحقيق قدر كبير من التحكم، لكنه مكنني من أن أركز اهتمامي على شيء آخر غير الألم، وكانت النتيجة مقنعة... أو تكاد!

داومت على هذه العملية نحو شهرين. ورجوت الحراس في غير يقين من استجابتهم أن يأتوني ببصلة نيئة. وكان في نيتي أن أستعملتها كلزقة، لتمتص القيح وسواه من الأدران التي كانت تملأ أصبعي. عدا أنها مطهر ناجع. فما لقيت منهم إلا رفضاً وسخرية.

ثم إذا بي ذات صباح أرى الخرق التي لففت بها أصبعي قد صارت مبلولة. فتحت اللفافة بحرص شديد، فرأيت الحاسك قد انفقأ واندلق منه فيض من القيح وسائل آخر لم يكن سوى الدم.

ثم اختفى الألم، لكن استمر الصراع. فقد بات يتعين عليَّ حينها أن أحتاط من الخمَج، لكن ما سبيلي إليه وليس معي وسائل للتنظيف؟ فتذكرت أنهم كانوا قد لقنونا أن اللعاب والبول مانعان للعفونة. فجعلت بيدي السليمة أنظف الخرق التي اتخذتها ضمادات بمجرد القليل من الماء، الملوث هو الآخر ثم بلت على أصبعي وعلى الضمادات حتى امتلأت من ذلك البول. إنه علاج لم يكلفني فلساً واحداً. ثم أعدت كل شيء إلى موضعه.

داومت على هذه الحيلة شهراً. فكنت أغسل ضماداتي صباحاً ومساء وأعيدها إلى موضعها؛ فلم أكن أملك سواها، ولم يكن بوسعي أن أنتزع مزقاً من قوقعتي. فقد كان الفصل شتاء. فكنت أبول على الجرح ثم أعيد تضميده.


Twitter: @ketab_n

وكانت تأتي عليّ سوْرات من الحمى تبلغ بي أحياناً إلى الهذيان. فيغمرني العرق، وأحس وأعرف أن جسمي كان يقاوم المرض. فلزمني أن أعينه عليه وأركز اهتمامي على كل جزء فيه وأحسه يحيا ويختلج ويخفق لتناغم العضو المريض. وكنت أصلي كذلك، ولا أهاب الموت، فقد كنت متصالحاً مع نفسي، ومع ربي فأدعوه أن يلهمني القدرة على التحمل، فلا أجأر بشكاة أو أنين أو أشغل رفاقي بحالي وأغمهم وأكدر عليهم.

كان الجرح يدلق في كل يوم مقادير هائلة من القيح والسائل فكأن جميع الهوام التي يعج بها ذلك المأوى للمحتضرين كانت تخرج من إبهامي. ثم بدأ الظفر يتآكل شيئاً فشيئاً، إلى أن تلاشى كلياً. فأخذ النزف يتوقف بالتدريج. ثم خفت عني الحمى وأخذ الأصبع يتقشر حتى حافته. ثم غير جلده كلياً وانسلخ، ثم بدأ يعود إلى حالته الأولى. ثم إذا الظفر قد بدأ هو الآخر ينمو فتياً ونقياً وناعماً. حتى إذا تم له التكون من جديد صار يتصلب ليتخذ شكله الأصلي.

لقد قهرت وجسمي المرضَ والموت بفضل البوْل.

كنت أقتصد كل قطرة من الريق، فلا أبصق قط. وكنت أتحاشى قدر الإمكان أن أشرب الماء الملوث الذي كان يقدّم إلينا، ولا أفلت حزقة واحدة إلا بعد أن ألتف بأغطيتي فلا أضيع أقل سعرة حرارية. ثم صرت أستعمل بولي لأتطهر من الجراثيم والأمراض. فكنت أعيش في اكتفاء ذاتي تام وكامل.



Twitter: @ketab_n

*Twitter: @ketab_n*

بعد شهر ونصف من وفاة كاهننا جاء الدور على بحباح إدريس الرقيب الشاب في سلاح الطيران. وقد كان صاحبنا قيماً على السلاح ويعمل تحت إمرة العايدي، الذي كان يكنُّ له تقديراً كبيراً من قبل حتى أن يتعرضا للاعتقال. لم يكن بحباح يتمتع بصحة جيدة، فقد كان ممتقعاً شاحباً على الدوام، يحسبه من يراه مصاباً بيرقان أو بمرض من أمراض الدم. وقد كان حين اعتقاله عازباً. وكان يتحدث (وبانفعال) عن مسقط رأسه؛ مدينة تازة، أكثر مما يتحدث عن أسرته. بدافع الحياء، دون شك.

كان رفيقه الأقرب إليه في البناية هو الملازم الكوري، وهو من فوجي. وقد كان الرجلان يشتركان في الطبع والمزاج. فإذا لم ينصتا إلى مسلسلات الصبيحة يكونان مستغرقين في أحاديث طويلة. وكانا هادئين رضيين، فكانا يتفاهمان على الدوام. فقد كانا يتحاشيان كل موضوع مثير للجدال، فإذا تعكرت الأجواء انطويا على نفسيهما أو اهتبلا فترات الاستراحة لينقطعا إلى أحاديثهم الخاصة.

كانت الأحاديث في البناية تنقلب أحياناً إلى مشاحنات على سفاسف وترهات. فقد كان كل واحد يريد أن يكون الصواب



Twitter: @ketab_n

إلى جانبه، ولو كانت البداهة البسيطة تجعله هو المخطئ. وكثيراً ما تنشب منازعات بين الأفراد، قد يكون السبب فيها تكدر المزاج أو مجرد التسلي بمخالفة الغير. ثم إن منا من كان يروق لهم بطبيعتهم أن يكونوا هم المصيبون على الدوام. فهم يحسبون أنهم يعرفون كل شيء، فيجدون متعتهم في إعطاء الدروس. وفي تازمامرت إذا لم ينتبه المرء على الفور إلى هذا العيب البالغ الخطورة، على رفاقه مثلما عليه هو نفسه، كان مآله الانعزال أو الموت. والأمران سيان.

وذات يوم، ومن غير سبب واضح، بدأ بحباح يغرق في الشرود وتنتاب ذاكرته من حين إلى آخر فجوات وثقوب. فكان يضيع خيط الحديث ويهرب إلى حيث لا ندري. ثم بدأت تأتي عليه هلوسات. فيرى حيات ليس لها وجود إلا في خياله المريض. وقد يأتي عليه حين من الهذيان. ثم إذا ذكرياته قد صارت رويداً رويداً إلى تلاش وامحاء. فكان يسهو عن المكان الذي هو فيه والأناسي الذين يحيطون به، ولا يعود يذكر سبباً لوجوده في ذلك المكان اللعين. فكان يجهد يائساً للحاق بماضيه؛ ويتشبث به كأنما يتشبث بطوق للنجاة، لولا أنه كان لزجاً دبقاً كمثل الماء الذي نشرب، فكان ينزلق من بين أصابعه. وبقدر ما يستطيل به النسيان، كانت تتواتر عليه الهلوسات. فسوّر نفسه بحائط من الصمت القدري. وعبثاً ظل الكوري ينادي عليه ليدفعه إلى الكلام. فكان لا يفتأ يجتر الأحداث التي تداولاها معاً، ويبحث في ماضي صديقه عن شيء يُقدره على التشبث بالحياة، ويمكن أن يرده إلى وعيه، ويعيد وصل ما انقطع من خيوط ذكرياته، أو يبتعث لديه مجرد انفعال... لكن


Twitter: @ketab_n

تلك الجهود كانت تذهب أدراج الرياح. فكأنما انخلعت ذاكرته وتفككت.

لقد بات ذهنه عاجزاً أن يمده بالأسلحة للدفاع عن نفسه في محيط معاد ولاإنساني، وفي غابة حيث يكمن خلف كل طاقة إسمنتية عدوٌ من الأعداء: الجوع والبرد اللذان كانا يأتيان ليأخذا ضريبتهما من الجثث.

لقد بات بحباح يهلك ببطء؛ يتأكله الجوع والجنون. ثم فقد الخيط الناظم لحياته، ومعه فقد حياته في يوم 26 يناير 1976.

بعد وفاة كينات وبحباحٍ خطرت ببالي فكرة ذكية؛ كان فيها إنقاذ لحيوات، وكانت سبباً في حدوث مشاحنات جديدة ببؤرة للصوص. فقد ناديت على المساعد أول فريح، وهو جندي سابق من الكوم، كمثل ما هم الحراس الآخرون. وقد كان يغلب لديه الجبن على الخبث والشر، وذلك عندي أسوأ وأخطر، لكن يمكن أن يكون نافعاً لو عرفنا كيف نتصرف معه. فقد طلبت منه ألا يلقي برفيقي في حفرة الجير الحي وهو ملفوف في غطاءيه. فما كان على الحراس إلا أن يسحبوه، كما كانوا يفعلون في العادة، في غطاء واحد، وأن يسمحوا لي باسترداد الغطاء الثاني. وكم كانت مفاجأتي عظيمة أن رأيته يجيبني إلى ما طلبت. ثم بالغ في الكرمٍ، فدخل زنزانة الفقيد وجمع كل ما وقع فيها على خرق وسلمها إليَّ.

لكن ما كاد الحراس يرحلون حتى جاء عاشور يسألني غاضباً:

– يا أنت! بنبين، ماذا أعطاك المساعد أول؟



Twitter: @ketab_n

لزمت الصمت. فقد كنت أعرفه حسوداً حتى النخاع. فكنت بالتزامي الصمت أزيده ضغطاً على ضغط. فلما انصرف ناديت على الدغوغي وأخبرته بما دبرت. فراقته الفكرة، وكانت لنا مصدر سخرية ومزاح. لكنني في ذلك اليوم اكتشفت جرة بندور؛ فقد صار ما أن تُعلن وفاة حتى تندلع حرب على الخرق. فالجميع يرغبون في استرداد أسمال الفقيد. إن غريزة البقاء شيء مشروع، لكن الأساليب فيها كانت مختلفة متباينة. فبعض كان يتصرف بحصافة وحياء، وبعض لم يكن يلقي بالاً إلى الأعراف الاجتماعية. فلم يلبث الحراس أن انخرطوا في تلك العملية؛ فصاروا يؤثرون بغطاء الفقيد جيرانه الجُنب وأولئك الذين يحتمل أن يكونوا قدموا إليه العون، وذلك عين العدل.

ونبهني ذلك التنقل الذي كان يقع في الخرق إلى أمر : القوة التي تطورت بها حاسة الشم لدينا. فقد لاحظت أن كلٍ واحدة من الخرق التي تُتناقل بيننا كانت تحتفظ برائحة خاصة جداً؛ هي رائحة صاحبها. فصرت قادراً على أن أميز رائحة إنسان من آخر. وجعلت حينها أتسلى بتصنيف الروائح وأحفظها؛ روائح الموتى وروائح الأحياء، أو على الأقل أولئك منهم الذين كنت أعيش وإياهم وكانت لي معهم اتصالات ومبادلات. فالنقص الذي يصيب حاسة يصير قوة في الحواس الأخرى.

واهتبل رفيق ماهر أحد الأيام النادرة التي كان يُسمح لنا فيها بكنس زنازننا، فانتزع قطعة معدنية من صفيحة القصدير التي كانت تُستعمل في جمع الفضلات. وجعل يسنُّه ليصنع منه موسى



Twitter: @ketab_n

يحلق بها شعر رأسه ولحيته اللذين استطالا حتى صار بهما يبدو كواحد من سكان الكهوف؛ وتلك كانت صورتنا جميعاً. ثم صار لصاحبنا منافسون ومزاحمون؛ فصرنا ما أن تقيض لنا الفرصة حتى نتدبر أمرنا لنفعل كما فعل. ثم جاء دوري، فوقعت على تلك الشفرة المزعومة، وأمضيت الساعات أشحذها على الصفحة الملساء الوحيدة في الزنزانة؛ البلاطة. فلما جربتها أدركت لماذا كان المقبلون عليها قليلين؛ فقد كانت تقتلع الشعر أكثر بكثير مما تحلقه. فما استعملها إلا أشدنا عزيمة، وأما أشدنا رهافة، مثلي، فقد فضلوا الاحتفاظ بشعرهم.

بيد أن تلك الواقعة لم تخل من فائدة؛ فقد أوحت إلى آخر أن يصطنع من قطعة المعدن إبرة. فكنا نقطع اللُّسين أدق ما في الإمكان ونجعل نحدد سنه بقطعة إسمنت نقتلعها من الحائط، ثم نجعل نحك وسط الطرف المقابل للسن إلى أن نحدث فيه ثقباً، فنحصل على إبرة. كان الأمر يتطلب وقتاً؛ كان يتطلب شهوراً من العمل والصبر وتحمل الفشل، ولحظات من الشك واليأس، لكن النجاح يكون هو مسك الختام. فلم يتفق لأحد أن تخلى عن «صخرتـ»ـه. وتسنى لنا أن ننتقل من عصر الحجارة وندخل عصر البرونز. فصرنا نخيط. فقد خطنا أسمالنا واتخذنا منها مشايات وطواقي وصدارات. لم نكن نأكل موتانا، لكن كنا كمن يفعل : فقد كنا نلبس مزقاً من لحمهم.



Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

كانت تلك القواقع الجديدة تقينا البرد شتاء، لكنها لم تكن لتحصننا من الزواحف صيفاً، وقد كانت تفد علينا من شتى الأنواع. كانت فيها الأفاعي والرتيلاءات والعقارب وأنواع العظاءات والصاصير. لكن لم تكن تزورنا الحشرات؛ فلاذباب ولاناموس ولابراغيث ولابق ولاقمل. فهذه الحشرات تعتاش من الدم، والظاهر أنه لم يبق في بنايتنا دمٌ، أو أنه كان في غاية الفقر، بحيث ما عاد يستمل إليه تلك الحشرات، ولربما كان يمكن أن يسمّمها.

لقد تعلمنا أن نعيش مع تلك المخلوقات المزعجة. وقد حرمنا حاسة البصر، فصارت حواسنا الأخرى حادة مستنفرة؛ خاصة حاستا الشم والسمع. فصار بمقدورنا أن نميز الأصوات والروائح التي تعمر عزلتنا. وما أسرع ما أصبحنا نميز الحشرات من بعضها بما تحدث من صريف، في ما عدا الرتيلاءات العظيمة التي لا يسمع لها صوت أو حفيف، لكن لم يتفق لإحداها أن دخلت علينا زنازننا. لذلك لم تكن خشيتنا منها بقدر خشيتنا من العقارب التي أوقعت بيننا ضحايا. وكان من بين ضحاياها : التهامي أبنوسي. وهو شابٌ ينحدر من مدينة آسفي، كان يعمل مراقباً جوياً. كان لطيفاً ودوداً



Twitter: @ketab_n

وكان هادئاً فطناً؛ يعرف أن يتكلم أو يصمت في الوقت المناسب. وذات مساء، عند مقدم الليل، سمع صوتاً فعرف بسهولة أنه لسقطة عقرب. فقد تسلقت الحشرة الحائط بفضل خشونة الإسمنت المسلح إلى أن بلغت السقف، وهناك عجزت أن تدور على نفسها، فسقطت أرضاً محدثة ضجة ثقيلة أين منها صوت سقوط الصراصير؛ هي التي كانت تتشبث جيداً بالسقف، فإذا اضطرت إلى السقوط آثرت أقصر السبل لتعاود النزول.

سمع أبنوسي سقطة العقرب وحذرنا. وقد كان كلما طرأ خطر تتجند البناية بمن فيها للبحث عن حل، أو لتقديم المساعدة النفسية أو الصوتية، وهما المساعدتان الوحيدتان الممكنتان في تلك اللحظة. فقضى صاحبنا الليلة كلها يتسمع سقطات العقرب ترشده إليها أصوات رفاقه؛ وقد كانت تلك الضجات تقترب تارة وتبتعد أخرى. فإذا كان صوت السقطة الضجة قريباً جداً إليه تدثر بغطائه ولم يأت حركة، ولبث متحملاً الاختناق في خضم الحر الجاف للأصياف في الصحراء. ثم لا يستعيد أنفاسه إلا متى سمع السقطة قد صارت بعيدة.

طالت تلك اللعبة حتى الصباح؛ فلم يغمض لشخص منا جفن في تلك الليلة. لقد عشنا جميعاً على إيقاع واحد مع أبنوسي. ثم جاء الحراس، بعد ليلة من أطول الليالي التي مرت علينا في تازمامرت. ولم يسبق لنا أن فرحنا كمثل فرحنا في ذلك اليوم بمجيء الحراس. فلما فتحوا زنزانة رفيقنا طلب منهم أن يتركوا الباب مشرعة، عساه يهتدي إلى مكان العقرب، ففعلوا



Twitter: @ketab_n

مكرهين. وبعد هنيهة أحست العقرب بالهواء البارد يأتي من الباب، فمضت نحوها. فلما رآها أبنوسي، لم يشأ أن يترك للحراس أن يسحقوها بأحذيتهم الغليظة، وهجم في حنق على الحشرة كأنما يبغي الانتقام مما تكبد طوال الليل، وعزم أن يهوي عليها بكل ثقله ليسحقها. لولا أن استخفته الحمية وتسرع، فما أصاب منها بما فضُل من صندله، في خضم تلك الظلمة المحيطة، غير مقدمها وترك الذنب حراً طليقاً. وإذا العقرب تتحرك للدفاع عن نفسها فتلسعه لسعة أودعته فيها جرعة كبيرة من السم. ونفق العقرب وأما أبنوسي فقد مرت عليه لحظات مريرة. وتوسلنا إلى الحراس أن يمدوا إليه يد المساعدة، وأن يدعو له بمرضاً أو يصنعوا له وتارة على الأقل. لكنهم لبثوا كالعادة متصامين عن توسلاتنا. وظل أبنوسي يكابد أهوال السم طوال أربع وعشرين ساعة. لكنه لم يهلك فيه، ولا هلك حايفي، الذي تعرض هو الآخر للسعة عقرب. فالموت في تازمامرت لم يكن في عجلة من أمره.

وذات يوم صاح أحد الرفاق في وجه حارس: «اقتلني إن كنت رجلاً!». فرد عليه الآخر: «لست أحمق لأسدي لك هذه الخدمة!».

لم يكن أبنوسي، كشأن بعض رفاقنا الآخرين، يلوح عليه أنه مصاب بمرض. بل كان كل شأنه أنه ضاق ذرعاً بحاله. فقد نفدت جميع وسائله، فما عاد يهتدي إلى شيء يتعلق به، ولا عاد القلب يسعفه بشيء. فكان يقتل نفسه. فما عاد عنده شهية إلى الأكل ولاقدرة على المقاومة. فاستسلم إلى الموت، كمثل الغزالة إذ تحبس. ثم كانت وفاته في يوم 13 يناير 1977، بعد شهر من رحيل رفيقه الكوري.



Twitter: @ketab_n

والكوري كان رفيقي في الفوج وصديقي. وقد بقينا على صداقتنا إلى آخر يوم في حياته، وإن اختلفنا طبعاً ومزاجاً. فقد كان منطوياً على نفسه، كتوماً، تلوح عليه سيماء الحزن والأسى كأنما ينوء بسر ثقيل. فلم يكد يتم العشرين حتى ابيض شعره، ما أضفى عليه هيئة من النضج والوقار. ومع ذلك فقد كان الكوري يحب أن يعيش عيشة المجون، لكنه لم يكن يُقبل على الجميع. فقد كان ينتقي القلة القليلة من رفاقه بحرص وعناية شديدين، وقد كنت واحداً منهم. وأما الأصدقاء فلم أكن أعرف له غير واحد. فقد كان يقبل إذ هو في تازمامرت على بوتو وأبونسي وبحباح. وكمثل هذا الأخير، بدأت تنتابه هلوسات. فتسمعه يلهج بكلام رصين، ويخوض في أحاديث متناسقة مترابطة، ثم يخيل إليه من حين إلى آخر، أنه يرى أفعى داخل زنزانته. وقد كانت تغشى صديقه بحباحاً مثيلة لتلك الرؤى نفسها، فكنا نصدقه إلى ما كان يقول في المرات الأولى؛ لأن الأفاعي والعقارب والرتيلاءات كانت أشياء شائعة لدينا في الصيف. فما عدنا نستغرب لشيء في تازمامرت. وقد كان كل واحد منا يقدم رأيه في ما كان صاحبنا يقول. وكان أفضل رفاقه يضحكون من كلامه. لكن بتوالي الأيام تفاقمت المشكلة. فإذا الأفعى قد صارت تزداد ضخامة وعظماً. فكان الكوري يضرب تحت غطائه، ويحدثنا عن وزن ذلك الحيوان الذي يزحف فوق جسمه المشلول. وقد يرى في أحيان أخرى الحيوان الهائل يجول في ثقوب التهوية التي في زنزانته أو يختفي في المرحاض. فأدركنا حينها أنه قد بدأ يفقد رشده. لكن الأغرب في الأمر أنه كان هو نفسه مدركاً لما كان يحيق به. فقد



Twitter: @ketab_n

كان في لحظات الصحو والتنبه يطلب النصيحة، فيسعفه كل واحد بما يتبادر إليه من الحلول. وقد كان الحل الشائع لدى الكثيرين أن يفوض أمره إلى الله ويكثر من تلاوة القرآن الكريم. فقد كنا ننصحه بالإكثار ما استطاع من تلاوة سورتي «الفاتحة» و«ياسين». ثم اشتد عليه الهذيان، فصار يرى الأفاعي تزداد كثرة. ثم يأخذ يكلم نفسه ويخوض في أحاديث طويلة مع أبيه، كثيراً ما تكون مشوشة مضطربة. ثم انتقل إلى الطور الأشد خطورة وإلى تلك اللحظة الحرجة التي ينساق فيها المرء إلى الاستسلام للموت ذلك الاغتيال للعزيمة وذلك الرفض للقتال، أو لمجرد الاستمرار في الحياة.

فما عاد صاحبنا يطعم شيئاً أو يتغطى بشيء، ونحن في عز فصل الشتاء؛ وهو الموسم الذي يبلغ فيه حصاد الأرواح الأوج. وسرعان ما تنبهت إلى حالته. وقد كانت تأتي عليه ومضات من الصحو فكنت أنصحه أن يقوم بالإيحاء الذاتي. فأطلب من جاره الجُنُب موحى بوتو أن يجعل يكرر على مسامعه دون انقطاع : «ينبغي أن أتغطى»، «ينبغي أن آكل»، «ينبغي أن أعيش»، «ينبغي أن أقاوم». فجعل موحى يكرر على مسامعه تلك الجمل ولا يكل من ترديدها. لكن بات يعسر عليه أن يلفت إليه انتباه جاره. وقد يرتقي موحى فوق إبريقه ويتعلق بالثقوب ويطلق عقيرته بالصياح، عساه ينتشل رفيقه من براثن الموت ومخالب البرد والجوع والجنون. ولشد ما كان موحى يتعب رئتيه من فرط الصياح، وإن لم تعد تسعفه قواه عليه. وأما الكوري فقد أسلم الروح في يوم 6 فبراير 1977.


Twitter: @ketab_n

وشهرين بعدُ إذا الحصاد المشؤوم لتلك السنة 1977 يزداد ثقلاً في يوم 24 أبريل، بوفاة وقعت تلك المرة في النصف الخاص بنا من البناية، وكان ضحيتها رابح البتيوي. وهو رقيب كان قائماً على السلاح، و«طياراً سابقاً»، وإن يكن لا يزال في ميعة الشباب! إنه شاب شجاع، ينحدر من ناحية وجدة. وقد كان على غرار أهل هذه المنطقة صلباً وصريحاً ومباشراً، لكن متحفظاً أيضاً. وقد كان وجاره الذي على اليسار، علال الهدان، والآخر المقابل، قاسم القصراوي، يشكلون مجموعة شبان حكماء ونبهاء بالقياس إلى أعمارهم ومستواهم التعليمي، وكانوا رؤفاء بالآخرين خدومين لهم على الدوام.

بدأ البتيوي هو الأول يفقد رشده. فذات صباح أخذ يتحدث عن جواسيس وخونة وعملاء سريين. فلم نفقه في البداية شيئاً في من تلك الحكايات. لكن سرعان ما أدركنا أنه كان يخرف. ثم جعل يتحدث إلى رفاقه عن بعض زملائهم الذين لم يشتركوا في محاولة الانقلاب، فيحكي لهم كيف اكتشف أنهم كانوا جواسيس. ففلان كان عميلاً للمكتب الثاني، وقد دُسَّ هنالك ليعد تقارير عنهم ويرسلهم إلى السجن، وعلاّن كان مأجوراً للجزائريين بغرض تخريب العتاد. فلما فرغ من زملائه انبرى يشن حربه على أفراد أسرته الذين كانوا هم الآخرون داخلين في خدمة الشرطة أو في خدمة وزارة الداخية، أو في خدمة ما لا أعرف من القوى الخفية. لكنه لم يأت قط على ذكر شخص واحد من نزلاء البناية، في ما عدا بعض الحراس الذين كان يقول عنهم إنهم مأجورون للروس أو عملاء للأمريكان.


Twitter: @ketab_n

ولكم بذلنا المحاولات لانتشاله من فصامه، فباءت بالفشلٍ. فقد صار ينزوي رويداً رويداً بنفسه في كنف من الشك والتطيرٌ. فصار مرتاباً في الحراس الذين يرى مهمتهم أن يسمموه أو يغتالوه باستعمال مواد قد استخدمت فيها تقنية متطورة.

وامتنع عن الأكل؛ فقد غلبت لديه الاستيهامات على غريزة البقاء. فجاء الموت، ترافقه البومة، رسولته الوفية، ليذهبا بصديقنا رابح في يوم 24 أبريل 1977.



Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ما كان مدير السجن بالعميل السابق في وكالة الاستخبارات الأمريكية أو في جهاز المخابرات السوڤييتي السابق، ولا كان واحداً من تلك الأشباح التي كانت تستحوذ على ذهن صديقي البتيوي المريض، بل كان قبطاناً يسمى القاضي، وهو جندي سابق في الكوم من أولئك الجنود الذين كانوا يُنذرون للموت، ثم ارتقى إلى مرتبة ضابط الصف في خدمة فرنسا، وارتقى إلى مرتبة الضابط باعتباره الرجل المستعد لفعل أي شيء لخدمة النظام؛ ينفذ أحط المهام. وقد كان يومها حديث ترقية إلى مرتبة القائد لأجل متطلبات القضية (تازمامرت)، ويتوقع له أن ينهي مساره المهني برتبة العقيد، وتلك أقصى مكافأة يحوزها عن الخدمات التي أسداها إلى الشيطان. وقد كان الشيطان بملامح العقيد الرهيب فضول، القائم السابق في الدرك على عهد الحماية، التي باعها روحه. فالجريمة مربحة في بلداننا.

فلما مرض أول رفيق بيننا ذهب الحراس يخبرون القاضي. فوبخهم، وحذرهم أن يأتوه من بعد ليخبروه بمرض سجين من السجناء أو تعرضه لإصابة أو احتضاره. وقال لهم:

- لا تأتوا عندي إلا لتقولوا لي إنه مات.



Twitter: @ketab_n

التزم الحراس بالأمر، فما عادوا يزعجونه، ما عدا في حالة واحدة قد كانت سبباً في كثير من المنغصات. فلقد تكدر أولئك «المسلمون الصالحون» واغتاظوا مما كانوا يرون من ذلك المشهد المخل بالحياء مشهد بعض العانات النحيلة من فرط الجوع. فاللباس الخفيف الذي حصلنا عليه عند وصولنا إلى تازمامرت لم يقو على مقاومة عوادي الزمن والاحتكاك اليومي لعجيزاتنا الهزيلة ببلاطة الإسمنت التي كانت لنا مرقداً ومقعداً ومذبحاً. وبتوالي السنين إذا أسمالنا التي كانت لا تكاد تقينا البرد، ما عادت تسعفنا في إخفاء شعورنا بالذنب أو مداراة الشعور بالفضيحة والعار الذي كان ينتابنا أن نُعرض كما تعرض الحيوانات. فكنت ترى بعض رفاقنا في وقت تقديم الخدمة يلفون كرامتهم في مزق الأغطية التي قاومت الزمن. وكان آخرون كمثل بندورو، لا يقيمون لهذا الأمر وزناً. فقد كانوا يريدون أن يضعوا الحراس أمام مسؤولياتهم، وأن يعرضوا عليهم بؤسهم وأجسادهم العارية النحيلة، لكي يدفعوهم إلى أن يطلبوا إلى القائد مخرجاً محتشماً للمشكلة.

كان الحراس يكرهون خاصة جاري، لأنه كان يجبرهم على أن يتفرجوا، ثلاث مرات في اليوم الواحد، على صورته النحيلة السغبة.

فلما فتحوا باب زنزانته ليقدموا له الزاد، كان صحنه لا يزال في موضعه خلفه؛ فاستدار في بطء، وانحنى ليلتقطه، وهو يريهم عجيزته العارية. ثم واصل حركته على الإيقاع نفسه، فأخذ طعامه وهو يريهم الوجه الآخر البائس بقدر ما هي عانته الهزيلة. فكان



Twitter: @ketab_n

الحراس يرغون ويزبدون، ويشتمون، لكن لم يكن عندهم من سبب معقول ليعاقبوه. واكتفوا بالتعوذ من الشيطان ومن أتباعه.

لقد بدت الحيلة التي قام به بندورو شيئاً ناجعاً. فبعد بضع سنين، وكثير من الأموات، والكثير من الاحتجاجات، قرر القاضي أن «يجدد لنا المتاع».

في ذلك اليوم، جاء الحراس مزهوين، يرسمون الابتسامات العريضة على وجوههم. ثم دخلوا علينا وهم يصيحون :

- سنعطيكم ثياباً جديدة!

فذلك معناه أنهم كانوا يريدون أن يسلبونا قطع الخرق التي صرفنا سنين كثيرة نجمعها، ويريدون أن يسلبونا أسمالنا التي كانت فوق ظهورنا، ومزقاً من الجلد قد انتزعناها من أمواتنا.

ثم جاءوا كل واحد منا بقميص وسروال من الكاكي لم يكن لهما من الجدة إلا أنهما نظيفان، وغطاءين بقدر بلى الأغطية التي قدموها لنا أول يوم. ثم ابتدأت المأساة بانتهائهم من عملية التوزيع فقد كلّف الحراس باسترداد أسمالنا البالية وإحراقها في الساحة.

فلما فتحوا باب الزنزانة الأولى، وكانت زنزانة أعمروش، كان من الطبيعي أن يطلبوا منه أن يسلمهم ثيابه البالية. فذهل أعمروش فلم يفقه شيئاً. فلم يكن بمستطاعه أن يفهم. لقد طلبوا منه ببساطة أن يسلمهم جلده. فقد كانت تلك الأسمال الرثة البالية، كما هي طبقة القذارة التي تغطي جلودنا، جزءاً لا يتجزأ منا. فمن يسلبنا إياها هو كمن يقطعنا إرباً إرباً ونحن بعد أحياء. ولقد رفض كويين أعماروش


Twitter: @ketab_n

أن يطيع ويمتثل، فهجم عليه الحراس يحاولون أن ينتزعوا منه أسماله بالقوة. فجعل المسكين يساوم ويفرفص ويصرخ، ويطلب منهم أن يأخذوا الثياب الجديدة، ويتركوا له أسماله. فلم تجده مقاومته فتيلاً، واستطاعوا أن ينتزعوا منه الأغطية البالية، ومزقوا أثناء ذلك الأغطية الجديدة، ونكلوا به تنكيلاً لم يجرؤ بعده أن يعيد الكرة.

صار المعتقلون الآخرون يدورون حول أنفسهم داخل أقفاصهم كالحيوانات التي وقعت في مصيدة. لقد كاننا حائرين، مذعورين وممزقين؛ فكل ما بنينا من شجاعة، ومن قدرة على التحمل وظللنا نغذي من آمال قد انهار فوق رؤوسنا. فقد حسبنا أننا وقد صرنا في قرارة الحفرة، لا يمكن أن يحدث لنا ما هو أسوأ. وما كنا نعرف بعد مكر القدر وقسوة بني البشر.

لقد جن جنوني، مثل الآخرين. فقد كان ذهني متوفزاً يتقلب ذات اليمين وذات الشمال. فما العمل؟ سُدت عليّ المنافذ، لكن كان بيدي بعض الوقت؛ إذ كنت الثالث عشر. فجعلت أحاول أن أهدئ من روعي، وأتفكر، فلم أفلح. هل ينبغي لي أن أتقاتل وإياهم؟ لقد كانوا أقوى مني. فهل أتوسل إليهم؟ نعم، ربما يحسن بي أن أتوسل إليهم. فمن يدري، فقد ترق قلوبهم لحالي. وفجأة عنت لي فكرة : المرحاض؛ فقد كان مرحاضي من غير رشّاف! فبادرت إلى طي غطائيّ وفتلتهما، وأدخلتهما في البالوعة، وأنا أحرص على شدهما إلى إبريق الماء الذي وضعته فوق الثقب. ثم جعلت بعض أسمالي في ثقوب الحائط، مع الاحتفاظ بطرف من الغطاء وقطع من الخرق لأسلمها إليهم.



Twitter: @ketab_n

وفي نهاية المقاومة أدرك الحراس أنهم يحتاجون عدداً أكبر مما هم، لكي يتغلبوا على أولئك المجانين اليائسين، فلم يجدوا بداً من الإقلاع عن العنف، واكتفوا بالتهديد بقطع الطعام عن كل من لم يسلمهم ما يطلبون. وقد كانت حجة مفحمة.

فلما فتح المساعد أول باب زنزانتي، وجد كومة صغيرة موضوعة عند المدخل. فمسح بمصباحه الكهربائي الزنزانة، ولم يرَ شيئاً، فسحب بحركة متقززة الخرقَ بالمكنسة. لقد كان يعرف أنني غششت، لكنه رضخ لتلك التسوية.

لقد أفلح الأذكياء في التخلص من تلك الورطة، وأما الآخرون فقد لبثوا يوماً أو يومين لم يطعموا شيئاً، ثم انتهى بهم الأمر بالتخلي عن جزء من جلودهم. كان الاستئصال قاسياً مريرا، لكن محتوما ليس منه مهرب.

وقد اعترف الحراس بعدئذ بأن تلك اللحظات كانت هي الأشد عليهم طوال مقامهم في تازمامرت. فمهما يزعم الزاعمون فلن يكون من اليسير أبداً ذبح إنسان. ولقد لبثت أنتظر متحرقاً أن يسفر اليوم الذي بعد لأسترد غطائيّ. ثم غسلتهما بقدر ما استطعت وعلقتهما ليجفا داخل زنزانتي. كانا في غاية القذارة؛ غير أني أنقذت «جلدي»، في ذلك الشتاء المشؤوم لعام 1977؛ الذي حصد منا ثلاث ضحايا في وقت وجيز.

ثم ما مرت بضع سنين حتى وقعت شبيهة بتلك المأساة، لكن الحراس كانوا، في تلك المرة، متيقظين. فقد استردوا الأسمال من


Twitter: @ketab_n

قبل أن يقدموا الألبسة. وكنا نحن أيضاً متفطنين، فما سلمنا غير جزء من أغطيتنا. وقد كانت المشاهد أقل فظاعة، لكنها لم تخل علينا من مكابدة.


Twitter: @ketab_n

كان شتاء ذلك العام هو الأشد تقتيلاً؛ فقد أوقع فينا مجزرة حقيقية. «نكون أو لا نكون»، سؤال ما عاد يخطر لنا ببال؛ فقد ضعف عندنا الحد بين الموت والحياة، حتى بتنا نشتم الموت. وللموت رائحة، وما أسرع ما تعلمنا كيف نستدل عليها. فكلما أوشك أحد رفاقنا على الهلاك كانت تنبعث منه رائحة خاصة. وما أن تبدأ تلك الرائحة تحوم في أرجاء البناية، حتى نعرف بقرب نهاية أحد الرفاق. وقد كانت تهب علينا روائح أخرى وبائية نتنة لكن رائحة الموت كانت فريدة من نوعها؛ فكنا نتعرف عليها من بين جميع الروائح.

لكن الموت لم يكن يعلن عن نفسه بالرائحة فحسب، بل كان له رسل آخرون أيضاً. وأول أولئك الرسل كانت البومة؛ فقد كانت تزورنا قبل ما يقرب من الشهر على حدوث الوفاة، وهي تنزل علينا مساء في موعد لا تخلفه، فتطلق صوتها بالنعيب فترة من زمن لا تنقص أو تزيد، ثم ترحل عنا إلى اليوم الذي بعدُ. وأما في عشية الوفاة فلم تكن تجيء، بل تلبث منتظرة إلى أن يحين دور الزبون القابل.

وكانت لدينا كذلك الأحلام التنبؤية. وما كنا نحزن قط على رحيل رفيق من رفاقنا. فقد كنا نجد في رحيله عزاء وسلواناً؛ إذ كنا



Twitter: @ketab_n

موقنين أنه كلما لج بنا العذاب أثناء احتضارِه، وكلما عظُم الظلم الواقع علينا، كان فيهما تكفير عن ذنوبنا. وعلى الإجمال فقد كنا نموت ميتة الشهداء. لكل منا معتقداته، ولكل طوق النجاة الذي يتشبث به.

تبتدئ عندنا السنة في شهر نونبر، بمجيء البرد القارس. وفي 9 دجنبر 1977 ابتدأت السلسلة السوداء؛ وتلك سنة لن ننساها أبداً. فقد اتخذت البومة لها سكناً بيننا. وأصبحت رائحة الموت عندنا شيئاً موصولاً لا ينقطع، والأحلام التنبؤية تنهال علينا من كل حدب وصوب.

في الصف حيث تقوم زنزانتي كان ينزل علال مهاج، الرقيب الطيار الذي اتفق أن كان في إجازة يوم أن وقعت تلك الأحداث. فماذا كان يفعل يا ترى داخل القاعدة؟ كان يتسكع! فقد رحل رفاقه، وأما هو فكان يتسكع!

كانت زوجته وبناته الصغيرات ينتظرنه؛ فقد كن مزمعات الذهاب لزيارة العائلة، وأما هو فقد كان يتسكع!

فماذا كان ينتظر؟ ذلك هو السؤال الذي ظل يتأكله إلى آخر رمق. لقد كان على موعد مع قدره. لأنه كان يحب مهنته، وأجواء القاعدة، وصخب الطائرات حين الإقلاع وحين الهبوط، وصوت المحركات إذ يجربها عمال الميكانيك، والأنفاس التي تعتمل بها كل تلك الحياة التي تظل تعج ليلاً ونهاراً، كأنما هي داخل فقاعة منقطعة عن العالم.


Twitter: @ketab_n

وكان يحس بنفسه كذلك كمثل ما يحس سائر أولئك الذين يطيرون، أن بينه والناس مسافة، وأنه يقف خارج العالم، وبمنأى عن الواقع. وكان يرى إلى نفسه في أعين الآخرين كأنما ينظر في مرآة تعكس لديه صورة محملة بالشعر والأسرار والمغامرات والبطولات إسوة بسانت إكزوبيري وميرموز وآخرين كثر.

كان يطير؛ فالطيران كان كل حياته، لكنه في ذلك الصباح وهو في إجازة، ويتسكع متبطلاً، كان على وشك أن يطير طيرانه الأخير.

- أيها المساعد أول هل لك أن ترتدي زيك وتلتحق بالعمليات!

وقع عليه الأمر كالصاعقة. فقد كان آتياً من قائد القاعدة. وأنى له أن يناقش ذلك الأمر؟ وماذا سيقول؟ أيقول إنه في إجازة؟ فماذا كان يفعل هناك؟ لاشيء! كان يتسكع.

لقد ترك زوجته الشابة وبناته ومساراً مهنياً واعداً، وجاء إلى تازمامرت، ليس لذنب اقترفه إلا أنه كان في ذلك اليوم يتسكع!

كان على غرار رفاقه بشوشاً وهادئاً، لا يطوي دخيلته على كثير من ندم أو حسرة. وكان مثلنا يتعلق بالإيمان بقوة اليأس، ويبتهل إلى الله ليلاً ونهاراً أن يحمي أسرته الصغيرة. فقد كان مشغول البال كثيراً بمستقبل بناته وبحاضر زوجته؛ هي التي كانت من غير شغل ومن غير تجربة ومن غير دخل؛ فكيف لها أن تعيش؟ وكيف لها أن تربي الأبناء؟ وأسئلة أخرى كثيرة كانت تتأكّل دخائله وتضنيه وتعذبه، كمثل ما صار يتعذب ويألم من قرحة في المعدة.


Twitter: @ketab_n

لقد عاجلته الحرقة والآلام في وقت باكر جداً، ثم اشتدت عليه وتفاقمت حتى منعته أن يطعم شيئاً من قوت. فصار ينضني ويذبل رويداً رويداً، إلى أن كانت وفاته في يوم 12 دجنبر 1977. لم يرفع صوته باحتجاج أو اعتراض، أو يحدث أقل ضجة. ومهد فينا السبيل يومها لأقتل شتاء مر علينا في تازمامرت. فستطول بنا لائحة الموت وسيتوالى علينا الحداد من غير دموع ولاصراخ أو عصيان. فقد كنا نرد على الموت بالصلاة وعلى الخسارات بالشكر والامتنان. فبذلك يأمرنا القرآن. وقد ساعد الهدان، الذي كان فقيهاً، عبد الله الفراوي على استذكار آيات من القرآن، وترك له امتياز أن ينقلها إلينا. وظل الهدان الناسك صامتاً متكتماً إلى آخر نفس، فإذا تكلم فبالنزر القليل، ولا نسمع له نأمة إلا أن يريد أن يكرر على مسامعنا سورة من السور. ثم إذا صاحبنا ذات يوم ويا لها من مفاجأة، تأخذ به الرغبة في الكلام! لقد طلب الهدان الكلام. فسكتنا، تعقد ألسنتنا الدهشة. ثم إذا صاحبنا، في ذلك الصمت الشبيه بصمت القبور ينادي على أحد الرفاق، ثم يرشقه بفيض من السباب والشتائم بقينا لها منذهلين، بقدر ما كان انذهال رفيقنا المقصود بها. فلبثنا مشدوهين للحظة، ثم إذا البناية تستولي عليها نوبة عارمة من الضحك.

ظل الرفيق المقصود بذلك السباب يتشاجر طوال الصباح وجاره المقابل. ثم استبد به الحنق فقذف إلى الرواق بجهاز المذياع الذي كان أحدنا قد حصل عليه بعد مشقة وجهد جهيد. فخيم الذهول على الجميع. فما أعظمها من مأساة! ألاَّ تعود بين أيدينا



Twitter: @ketab_n

وسيلة للاستخبار عن الخارج. ثم بماذا سيرد الحراس؟ فإذا أولئك منا الذين كان بحوزتهم سلك قد انتزعوه من مكنسة أو خيط صوف استلوه من غطاء قد جعلوا يمررونهما من خلال ثقوب الحائط. واستبدت الحيرة بالمسكين نزيل الزنزانة المقابلة. فقد جعل في تلك الصبيحة الطويلة، الطويلة جداً، يبذل المحاولة تلو الأخرى، بكل ما أوتي من خبرة ومهارة، عساه يستعيد العلبة السحرية، فما أفلح إلا دقائق معدودة قبل مجيء الحراس. وحينها تنفس الجميع الصعداء وشملهم من الارتياح بقدر ما كان يستبد بهم من القلق.

كان الهدان من أولئك الذين لم يألموا كثيراً في تازمامرت. فقد كان يحيا بصورة طبيعية؛ فهو يتحرك ويطعم، وإن كان لا يفارقه شعوره بأنه مريض. فلما اقتربت نهايته، صار يهذي في طلب تمرة. لقد كان يحلم بتمرة. وتلك كانت رغبته الأخيرة. وقد هلك آخرون كذلك وفي أنفسهم رغبات أخيرة أو شيء كان أكثر ما يتوقون إليه في هذه الدنيا. ويومها أدركت لماذا يؤتى إلى المحكوم بالإعدام بوجبة أخيرة. ولقد رجونا الحراس أن يأتوه بتمرة، تمرة لاغير. فما استجابوا. وقلنا لهم إن الرسول كان يأمر بالتصدق، «ولو بشق تمرة». فما نفع فيهم التذكير. فلما كان الأسبوع الأول من شهر يناير رحل عنا الهدان وحمل معه حرمانه.

ثم تتضافر الخيبة مع الحرمان على الذين يكونون يؤملون في شيء بعد أن خسروا كل شيء؛ فكأن الرجل طفل ينتظر أن يحصل من أبويه على ما لا يستطيعان إليه سبيلاً. وقد كنت كثيراً


Twitter: @ketab_n

ما تحضرني قصة تلك المرأة المسكينة التي لم يعد بيديها شيء لتعد به طعام العشاء لأطفالها، فملأت القدر حجارة وماء وجعلتها على النار لتوهم صغارها بأن على النار بطاطس. فقرفص الصبية الجوعى بقرب القدر منتظرين الطعام، إلى أن غلبهم النعاس. فقد كان موحى بوتو مثل أولئك الأطفال، لولا أنه كان دونهم صبراً وانقياداً وهو يرتقب الإفراج عنه.

كان رفيقي في الفوج، وكان أمازيغياً ينحدر من المنطقة حيث يقوم المعتقل، على مقربة من كُرامة. فكان عارفاً بخريطة ذلك المكان؛ فصورها لنا عند نزولنا فيها، وحدثنا عن مناخها القاسي الذي سرعان ما سنكتشفه مكرهين. وكان موحى درس في ثانوية آزرو؛ تلك الثانوية التي كانت مثاراً لكثير من الخلاف والنزاع على عهد الحماية، وقتَ إطلاق الظهير البربري، الذي سعت به فرنسا في التفرقة بين العرب والأمازيغ، وغايتها تقسيم البلاد. وقد كانت فرنسا تبيِّت لأن تجعل من الأمازيغية لغة رسمية للأمازيغ وتجعل قانونهم هو العرف، وهو مجموعة من القواعد التقليدية غير المكتوبة لا يبعد أن تكون تعود بأصولها إلى الحقبة الوثنية. لكن ذلك المشروع تعرض إلى الإجهاض؛ فقد لقي الرفض من الجماعتين العربية والأمازيغية معاً.

ولذلك أُنشئت ثانوية آزرو لتستقبل أبناء الأعيان، وتعلمهم لتكوِّن منهم نخبة موالية لفرنسا.



Twitter: @ketab_n

فلما تحقق الاستقلال، استعادت الحكومة الثانوية، وأبدلت اسمها، فجعلته طارق بن زياد. واستمرت الثانوية تستقبل التلاميذ الأمازيغ من أبناء تلك المنطقة، لكن ما عادت تميز فيهم بين أبناء الأثرياء وأبناء الفقراء. وقد كان يقوم على مهام التدريس في تلك الثانوية الآباء اليسوعيون؛ فكانوا يقيمون غير بعيد عن موضع الثانوية، في تومليلين. وكانوا إلى جانب التدريس يوفرون لفقراء التلاميذ المطعم والمأوى. ويشترطون فيهم، في المقابل أن يحوزوا أفضل النتائج داخل الفصل، وأن يساعدوهم في القيام بأشغال الدير، كما يفعل الرهبان. وقد كان موحى من بين أولئك المحظوظين، الذين أمكن لهم أن يدرسوا بفضل الخوريين، خاصة منهم الأب جلبير، الذي كان له راعياً، فكان يقر له بعرفان أقرب إلى العرفان الديني؛ لكن تلك العاطفة منه لم تكن لتتغلب لديه على عقيدته الإسلامية التي كنا عليها شهوداً.

وسنين بعدُ، اتُّهِم الأب جلبير والإخوة الذين معه، إن خطأً أو صواباً، بالتجسس. فطُردوا من المغرب، وبقي الدير وعدد غير يسير من الأدمغة من بعدهم نهباً للإهمال وعرضة للضياع.

وأمكن لموحى بفضل نتائجه الباهرة أن يحصل على منحة وتسنى له أن يلتحق بداخلية الثانوية، ومكث بها إلى أن حصل على شهادة الباكالوريا، ثم التحق بالأكاديمية ليتخرج منها ضابطاً. فكان يجسد استمراراً لتقاليد ثانوية آزرو التي كانت المشتل الذي أطلع غالبية الأطر المكونة لجيشنا.


Twitter: @ketab_n

كان موحى شاباً هادئاً ومتعقلاً. وكان متواضعاً ومتكتماً لا يفتح فاه بكلمة إلا في حالة الضرورة. وقد ظل إذ هو في تازمامرت يلتزم هذا السمت الحكيم ولا يخرج عنه. فما سمعنا له صوتاً في أول مرة إلا يوم أتم مدة عقوبته. وقد كان الرجل أدين بثلاث سنوات سجناً. فكلما اقتربت محكوميته من الانتهاء كان يزداد توتراً ويزداد انزعاجاً. فلما كان اليوم المقدَّر إذا صاحبنا يرفع صوته بطلب بالإفراج عنه. لكن من دون طائل. فلقد اصطدم بجدار من الصمت واللامبالاة بل قوبل بشيء من الاستخفاف والاحتقار. فقد كان الحراس يرونها منه وقاحة ألاَّ يقنع بأن يكون لا يزال ينعم بالحياة فإذا هو يجرؤ على أن يطالب بحقه في الحرية. وقد تحدث إليه أحد الحراس ذات يوم حديث الحكماء بقوله: «إذا وقعت تحت رحمة أخيك المغربي ولم يقتلك فلقد كان بك رحيماً».

طلب موحى أن يقابل القائد. فلم يلق جواباً. ثم ألح في الطلب حتى أزعج الحراس، فكان ردهم عليه قاسياً شديداً؛ إذ حرموه إحدى الوجبات وهددوه أن يكرروا له ذلك العقاب إن أصر على طلب القمر، كفعل كاليغولا عند كامو. فكانت صدمة له وأي صدمة، هو الذي لم يستطع أن يسلم بأن يظل رهن الاعتقال بصورة غير قانونية. فقلد أدين من قبل محكمة، محكمتهم؛ تلك المحكمة الاستثنائية التي قضت فيه بقوانين الاستثناء. عدا أن الرجل كان قد أتم مدة عقوبته.

Twitter: @ketab_n

ظل صاحبنا وقتاً طويلاً قبل أن يستطيع التسليم بالنصيب الذي قدِّر له، ولم يكن بمقدور أحد منا أن يعينه بشيء، لأن اعتقاله الممدد كان صفعة للجميع. فما حدث له سيكون مآلنا جميعاً. فلن يغادر أحد منا ذلك المكان وروحه بين جنبيه! فما أقساه، بل ما أشد قسوته، من قدر! ولم يكن لنا مناص من أن نبتلعه ونهضمه ونتشبع به. ولقد كان قاطعاً كحكم بالإعدام وحاداً كشفرة المقصلة.

كان موحى على شفا الانهيار المعنوي. وما أفلت منه إلا بأُنملة فيما وقعت فيه خليةٌ منه؛ ذلك هو بحباح.

وعاد موحى ليُسمِع صوته ثانية في مرض الكوري. فقد ظل يستميت عله يبتعث فيه رغبة في الحياة. فكان يرتقي إبريقه ويطلق عقيرته بتلك الجمل السحرية التي كان من شأنها أن تنقذ حياة رفيقه. لكن من دون طائل. ثم عاد موحى ليركن إلى صمته ويلوذ به. ولم نكن على بينة من مرضه؛ فلم يكن يجأر بشكاة، فما تنبّه إليه أحد. إلى أن كان يوم 13 يناير 1978؛ ففي ذلك اليوم رحل موحى كما عاش : في صمت.



Twitter: @ketab_n

*Twitter: @ketab_n*

استمر الموت يوقع فينا ضرباته القاصمة، واستبدت بنا الأحلام المنذرة، وباتت البومة تصر على العودة كل مساء لتذكرنا بأن الحصاد كان لا يزال في أوله. وكانت رائحة الموت بعد رحيل ثلاثة من رفاقنا لا تزال تغلف المكان. وقد أشاع ذلك كله حيرة وريبة في أرجاء البناية. فلم نعد نعرف من ذا الذي بيننا قد جاء عليه الدور ليقوم بالرحلة الكبرى، ومن ذا الذي سيكون التالي في اللائحة. وما كنا نعلم أن الموت، ذلك الساحر المتعجرف، أراد يومها أن يظهر لنا تفوقه، فيستهدفنا بضربة مزدوجة؛ فيوقع بيننا ضحيتين في يوم واحد : كويين والياكدي.

فأما عماروش كويين فقد كان ريفياً قصير القامة ونحيفاً. وكان يتميز بعينين براقتين ضاربتين لوناً إلى الزرقة وسحنة سمراء تخفي جلداً ناصع البياض. لقد كانت سيماه الأوروبية تؤكد عن صواب أو خطإ تلك الأطروحة القائلة إن بعض الأمازيغ من الريفيين ينحدرون من الجنس الجرماني. ولقد أفاد كويين من انتمائه إلى عشيرة الريفيين؛ فأمكن له أن يرتقي سريعاً في سلالم التراتبية العسكرية. وكان كسائر أولئك الذين استخدمهم اعبابو ممن جندوا سابقاً في الجيش الفرنسي.


Twitter: @ketab_n

وكان كويين عمل في كثير من مناطق المغرب، الذي كان به خبيراً، كخبرته بالجزائر التي عمل فيها على عهد الحماية، ولما يُجاوز الرابعة عشرة، في الفلاحة. فقد كان المعمرون يستخدمون وقتها كثيراً من الأيدي العاملة المغربية الموسمية، خاصة من منطقة الريف. وكان صاحبنا دائم الترجيع للأغاني الشعبية الجزائرية أو الأناشيد العسكرية الرتيبة في تصوير الحزن والأسى اللذين يتملكان القرويين بعد أن اقتُلعوا من أراضيهم وانتزعوا من محاريثهم ومن تقاليدهم العريقة وقذِفوا في محيطات وفي عوالم لم يكونوا يعرفون بوجودها ولا سمعوا بها، ليوضعوا في مواجهة الموت. وإنني لآسف أن لم تسعفني ذاكرتي، أو لم أهتم كثيراً، لتسجيل تلك الأنغام. فقد كانت تصور جانباً من تاريخنا في أسلوب من السخرية الذكية. لكن كويين كان يختلف عن الأفراد المكونين لعصابة اعبابو أو عصابة حرسه، في أنه لم يكن من الكوم بل من الفرسان؛ أولئك الخيالة الذين يتميزون بالبرنس الأبيض الفاره؛ الذين كانوا يمثلون الأرستقراطية العسكرية في الجيوش الاستعمارية الفرنسية. لكن حياتهم لم تكن بأجمل من حياة الآخرين ولا أكثر هدوءاً. فقد كانوا يلقون هم الآخرون بأنفسهم مخفضي الرؤوس أمام فوهات مدافع العم هو، ويتخبطون بالجراءة نفسها في مستنقعات دلتا ميكونغ، ويصلون نصيبهم من الأهوال. واتفق لكويين أن وقع في أسر الفييت، لكنه لقي حسب ما كان يقول، ورفاقه منهم معاملة أفضل مما كان يلقى منهم أولئك الذين كانوا يسمونهم سادته الفرنسيين؛ ثم أخلوا سبيله ورفاقه بعد عملية غسل بسيطة للدماغ أو على الأدق


Twitter: @ketab_n

بعد أن لقنوهم دروساً في الأخلاق السياسية - إن كان للأخلاق سياسية حقاً وجود - لتفتيح أعينهم وأذهانهم. فقد لقنوهم أنهم هم أيضاً مستعمَرون، وأن فرنسا عدوتهم المشتركة. لكن ينبغي الإقرار بأن عملية غسل الدماغ التي أعملها فيهم مستخدموهم كانت أبلغ وأنجع؛ ذلك بأن الغالبية العظمى منهم قد ظلت، إلا من بعض الحالات النادرة، مخلصة وفية لفرنسا.

فكان كويين قد خبر الاعتقال من قبل أن يحل بتازمامرت. وشهد كيف كان نظراؤه يألمون، وكيف كانوا يموتون. بل كان ومن هم من طينته يؤتى بهم ليحضروا جلسات التعذيب وعمليات الإعدام لأجل أن يروا أن الناس جميعاً سواسية حقاً أمام الأهوال وأمام الموت. وما عدا ذلك لا يعدو أن يكون مسألة كرامة، ليس إلا.

وقد بدا كويين إذ هو في تازمامرت في غاية المرونة، وبدا سهل المعاشرة وشديد الاحترام لأعراف البناية، وهي صفات كانت تستوجبها ظروف العيش في ذلك المعتقل. وكان يحكي لنا في أسلوب يفيض سخرية عن مغامراته في الجزائر وفي ڤيتنام وحتى في أوروبا؛ إذ سبق له أن تجند في حامية في فرنسا ثم في ألمانيا. وكان يعرف كذلك أن يلتزم الصمت، وذلك أمر كان بالغ الأهمية على الحياة المشتركة.

أسلم كويين الروح في يوم وفاة محجوب الياكدي أيضاً. وقد كان تردى هو الآخر إلى ما يشبه النوام والخمول؛ فما عاد يرد على نداءاتنا ولا عاد يطعم شيئاً وإلا فالنزر اليسير. تراه فقد الأمل؟ أم



Twitter: @ketab_n

تراه كان يتعلق بما كان خلَّف وراءه؟ أم أن داء ألم به فلم يتداركه بالعلاج، فكان يتأكله وينخر دخائله؟ فظل ينضني وتسوء حالته شيئاً فشيئاً، إلى أن كانت وفاته في يوم 12 فبراير 1978. ولربما يكون الفقيد ألف الجوع واستسلم إليه. فقد كانت الرمال المتحركة في تازمامرت من أخطر فخاخها ومصائدها.

فالمرء إذا بقي بضعة أيام من غير أكل فقدَ الشهية، ثم صار بما يطول به الجوع يشعر أنه في حال حسنة، بل في أحسن حال؛ إذ يستولي عليه خدرٌ لذيذ أشبه بما تُحدث المخدرات. فلا يعود يفكر في الطعام. وقد خبرت هذه الحالة وقت أن أصبت بانحصار للغاز فانتفخت بطني كالكرة. وكنت أحس بضغط شديد عند المخرج لكن إذا ذهبت للتغوط بقيت أمعائي متصامة لا يحركها شيء. فقد كنت محصوراً بفعل كيس غازي كان يسد الجهاز كله. ولم أكن أقوى على ابتلاع شيء. ثم اعتدت تلك الحالة واعتدت الجوع. فكنت أشرب قليلاً من الماء في جرعات صغيرة، وألبث معظم الوقت مضطجعاً على جنبي.

فلما كان اليوم الثامن، وبيْنا أنا مضطجع في وقت الظهيرة وقد استولى عليّ خدر غريب، إذا بي أسمع الآخرين يتكلمون ويتناهى إليّ حديثهم كما لو من قرارة بئر. وكان غناء الطيور مخنوقاً. لم أكن أحلم، ولم أكن أفكر. كنت خاملاً. وفجأة أحسست في أمعائي كيس غاز صغيراً يتحرك أشبه بفقاعة صغيرة تصعد من قعر كأس ماء. فتوقفت برهة عند حافة المخرج، ثم انفلتت غير محسوسة كأنما تخترق سطح السائل. فحبست أنفاسي، واتجهت بجماع كياني نحو



Twitter: @ketab_n

تلك المعجزة البخارية الصغيرة. فما عدت أعرف هل ينبغي لي أن أنقبض وأدفع، كفعل المرأة حين الوضع، أم أسترخي وأخفف من الضغط وأترك لجسمي أن يتولى الباقي. فأثرت الحل الثاني ووجدت فيه خيراً؛ وإن هي إلا هنيهة حتى شعرت بفقاعة أخرى ثم انفجرت مثل سابقتها وبقدر رقتها وخفتها في الخارج. فتضرعت إلى الله، وانتظرت. هل سيكون الخلاص؟ كنت موزعاً بين الخوف والرجاء، لكن سرعان ما انبثقت فقاعة ثالثة، فرابعة ثم خامسة. وتسارع الإيقاع، فكان انفجاراً حقيقياً في صوته ورائحته. حتى إذا انتهى ذلك الانفجار صرت أخف من طائر، وخطر لي أن تلك كانت من أجمل لحظات حياتي. وهل السعادة إلا شيء نسبي! وبعد تلك المحنة عدت بصورة طبيعية إلى المرحاض. والأقسى عليّ كان أن أعود لأطعم من جديد. فقد كان الأمر يقتضيني أن أشن على نفسي حرباً؛ حرباً مادية ومعنوية ونفسية، لأستطيع أن أطعم من جديد. لكن الحياة كانت تنبعث دائماً من حلكة اليأس.

كنت شارداً في أفكاري، عندما حمل الجنود كويين ليقبروه عفواً بل ليرموه في الحفرة. فإذا فرغوا من تلك المهمة الرهيبة انصرفوا إلى حال سبيلهم. لكن خيّم على البناية من بعدهم جو ثقيل ومرير. وما كان الدعاء للميت بقدر ما يكون من القوة في العادة. فقد تلا أحد الرفاق بضع سور من القرآن، أنصتنا إليها يلجمنا صمت ثقيل يعج هواجس. ولما أن فرغ الحراس من عملية الدفن الأولى عادوا ثانية. وفي خضم من الذهول الشامل توجهوا


Twitter: @ketab_n

رأساً إلى زنزانة الياكدي. وما كان يمكن أن يكون لذلك الفعل منهم إلا تفسير واحد؛ وما كنا نعرف به إلا قليلاً.

الياكدي المحجوب، يُعرف عند الجميع باسم مولاي المحجوب. ومولاي هو اللقب الذي يجعل للمنتسبين إلى الرسول من الشرفاء. وأما هو فلم يكن له شيء من ذلك النسب، لكن بذلك كان يسمى على سبيل الانتقاص. وقد كان الياكدي من فوجي. وكان شخصاً مثاراً للاستغراب. فهو يحشر أنفه في كل شيء بروح مراكشية خالصة تجعل حضوره، على الرغم من كل شيء، شيئاً ممتعاً. لقد كان مراكشياً حتى النخاع. نشأ في المدينة العتيقة، فورث من خفة ناسها ومن فكاهتهم المتفردة وسخريتهم التي يرتجف لها الكبرياء ولغة جياشة. وكان يمزج ذلك كله بنبرة يتعمد أن يجعلها متثاقلة وسرعة بديهة. وكان يحفظ كذلك عدداً كبيراً من الأمثال والملح والطرائف جميلة ومتوسطة الجمال. فكان يكثر من ممازحة رفاقه، حتى في أحلك الأوقات. وكان لا يفتأ يردد ذلك المثل الشعبي : «الموت بين الأصحاب نزاهة». ثم كان أن أصيب بالإسهال؛ كمثل الغالبية من أولئك الذين كانوا يفرطون في شرب الماء المقدم إلينا. فلما أحس بدنو أجله أخبرنا بالأمر. فلم يفت رفاقه في الزنازن المجاورة لزنزانته أن يتناولوه بالسخرية، وهم يكررون على مسامعه ذلك المثل الأثير عليه. ثم بدأ يهلك ببطء كأنما يُفرغ شيئاً فشيئاً من نفسه؛ إلى أن كانت وفاته في يوم 12 فبراير 1978.



Twitter: @ketab_n

من ذا الذي كانت البومة لا تزال تنتظره في ذلك الشهر فبراير نفسه، وفي زمهرير ذلك الشتاء الرهيب؟ إنه رفيقي الأثير؛ محمد العايدي!

كان والد العايدي بناء؛ أسمر متين البنية. ولم يكن يوازي قامته الفارعة وقوته غير خمد شعوره وتبلد إحساسه. فهو لم يكن يعرف العنف ولا الغضب. وكثيراً ما كان يسلو عما يحدث من حوله، فلا يلقي إليه بالاً. ولم يكن له غير ابن واحد، لكنه كان يفعل كمن له دزينة من الأبناء. فلما توفيت أم الصبي حزن عليها وإن لم يبن عن حزنه إلا بتقتير. ثم أقام لها شعائر الجنازة، فما فرط منها في شيء، وقام بدفنها كما تقتضي الأصول. ثم قلب الصفحة. وما كادت تنقضي فترة الحداد حتى تزوج ثانية. وحزن الطفل على أمه، ثم لم يلبث أن تعقل. لم يسأل أباه شيئاً، فقد كان يعرف أنه لن يظفر منه بجواب.

الأطفال، خاصة منهم اليتامى، يُرزقون ملائكة ترعاهم. وأما العايدي فملاكه كان بلامنازع عمه، شقيق أبيه ونقيضه في كل شيء. فقد كان رجلاً رؤوفاً رحيماً. أدرك مبلغ الحزن والأسى الذي



Twitter: @ketab_n

كان يغرق الطفل، فقرر من تلقاء نفسه أن يأخذه تحت جناحه. فلما تزوج الأب زواجه الثاني صار العم يكثر من زياراته، خاصة في المساء لأن الأعراف تمنعه من التردد على بيت أخيه أثناء النهار في غياب رب البيت. فكان يتذرع بالسؤال عن صحة أخيه والاستفسار عن أحواله. لكن الأب لم يكن بليداً؛ فقد فطن إلى أن تلك الزيارات كانت لأجل ابنه. فواتاه أن يعرف أن ثمة شخصاً يريد ليقدم للطفل ما عجز هو أن يمنحه له.

فلما انقضت الأيام الأولى إذا زوجة الأب قد صارت ترغب في إثبات وجودها ورسم حدود مملكتها. وسرعان ما اشتدت تلك الرغبة لديها حتى تملكت عليها نفسها. فعزلت ربيبها في غرفة ضيقة أنقصت أثاثها إلى أقصى الحدود. وكان الأب يخرج للعمل طوال النهار، فكانت تستغل غيابه لتطرد الطفل من البيت. فإذا احتج بحاجته إلى البقاء في البيت لإنجاز فروضه أو مراجعة دروسه كانت تسخر منه وتصيح في وجهه بذلك المثل السائر :

- تعلم حرفة بوك ليغلبوك.

ثم تنفجر ضاحكة. أو تقول له أيضاً :

- هل رأيت أن أباك أو عمك تعلَّما؟ كلا. فافعل كما يفعل الأطفال الذين هم في مثل سنك واذهب لتتعلم مهنة وعد بشيء من المال إلى البيت. فما أنت إلا طفيلي! هيا انصرف! لا أريد أن أراك!

فصار يترك البيت ويخرج. وكثر خروجه، واعتاد الشارع حتى صار له هو المأوى والملاذ. فخبر أصغر بؤرة فيه وزواية؛ أشدها عداء



Twitter: @ketab_n

وأكثرها دفئاً معاً. واتخذ له فيه أصدقاء، وكان له فيه أعداء. وتعلم أن يتعارك وأن يهرب عندما لا يعود مناص من الهرب. وتعلم أن يتدبر أموره بنفسه. لقد أصبح رجلاً. لكنه وإن تأثر بحياة الشارع، فلقد تأثر كذلك برعاية عمه له، هو الذي لم يكن يأخذه بزجر أو تأنيب، وكان يقتصر على أن يريه الاختيارات الممكنة وشتى السبل للثأر، لا من الناس، بل من الحياة. فالانتصار على الخصوم لا يتحقق إلا بالتعلم. فكان يرد على سخرية زوجة أبيه :

- المهنة نعم، لكن عن طريق المدرسة.

فاستمسك بدراسته وظل يقاوم، إلى أن كان يوم أهله مستواه لإجراء مباراة المدرسة الجوية. وأصبح تلميذاً ضابط صف، وتعلم مهنة القيّم على السلاح، فحاز فيها خبرة ومهارة. ثم أجرى تدريبا في الولايات المتحدة، ارتقى على أثره إلى رتبة الرقيب. وبذا تحقق له الثأر؛ فلقد تغلب على الشارع، وارتقى في المدارج، ليصبح مساعداً. ثم مسؤولاً على مصلحة. وشهد له بالكفاءة وحاز التقدير. وقد تزوج العايدي باكراً وأنشأ له بيتاً، بعد أن عاش طفولته وهو منه محروم. وعاش سعيداً تحيط به زوجه وبناته اللائي كن الأحب إلى قلبه من كل شيء. وما أخل بواجبات الابن؛ فداوم على زيارة أبيه وزوجة أبيه، يسأل عن صحتهما وعن احتياجاتهما. وواظب على زيارة عمه الذي ظل يكلؤه بعطفه.

ثم كان أن توفي العم، ولحق به الأب بعد وقت قليل. فوفى بواجباته نحو الاثنين، وأقام لهما الجنازة اللائقة، كما تقضي تقاليد الإسلام.


Twitter: @ketab_n

فلما انتهت مراسم الدفن، وجدت زوجة الأب نفسها في فاقة وعوز شديدين بعد حياة زوجية طويلة. فما ورثت غير الثُمن من البيت ومن الأثاث. ولم يكن زوجها الراحل يتمتع بأي تغطية اجتماعية، فوجدت نفسها من غير معيل، توشك أن تلجأ إلى الشارع.

فلما انتهت فترة الحداد، جاء العايدي لزيارتها، واقترح عليها أن تبيع جزءاً من الأثاث لم تكن بحاجة إليه، وأن تؤوي إلى الطابق الثاني من البيت، الذي تنازل لها عنه، وأن تؤجر الطابق السفلي وتعيش من كرائه.

وأما هو فقد كان مكتفياً لا يحتاج شيئاً. فقد كانت لديه شقة يسكن فيها، وزوجة تشتغل أيضاً، وتساعد في حياة الأسرة، وفتيات رباهن على المودة والحب. لقد كان سعيداً؛ فلم يحتفظ في نفسه بموجدة، لا نحو أبيه ولا نحو زوجة أبيه ولا حتى نحو القدر، الذي لم يرحمه وانتزعه من حب زوجته وحب بناته، كما سبق أن حرمه حبَّ أمه. تراه كان منبوذاً من الحب ومطروداً من جنة عدن؟ وهل كان فؤاداً منذوراً للعيش إلى الأبد في صحراء قفر من حنان ومن طيبة؟

وقد كان إذ هو في تازمامرت يعيش بكرامة ويقاوم بإيمان وشجاعة ويشارك في حياة البناية وفي الوفاق العام. كان يلقن الآخرين أنه كلما عم التفاهم والوفاق بيننا إلا كان فيه إطالة لبقائنا. وكان مستعداً على الدوام لأن يحكي قصة أو ينشد أغنية (نعم



Twitter: @ketab_n

فقد كنا نغني في تازمامرت؛ فالغناء كان لنا كأنه ركن صغير من الجنة في خضم ذلك الجحيم)، أو ليقول مُلحة أو يحكي عن أسرته.

لقد انتصر على فقدانه لأمه وعلى زواج أبيه وعلى فساد الشارع وعلى فخاخ الحياة العسكرية، لكنه سقط في مسألة لا تعدو أن تكون التنظيف والتطهير. فقد انتصرت عليه المياه الوسخة التي فاضت حتى غمرت البناية. والله وحده يعلم في أي قذارة كنا نعيش!

فقد اتفق أن انسدت البالوعات ذات يوم لغير ما سبب واضح ففاضت بما حوت على الزنازن وملأت الرواق. فإذا الرائحة شيء لا يطاق، وإذا الرفاق يتخبطون في البراز حتى عراقيبهم. ولم يجدوا بداً أن يجمعوا أغراضهم فوق الدكة الإسمنتية التي كانت لهم المرقد. وجعلوا يستعملون معظم مياه الشرب لغسل أقدامهم قبل أن يصعدوا إلى مراقدهم. ومن غريب أنني كنت من بين القلة القليلة التي نجت من ذلك السيل، أنا الذي كان مرحاضي يفتقر إلى مرشاف. فقد كان يمكن للمصيبة أن تكون عليٍّ قاصمة ماحقة. فقد كانت البالوعات الخاصة بكل جانب من جانبيّ الزنازن تنتظم في صف مستقل، وكان الصفان يلتقيان في الخارج في حفرة عفنة عند أسفل بنايتنا. فأما الزنازن الواقعة في الصف الذي فيه زنزانتي وتعرضت للفيض فقد كانت تقوم في الجانب السفلي فجاءها الفيض من الباب. وأما أنا فإن الرقم ثلاثة عشر كان عليّ فألاً حسناً في تلك الملمة. فقد كان يقوم عند باب زنزانتي مرتفعٌ صغير بسبب عيب في الإسمنت الخام، فأسعفني بخدمة لا تقدر بثمن. كما وأنني لم ألبث مكتوف اليدين؛ فقد ضحيت بجزء



Twitter: @ketab_n

من غطائي – ذلك الشيء النفيس – لأسد أسفل باب زنزانتي. ثم جاء الحراس يحتذون الجزمات ليقوموا بواجبهم في غير ما اكتراث إلى عظم بلوانا. وما اهتموا لها إلا بعد مرور ثلاثة أيام، وبعد أن تلقوا الإذن من فوق، فجاءوا في الصباح الباكر يحملون مضخة كانوا يعولون عليها لتسريح البالوعة سببِ تلك الكارثة. فوصلوا الآلة بحفرة في الخارجِ ثم شغلوها. والواضح أن الآلة كانت قوية، ذلك بأن سائلاً متدبقاً ونتناً قد انقذف من حفرة المرحاض، فرشّ كل ما كانت تحوي الزنازن، ولم تسلم منه جزيرة الإسمنت الصغيرة التي لاذ بها الرفاق الغرقى. وأما الحراس فقد كانوا في الخارج مغتبطين بقوة تلك الآلة الرهيبة. فلما جاءوا لينظروا في نتيجة ما عملوا اكتشفوا هول الخسائر. فلم تزد تلك المضخة على أن فاقمت من تلك المصيبة. ولم يجدوا بداً في آخر الأمر من اللجوء إلى استعمال الوسائل التقليدية. وفي اليوم الذي بعد جاءوا بأنبوب للسقي وبالمكنسة الرسمية ليساعدوا الرفاق واحداً بعد آخر على تنظيف زنازنهم ما استطاعوا إليه سبيلاً. فلما فرغوا من تقديم الأكل لنا استعملوا المكنسة نفسها في تنظيف الطنجرة.

كان العايدي هو أكثر من تضرر من تلك المحنة. فقد كنا في عز الشتاء وكانت درجات الحرارة تنخفض إلى ما دون الصفر، فلا يعود بمقدور أحد أن يستحم أو يعود بمقدوره أن يتوضأ. وأجمعنا رأينا على أنه أمر بالغ الخطورة. وأما العايدي فما استطاع أن يتحمل وجود تلك الأكوام من القاذورات، فانتهك المحظور وقرر أن يغتسل من دون أن يراجع في الأمر أحداً من رفاقه. فاستحم بماء مثلج، ولم يكن


Twitter: @ketab_n

راد لما هو مقدر؛ ثم لم يفلح في التخلص من الرائحة، لأنها كانت في نفسه، لكن أصيب بداء الرئة وكانت إصابة مميتة.

لم يكن رفيقنا هو وحده الذي استحوذت عليه تلك الرائحة بل إن الحراس أنفسهم قد اهتزوا لها، خاصة المساعد أول. ففي يوم 20 فبراير 1978؛ وهو اليوم الذي توفي فيه العايدي، جاء بقنينة من الغريزيل وجعل يهرق منها على الجثة ويرش المكان، قبل أن يسحبها في غطائها إلى مثواها الأخير. وما كان أفظع ذلك المزيج من الغريزيل والجير الحامي من كيمياء شيطانية!



Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

«كن حكيماً يا دمي، والتزم أشد الهدوء.
لقد كنت تطلب المساء، فها هو ذا يؤذن بالنزول».

وأما ألمنا نحن فلم يكن يميز بين ليل ونهار. وقد كان أشدَّ تلك الآلام علينا ألم البرد، فأين من عضاته لدغاتُ الأفاعي ومن وخزاته لسعاتُ العقارب. لقد كان ينفث في الجسد سماً يكتسحه حتى لا تتأبى عنه خلية من خلاياه. فهو ينفذ إليها كتيماً وقاسياً ومدمراً. لقد كان البرد يتأكّلنا وينخرنا ويلتهمنا التهاماً، في غير ما عجلة، وهو مطمئن إلى أن ضربته سديدة لا تخطئ مرماها، ومستيقن أن إليه ستعود الغلبة في الأخير، وأنه سيدمر صاحبه على مهل.

كنت في أحلك لحظات الشتاء وأشدها علينا، إذ نحن في تازمامرت، أفكر في معتقلات سيبيريا، وفي أولئك الأناسي الذين كان القيصر، وستالين من بعده، يرسلان بهم إليها. وأفكر في الصقيع الذي كانوا به يصطلون في ذلك المكان، وأفكر في ما كانوا يتكبدون فأستصغر آلامي وأهوّن مما ألاقي. فلقد ابتُلي من قبلي أناس بما هو أشد وأمر.

وإذا كانت تازمامرت قد حفرت فينا، نحن المعتقلين، آثاراً لا تزول فكذلك تركت بعض تلك الآثار على سائر من عاش فيها. فالحراس مثلاً، كانوا موقنين أن ذلك المكان كان مسكوناً بالأرواح. فكان


Twitter: @ketab_n

الواحد منهم يتهيب أن يأتي بمفرده إلى البناية الثانية. وكان العسس يزعمون أنهم يسمعون صراخاً وأنيناً يأتي من ذلك المكان. وأما نحن الذين كنا فيه نعيش، فلم نكن نسمع شيئاً من ذلك كله. وكانوا يزعمون كذلك أنهم يرون خيالات تتجول في الساحة. وذات مساء طلع علينا في البناية الحراس في عدد كبير، فيما كنا ننام هانئين وقالوا إن العسس سمعوا صراخاً مرعباً يأتي من البناية.

لم نكن مسكونين بموتانا؛ فقد صلينا لأجلهم جماعة تحت جنح الظلام. وكنا نراهم قد انتقلوا إلى العالم الآخر.

وأما الحراس المستعبَدون لتقاليدهم الراسخة ومعتقداتهم العمياء فكانوا يألمون كثيراً في دخائلهم بما اقترفت أيديهم من حرمان الأموات من طقوس الجنازة ومن الأكفان، فإذا هم قد صاروا بهم مهووسين. لقد كانوا يغذُّون بأنفسهم الرعب الذي كان يتأكلهم. وبدا تحقق الهدف من تازمامرت؛ فقد نشأت عنها خرافة صارت تستبد بالأذهان.

كان الحراس من بقايا الاستعمار؛ إنهم حثالة قد أضاعوا أرواحهم، بعد أن باعوا ضمائرهم إلى نظام لم يكونوا يزيدون فيه عن فضالة، ولا كانوا يعون منه شيئاً على الإطلاق. ثم أورثهم ذلك النظامُ نظاماً آخر. فأتى على ما كان باقياً فيهم من إنسانية. وإنني لأرثي لحالهم وأشفق عليهم. وأدعو الله ألا يعرف أبناؤهم يوماً بما كانوا فيه يشتركون.



Twitter: @ketab_n

كان ينتاب بعضهم شعور بالمرارة. وجميع الخلق ينتابهم ذلك الشعور. لكن متى كان المرء غير مرتاح البال أو متطيراً رأى في تعاسته وشقائه لعنة قد أصابته. كذلك حدث للمساعد أول ابن إدريس، الذي فقد ابنيه تباعاً في حادثتي سير. وقد كان من أقسى الحراس وأشرسهم. مثله كمثل الرقيب صالح، الذي جاء عندنا برتبة العريف؛ فقد كان شريراً أشِراً. كان متوسط القامة نحيفاً مع شيء من أنوثة كانت له مصدر عقدة في نفسه. وقد كان مرهوباً حتى من زملائه؛ إذ كانوا يتوجسون منه أنه يشي بهم لدى القائد. ثم اتفق للرقيب صالح أن وقع من على سلم وانكسر حوضه، فأمضى سنة طريح المستشفى ثم صار عاجزاً عن المشي من غير ما أمل في الشفاء.

ثم كان أن جاءانا هما الاثنان باكيين يطلبان منا الصفح. وطلبا أن ينقلا إلى مكان آخر؛ فاستُجيب إلى طلبهما بصفة استثنائية. فقد كانت العادة ألا يسمح للحراس بمغادرة تازمامرت؛ فقد حُكم عليهم بمرافقتنا إلى نهاية الرحلة.

لقد اقترن مصيرهم بمصيرنا، وإن تكن عيشتهم أفضل من عيشتنا بما لا يقاس؛ فكان ذلك سبباً لحقدهم علينا. فما أكثر ما تكون سيرتهم فينا بخلاف ما يأمر به الإسلام. وقد كان أحد رفاقنا، هو الخضير، يقوم عليهم رقيباً. فقد جُعل في موضع مميز؛ إذ كان ينزل في الزنزانة الواقعة قبالة مدخل البناية، فكان ينظر من خصاص الباب فيتفرج على كثير من الحوادث ثم يرويها لنا في أدق التفاصيل.


Twitter: @ketab_n

فقد شاهد عمليات الدفن الأولى، فصور لنا أساليب الحراس في دفن الأموات، وحكى لنا عن الجير الحامي ولوح القصدير. وكان يشاهد كل يوم كيف كان الحراس ينظفون الطنجرة التي يقدمون لنا فيها الطعام؛ بالمكنسة التي يكنسون بها أرضية البناية. ورآهم يوم أن كان الفيضان ينظفون الطنجرة بتلك المكنسة بعد أن استعملوها في دفع المياه القذرة. وكان كثيراً ما يرى الحراس يزيلون الصراصير من الحريرة.

واتُّفق للحراس يوماً أن وجدوا جرذاً ميتاً في الطنجرة فالتقطوه بالمغرفة ورموا به بعيداً، ثم قدموا لنا وجبة العشاء، من غير أن يرف لهم جفن. واتفق لهم في مرة أخرى أن وقعوا في الطعام على عقرب. وكان الأكل في ذلك اليوم أحسن مما في سائر الأيام. وقد أخبرنا الخضير بتلك الواقعة بعد أن انصرف الحراس. لكننا أجمعنا رأينا مع ذلك ومن غير تردد على أن نأكل تلك الوجبة. فقد كان اللحم شيئاً نادراً وما كنا ننعم بتحسين الوجبات إلا في المناسبات التي يحتفل فيها الملك بحدث عائلي. فكانوا حينها يشركوننا في السعادة التي يتذوق منها المجتمع المغربي. وقد كان ذلك اللحم للجمل، وكانت تفوح منه رائحة نتانة. فكان الرفاق يقولون إن لحم الجمل يكون في العادة على شيء من نتانة. وكنت أعرف أنه كلام غير صحيح؛ إذ سبق لي أن تذوقت ذلك اللحم. فامتنعت من الأكل على الرغم من الجوع، وفرح جيراني أن ظفروا بنصيبي من ذلك الطعام. ثم لم أستغرب أن كان سبباً في إصابتهم ببعض حالات الإسهال.


Twitter: @ketab_n

كان الخضير، واسمه الحقيقي أبو المعقول، من عصابة اعبابو فقد كان ريفياً من قبيلة رئيسه وصهره. وكان برتبة المساعد أول وضابطاً مكلفاً بالعتاد في مدرسة أهرمومو. وكان وصهر الرقيب عقا مكلفين بالمصالح أكثرها ذراً للأموال على صعيد الوحدة العسكرية. وكان يحتقر مرؤوسيه ويمقت رؤساءه؛ ولم يكن يرى أحداً ينادده في ما عدا رئيسه، ولا كان يرى من يستحق سواه أن يقلّد شارات الضابط. كان أمازيغياً يكره العرب. فإذا رأيتُه تساءلت ألا يكون يكره نفسه أيضاً؟ ناهيك عن الحراس وسائر أولئك الذين تجاسروا على أن يرموا به في المعتقل. ثم آثر كمثل بندورو أن ينطوي على نفسه فلم يكن يشارك في حياة البناية ولا كان له صديق أو موضع لثقة. واشتهر صاحبنا بذلك الرد الذي ألقى به ذات يوم إلى حارس قد آخذه بأن كان يجيب بالفرنسية عندما ينادى عليه فقد رد عليه بقوله :

- ما دمت لا أتكلم لغتي [الأمازيغية]، فبوسعي أن أجيب بأي لغة أشاء.

فهل تراها كانت من سمات طبعه أم من المرارة التي كانت توغر صدره؟ إلى أن كانت وفاته في يوم 21 أبريل 1979، من فرط الإسهال وفرط السعار الشديد الذي كان يطوي عليه نفسه.

كانت مغامرة الصخيرات في واقع الأمر قضية عائلية وعشائرية وقبَلية. بله كانت تصفية للحسابات بين الملكية وأهل الريف. وإن يكن كثيرٌ من هؤلاء قد شاركوا في سنة 1960 في القمع الدموي الذي ناب انتفاضة أمازيغ الشمال.


Twitter: @ketab_n

لقد جرَّ امحمد [اعبابو] أفراد عائلته جميعاً إلى مغامرته، فساروا في أثره لا يلوون على شيء. أخواه اللذان لم يكن منهما من ينتسب إلى وحدتنا العسكرية، محمد العقيد، وعبد العزيز الرقيب، وثلاثة من أصهاره : أبو المعقول، المساعد أول، وضابطا صف لم أكن أعرف بهما إلا سماعاً.

والناظر إلى آل اعبابو، تلك العائلة الكثيرة الأفراد، متشاركين في تلك المغامرة المجنونة، يحسبهم متَّحدين متماسكين كأصابع اليد. وما كانوا في الحقيقة على شيء من ذلك الاتحاد ولا من ذلك التماسك.

وقد كانت العائلة اجتمعت بكافة أفرادها، شهراً قبل ذلك اليوم المشهود، 10 يوليوز، بعد الكثير من المماحكات والمنازعات ثم التسويات. فتحلقوا من حول أبيهم لاقتسام ما كان يفترَض أن يصير لهم ميراثاً بعد وفاته. ثم عادوا إلى الالتقاء أسبوعاً قبل تلك الأحداث ليثبِّتوا الاتفاقات التي وقَّعوها وهم سعداء أن فرغوا من ذلك الأمر. وما كانوا يعلمون بما يخبئ لهم القدر. فقد هلك ثلاثة إخوة وثلاثة أصهار؛ مَن في الصخيرات ومَن في غيابات السجن. فإذا الأب هو من صار بمقتضى الشرع الإسلامي أحد الورثة فيهم! وإذا العجوز هو من قتل الذئب! وكان جلد امحمد هو الأغلى بين تلك الجلود جميعاً. فقد ترك ثروة طائلة. ثم راجت الشائعات عن زوجة له خرجت من العدم يوم أن كان يجري تقسيم تركته وطالبت بحقها فيها.



Twitter: @ketab_n

وأما العقيد محمد فلم يكن له حظ من الثراء. وإن من عرفه ليتساءل كيف له أن يقع في شراك أخيه الأصغر. وأما عبد العزيز فما كان سوى رقيب، قد عين ناسخاً في أحد المكاتب، فكان عمله يقتصر على جمع المعلومات لحساب أخيه الشهير الذي يكبره. وما كان يدرك خطورة أفعاله. وظل في زنزانته التي بجوار زنزانتي إلى حين وفاته دون أن يعرف يوماً أكاره هو لأخيه أم معجب به. وكان إذ هو في تازمامرت يتضاءل بنفسه أمام الجميع، كأنما ليجعلهم يسهون عن الاسم الرهيب الذي كان يلتصق به. ثم توفي تاركاً وراءه زوجة وأطفالاً ومساراً مهنياً لم يكن ينبئ بأنه سيكون باهراً، لكنه كان يؤمن لصاحبه حياة كريمة، وميراثاً لم ير له بصيصاً في غير شهادة العدول.

إن الدم الذي كان يجري في عروقه هو الذي كان سبباً في نكبته. فقد كان الأخ الأصغر لرئيسنا، العقيد؛ ذلك الذي كان السبب في كل النكبات. وسقط في ذلك الحصاد الجنائزي لشتاء 1978 في الأول من نونبر. لقد مات من تكالب الجوع والبرد والهوام والضنى والحبوط.



Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ذات يوم جاءني زائر كمثل شعاع شمس اخترق عليّ عزلتي. وما كان الزائر إلا طائراً أشبه بالدوري يسمى «طبيبت»، لأجل الصوت الذي يصدر : طبيييب. إنه طائر صغير يختص به المغرب ويعيش في المناطق الحارة منه. وقد كنا إذ نحن صغار يُنصَح لنا أن نوقره. فكنا ندعوه «لالة طبيبت». وما كان أحد، ولا حتى الأطفال ليجرؤ على الاعتداء عليه خشية الوقوع في المحظور. وأعتقد أن اسم هذا الطائر في العربية هو «الشرشور».

ولكم سررت بتلك الزيارة، فقررت من غير تفكير أن أضع بعض الفتات من وجبتي الزهيدة في ثقوب التهوية التي منها كان دخوله. وطالت تلك المغامرة بضع سنين. فقد اتخذ طبيبت مسكناً له في زنزانتي؛ فكان يبيت فيها ويتردد عليها تكراراً في اليوم الواحد ليصيب فيها قوته. وقد كانت الطيور كثيرة في البناية، بيد أننا لم نكن نراها. كانت تعيش في الحيز الواقع فوق الزنازن وتحت سقف الصفيح. فكنا نسمع لها زقزقة لا تنقطع طوال النهار. وقد كنا نسمعها في البداية ضجة مصمة ومشوشة. ثم صرنا بتوالي الأيام نميز فيها أصواتاً لأنواع كثيرة من الطيور. ولم نكن نعرف أسماء



Twitter: @ketab_n

تلك الطيور أو نعرف أشكالها، لكننا كنا نميزها من أصواتها، مثلما كان شأننا خلال السنوات الأولى مع رفاقنا في الطيران البعيدين عن مجال رؤيتنا. فقد كنا نعرف عنهم كل شيء؛ حياتهم وأسرهم ونتعرف أقل نفس يصدر عن كل واحد منهم، من غير أن نكون عرفنا قط وجوههم أو رأينا أجسادهم. تراهم كانوا بدينين أم نحفاء وطوالاً أم قصاراً؟ لن نهتدي أبداً إلى معرفة شيء من ذلك كله. فما كان لهم وجود في غير آذاننا.

وأما الطيور فقد تعلمنا أن نتعرف عليها، أو تعلمنا بالأصح أن نميز أصواتها ولغاتها. وقد كان بينها طائر دوريّ ظل يداوم هو نفسه لا يتبدل، قبل مجيء الحراس، على إطلاق صيحات حادة مسترسلة فيما تلوذ بقية الطيور بالصمت حيناً من زمن، ثم إذا هي ترد عليه في نشيد جماعي... ولا أعرف ما الذي كان يجعلني مستيقناً أن ذلك الطائر كان أنثى. وإن هما إلا دقيقتان أو قل ثلاث وكان يأتي الحراس. وتظل تلك الحكاية تتكرر على الدوام سواء أأقبل علينا الحراس في وقتهم المعتاد، أو نزلوا علينا حين لا نكون نتوقعهم. فقد كانت الطيور تنبئنا بمجيئهم. وكانت جاراتنا المجنحة تنبئنا كذلك بحالة الطقس مستبقات لها بيومين أو ثلاثة. فإذا كان المطر أو العواصف أو الزوابع الرملية كان غناؤها مختلفاً. وتكون طيور الدوري هي أنفذ تلك الطيور إحساساً وأبلغها استشعاراً. فإذا دخلت علينا البنايةَ أفعى، أكان دخولها من الباب أو من السقف أطلقت الطيور جميعاً أصواتها بالتحذير.


Twitter: @ketab_n

وأما طائري طبيبت فقد اكتشفت أنه يصدر نوعين من الغناء مختلفين كثيراً؛ غناء مألوف يعرفه فيه الجميع، ومنه استُعير له اسمه، وغناء آخر تطلَّبني وقتاً طويلاً لأتعرف عليه. فيوم كان جيراني المقابلون على أهبة أن يرحَّلوا إلى البناية الأولى حط عند نافذتي (كذلك كنت أسمي ثقوب التهوية فيها)، وجعل يطلق صوتاً مختلفاً فريداً ويرجعه ترجيعاً. وظل كذلك دأبه أياماً، إلى أن تم ترحيل الرفاق. وقد ترك هؤلاء أماكنهم إلى بعض الأفارقة السود كان يُفترض أن يمكثوا بيننا لبعض الوقت. ثم عاد صوته بعد ذلك إلى سيرته الأولى. ومنذ ذلك اليوم صرت أميز فيه ذلك الصوت المنبئ بتنقل، أكان رحيل حارس أو رحيل ضيوفنا السود، أو نقلنا نحن أنفسنا إلى البناية الأولى قبل الإفراج عنا، أو كذلك حين الإفراج عنا.



Twitter: @ketab_n

*Twitter: @ketab_n*

في سنة 1979 جاء البرد والموت ليتخذا لهما عندنا مقاماً شتوياً ويقتصا منا الضرائب الثقال. ومن قبل أن يشرعا في حصادهما الجنائزي إذا طائرٍ الدوري الذي كان في الخدمة يومها يطلق عقيرته ذات ظهيرة معلناً قرب مجيء الحراس. ثم خرس الرجال وخرست الطيور بضع دقائق. وخيم على البناية صمت مريب. ولاشك أن المعتقلين قد جحظوا بأعينهم في الظلمة، وهم يقلّبون في أذهانهم ألف سؤال وسؤال عن أسباب تلك الزيارة. ثم عادت الطيور إلى تغريدها الجماعي، في جلبة مصممة، انتهت، كما العادة، في معظم الأحيان بخفق أجنحة جماعي. وما لبث منها هنالك غير الطُّيَيْرات التي كانت تطلب قوتها في استحياء.

وإن هي إلا لحظات حتى دخل الحراس ففتحوا بعض الزنازن وأمروا نزلاءها بجمع أغراضهم، التي لم تكن تزيد عن بعض الأسمال وإبريق وكوب وصحن من البلاستيك، مع كل ما تجمع لهم من قذارات أعوام البؤس. إنه الترحيل إلى البناية الأخرى! استولى الذهول على الجميع... فما الأمر؟ وما الداعي إلى ذلك التغيير المفاجئ؟ لم نكن نتوقع أن نظفر من الحراس بجواب، هم الخرس


Twitter: @ketab_n

كأنهم الحجارة، لا عن وفاء إلى أسيادهم بل خشية منهم. لقد كنا الدليل الحي على ما كان يمكن أن يحيق بهم إن هم أخلوا بالأوامر ولم يلتزموها. فالشخص الجبان أخطر من الشخص الفظ القاسي.

ورحل الرفاق. فماذا كان المعيار لاختيار المرحلين؟ سوف لا نهتدي إلى معرفته أبداً. وتراني أتساءل هل كان أولئك الذين اتخذوا ذلك القرار عارفين هم أنفسهم بأسبابه!

ثم لم يتوقف التغيير عند هذا الحد. فبعد أن ملأت الإدارة الأماكن المفرغة عند جيراننا نزلاء البناية الأولى عادت فقررت بدافع الحاجة إلى إفراغ أربع عشرة زنزانة، أن تزج بمعتقلين اثنين في الزنزانة الواحدة. فهل كان فيه خير أم شر؟ ولكم أن تتصوروا كائنين لم يسبق لهما أن رأيا بعضهما، وما يتعارفان إلا بطريق الصوت، ثم يُزج بهما في زنزانة لا تزيد عن مترين في ثلاثة، وليس بها غير دكة واحدة للنوم. فإلى من تعود؟ ثم إنه يفترض بالذي ينام على الأرض أن يظل يجمع على الدوام عدة الفراش. ثم في أي وقت يستعملان المرحاض التركي الموضوع في ركن من الزنزانة، إذا لم تكن لديهما غير الظلمة وقاء يستتران به عورتيهما؟ ولم يكن في الزنزانة غير زاوية واحدة للتمشي، وليس في الإمكان أن تتسع لاثنين؛ فمن يتمشى فيها، ولكم من الوقت؟

وكذلك وجب على النزلاء أن يتفقوا على نظام للأولويات في الكلام؛ أولاً بين «النزلاء المشتركين» في الزنزانة الواحدة، ثم مع المحاوَرين الخارجيين.


Twitter: @ketab_n

ناهيك عما لاحصر له ولاعدّ من الأثلة والمشكلات؛ فقد كانت «الجلسة المغلقة»، التي وصفها سارتر، جحيماً من ستة أمتار مربعة.

لقد كان لذلك الترحيل تفسير؛ لكننا كنا مضطربين لفرط تلك التغيرات وتلك الحركة غير المعتادة، فقض علينا سباتنا والخدر الذي يرين على حواسنا وأفكارنا، فلم نطرح على أنفسنا من سؤال.

وبعد هبوط الليل، ونحن لا نزال مرتبكين من فرط الانفعال سمعنا شاحنات تدخل فناء المعتقل. فإذا نحن قد صرنا متحسبين لما لاعد له من المفاجآت، ولاسيما بعد أن خرست الطيور بالنعاس فلم تسعفنا بإنذار.

وفُتِحت باب البناية. وإذا الحراس يقومون، يصحبهم الدرك بإدخال مجموعة من المعتقلين الجدد، ثم أوصدوا عليهم واحداً بعد آخر أبوابَ الزنازن التي تم إخلاؤها. فكنت أفكر في أولئك المساكين التعساء الذين سيذوقون من الكأس التي تجرعناها عند وصولنا إلى هذا المكان، ورائحة الجيفة التي ستكون أول ما يصفع حواسهم.

فلما فرغ الحراس من إنزال السجناء، أوصدوا باب البناية بإحكام وانصرفوا. وخيم على أثر ذلك صمت ثقيل كصمت القبور. فالمؤكد أن النزلاء الجدد كانوا مصدومين ونحن مذهولين!

لقد سهونا عن أنفسنا وعن وضعنا التي باتت علينا حينها صعباً عسيراً، بعد أن صرنا اثنين في زنزانة، فإذا نحن نقلب في أنفسنا ألف سؤال عن أولئك الضيوف غير المتوقعين. وكنا لا نزال لا نجرؤ على الكلام وإياهم ولا الاستعلام منهم أو مد حبل الاتصال وإياهم


Twitter: @ketab_n

كما هو معهود أن يحدث في مثل تلك الظروف. وكنا نحسب أن الحراس سيعودون ليقدموا لأولئك الضيوف ولو غطاء ليقوا به أنفسهم في ذلك الطقس البارد الزمهرير، أو ليستطيعوا الجلوس عليه إلى الصباح، أو يأتوهم، ولم لا، بوجبة ساخنة؟

مرت ساعة واثنتان. ولم يحصل شيء. وظلت درجات الحرارة في انخفاض بما يتقدم الليل. وقد كنت عارفاً بمناخ تلك المنطقة وأعرف أن أهون خطإٍ يبدر من المرء فيه ينقلب عليه وبالاً. فكنت مشغول البال حقاً على أولئك المساكين التعساء. فلما أعياني الصبر طلبت من سكيبا جارهم الأقرب إليهم أن يكلمهم. فلم يلق منهم جواباً. فالمؤكد أنهم كانوا مرتابين متوجسين. وبذلنا المحاولات تباعاً، لكن من غير طائل.

ثم إذا واحد منهم ينادي على زميل له في لغة لم يكن لنا بها من علم. فوضح لدينا حينها أنهم أجانب؛ يبدو من لكنتهم أنهم أفارقة. ثم تواترت بينهم النداءات وبعض نتف الأحاديث. فقال أحد رفاقنا إنهم إما يكونوا موريتانيين أو سينغاليين. فقد سبق له أن سمع تلك اللهجة في مناطق الجنوب. وفكرت أنهم لابد في الحالتين أن يكونوا يتكلمون الفرنسية. فناديتهم بها :

- أيها الرفاق، أنصتوا؛ أياً من تكونوا فلتنصتوا جيداً : لا تناموا هذه الليلة، وإياكم والتمدد على الأرض أو فوق البلاطة. بل تمشّوا تمشوا ولا تتوقفوا عن المشي. وتحدثوا في ما بينكم، حتى لا يغلبكم النوم؛ فالكلام يشعركم بالدفء. إن أولئك القوم لن يعودوا، فهم بلارحمة، فلا تعولوا إلا على أنفسكم!


Twitter: @ketab_n

ثم خيم صمت طويل. وإذا واحد منهم يصيح من الطرف الآخر من البناية :

- أيها الرفاق، أين نحن؟

فلقي في الحال اعتراضاً من كثير من أصدقائه. ثم إذا واحد منهم، يبدو أنه القائد عليهم، يعنفه في لهجتهم تعنيفاً شديداً. ثم سكتوا. وعرفت أن ذلك الرجل تعرض للزجر، وأنه لن يحري بعدُ جواباً. فقلت له إننا في تازمامرت. وصورت له في بضع كلمات موقع المنطقة، وما كان ينتظرهم. ثم عاد الصمت ليخيم من جديد، فإذا كل واحد قد ركن إلى همومه وأحزانه.

وفي الصباح جاء الحراس كعادتهم، فقدموا لنا وجبة الفطور مع الخبز وإبريق الماء اليوميين، ثم انصرفوا من غير أن يعيروا انتباهاً إلى تلك المخلوقات البائسة التي كانت ترقد على الجانب الآخر، ترتعد من البرد، مجهدة، جائعة.

وفي وقت الضحى عادوا يحملون العدة التازمامرتية الكاملة : غطاءان عسكريان رثان باليان لكل واحد، وإبريق قاموا بملئه، وإناء وصحن من البلاستيك. ثم أغلقوا الباب واختفوا. وفي الزوال عادوا فقدموا للجميع الشربة المعهودة؛ تسبح فيها حبات حمص يتيمة.

كان الشهر دجنبر، وقد صرنا نكاد نسهو عن البومة التي كانت تأتي منذ بعض الوقت لتزورنا في كل مساء. وسرعان ما سنتنبه من غفلتنا وسنصطدم بحقيقة وضعيتنا ووضعية جيراننا الجدد. وعندما أفكر في هذا الفصل لا أتمالك نفسي من التفكير في قاسم، أحد رفاقنا في الضراء، وفي هذين البيتين للامارتين :



Twitter: @ketab_n

إنه يرن من بعيد في روحي الشفوقة
كخطى أليفة أو كصوت صديق

كان قاسم أصغرنا، وربما أعقلنا أيضاً. وكان له صوت مسموع بفضل روحه التضامنية وتضحية وتفان تبعث كلها على الاستغراب قياساً إلى سنه. وقد كان حديث التحاق بالجيش، بعد أن أتم تدريباً على السلاح، ولم يكن مضى عليه في الخدمة غير أسابيع معدودة أي أنه كان في وضعية المجند، لكنه كان يمتاز بشخصية قوية. فصار لازماً لنا ليس عنه غنى يوم أن شرعنا في درس القرآن، الذي كان عارفاً به بقدر عبد الله وبقدر الهدان، فكانت مساعدته لنا ثمينة على لملمة أجزاء السور. ثم صار ينوب عنهما في نقل السور القرآنية إلى القسم الخاص بنا من البناية، إذ كنا لا نستطيع سماع صوت عبد الله بوضوح من الطرف الآخر من المجاز. وكان قاسم يتولى كذلك التصحيح والتذكير عندما لا يعود في الإمكان أن نزعج بهما بقية الرفاق.

وكان إلى جانب القرآن يحفظ عدداً غير يسير من الأحاديث. لقد كان يمتلك كل ما كانت تحتاجه نفوسنا الظمأى لتتعلق بالأمل في عالم آخر أفضل من الواقع اليومي؛ فكان لذلك مكوناً أساسياً في حياة المجموعة. لولا أنه كان يألم كما يألم الآخرون، ويزيد عليهم آلام اللوزتين، التي كانت تنغص عليه حياته، والتي ظل يتكبدها سنين، بين اشتداد وانفراج، مع نوبات من الحمى وفترات


Twitter: @ketab_n

من الضعف الشديد كانت تعجزه أن يرتقي إبريقه ليتلو علينا من آيات الذكر.

فإذا امتلأت لوزتاه منعتاه من الأكل ومنعتاه حتى الشرب. فلا يقوى حينها على أن يسيغ شيئاً، وتستبد به آلام تظل لا تتركه حتى تعاوده. فلما عيل صبره قرر ذات يوم ومن غير أن يستشيرنا في الأمر، أن يستئصل اللوزتين.

وقد كان الحراس يعطوننا بين الفينة والأخرى ألواحاً من الصفيح لنجمع فيها الفضلات كلما كنسنا زنازننا. وكنا نهتبل الأمر فنقتطع منها قطعاً نجعل نشحذها؛ فلعلنا نحتاجها في يوم من الأيام. فقرر قاسم أن يستعمل واحدة من تلك الشفرات ليجري بها عمليته الجراحية. فقد اتخذ له منها شظية طويلة ودقيقة، أمضى نهارات طويلة يسنّها. فلما توسم أنها صارت جاهزة أدخل أصبعه في فمه وعينّ الزوائد التي كانت مصدر آلامه. فلما كان الليل وقد نام الجميع انتقل إلى العمل. فكنا نسمع له أنيناً كتيماً وحشرجات ترافقها قرقرة. فلم يهتم أحد منا للأمر؛ فقد كان ليل تازمامرت يمتلئ على الدوام بشتى أنواع الأصوات والأشباح والآلام. ثم إن أحداً لم يكن ليجرؤ على التعدي على وقت الراحة.

فلما كان الصباح لم ينهض قاسم لاستلام حصته من الماء والخبز. وما كان الحراس في ذلك الوقت يسمحون لأحد منا بالذهاب لمساعدة المرضى. فلما انصرفوا نادينا عليه، لكن دون جدوى. فتملكنا القلق، ولاسيما أننا كنا نسمعه يتنفس فتصدر



Twitter: @ketab_n

عنه حشرجة قوية. فماذا حدث أثناء الليل؟ وما مرت ثلاثة أيام حتى علمنا بالمصيبة. فقد ساءت حالته وتردت. فما عاد يقوى على الأكل أو يقوى على الشرب. وصار يهذي من فرط الحمى. ثم لم يلبث أن دخل في غيبوبة.

وقد كانت البومة جاءت قبل أيام من إجرائه تلك العملية وفية لموعدها. فاستغربنا لتلك الزيارة؛ إذ لم يكن بيننا من هو في حالة من المرض الشديد. أتراها أخطأت؟ وهل كانت زياراتها السابقة لا تعدو عن مصادفات؟ كلا. فما أخطأت. لقد كانت تنبؤاتها بحق مقدمة لوفاة ستخرس صوت قاسم أن يتردد في أرواحنا المعنّاة.

وانتبه الحراس إلى وفاته صباحاً، أثناء تقديم وجبة الفطور. وفي وقت الظهيرة أعلنت الطيور عن مجيئهم. ومن عجب أن جاء الحراس يحملون ماء لتغسيل الميت وكفناً!

لقد فجر موسى الماء من الحجر، وفجر الخوميني الخوف في قلوب جلادينا. فقد كانت تلك سنة الثورة الإسلامية في إيران، فكان لقاسم حق في كفن لائق، بل كان له الحق كذلك في بعض الأدعية المخزية من لدن الحراس وقت أن كانوا يحملونه في ذلك اليوم 19 من دجنبر 1979. لكنهم، مع تلك الثورة الإسلامية وبدونها، لم يخلوا بالقاعدة المعهودة في صب الجير الحامي على الجثة وتغطيتها بلوح الصفيح.

دعونا لروح رفيقنا، ورفعنا أصواتنا بتلاوة سور من القرآن. وإذا الأجنبي الذي كان كلمنا في المرة الأولى يسألنا ماذا يجري.


Twitter: @ketab_n

فشرحنا له الأمر، فصار يخوض في الحديث وإيانا على الرغم من اعتراضات أصدقائه عليه. وأخبرنا أنه وثلاثة من رفاقه مسلمون، وأن اسمه زكرياء، وأن الآخرين كلهم مسيحيون. لكنه امتنع أن يطلعنا على هويته أو يخبرنا بسبب وجوده وأصدقائه بيننا. فما عرفنا إلا أنهم سود وليسوا مغاربة. ومنذ ذلك اليوم صار المسلمون يبادلوننا الكلام، وأما الآخرون فقد ظلوا يلوذون بتوجسهم وريبتهم.

لكنهم إن كانوا قد ظلوا ممتنعين عن الكلام فلقد ألهمهم ذكاؤهم فعملوا بنصائحنا، خاصة في الليلة الأولى؛ فقد ظلوا يتمشون جميعاً، في ما عدا واحد منهم كان مريضاً. فتمدد فوق المرقد لا يقيه الإسمنتَ شيءٌ. وقد أخبَرنا زكرياء أن ذلك المرض أصابه قبل أن يحل بيننا، وأن أولئك الذين قاموا بنقله كانوا على بينة من حالته فلم يجودوا عليه، ولو لوحده، بما به يتغطى في تلك الليلة. وفي اليوم الذي بعد انتابه سعال؛ فكان سعالاً مخنوقاً، ثم صار يتفاقم عليه بتوالي الأيام، وصار أجش يحكي حشرجة بهيمة تنفق. وأغلب الظن أن أصدقاءه لم يتوجسوا من شيء، وأما نحن فقد كنا نراها رسالة واضحة. لقد كان قاسم يحتضر، وظلت البومة تواظب على زيارتها لنا كل مساء. وانقطع المريض عن الأكل وأصبح عاجزاً عن النهوض. ثم كانت وفاته وجرفه تيار تازمامرت.

وذات صباح نادى عليه الحراس فلم يحر جواباً. ثم فتحوا زنزانته ودخل أحدهم لبضع ثوان، ثم خرج وأغلق الباب. فأما نحن الذين كنا معتادين على هذا الأمر فقد وعينا بما حدث. وبعد الفطور أطرقنا مفكرين للحظة؛ هل يفترض بنا أن ندعو لسلام روحه. فبعضٌ رأوا


Twitter: @ketab_n

أن الميت مسيحي فليس علينا أن نتلو من دعاء، وبعض (وأنا في مقدمتهم) أكدنا على أن الله واحد وأن الروح بحاجة إلى دعاء، أياً تكن لغتها وأياً يكن دينها. وكان أن رجح رأينا. فشرعنا متعاطفين مع الفقيد نتلو جماعة سوراً من القرآن. وما هي إلا لحظات حتى نزل علينا الحراس فأخرجوا الجثة ملفوفة في غطائها وألقوا بها في حفرة بين موتانا.

وتوالت الشهور من غير أن يبدل ضيوفنا من مواقفهم نحونا. ثم سمعنا منهم امتناناً للدعاء الجماعي الذي ودعنا به صديقهم ودعونا إلى الانضمام إليهم في تسبيحة شكر، فقبلنا عن طيب خاطر. ثم توقفت علاقاتنا عندها، إلى يوم رحلوا. لقد رحلوا على حين غرة مثلما جاءوا، وتركوا وراءهم جثة كانت هي الغرامة الواجبة عليهم لتازمامرت. وأما ذلك الرجل الأسود، ذلك الأجنبي الذي يرقد بين موتانا، فقد بات جزءاً من ذاكرتنا.



Twitter: @ketab_n

من جملة رفاقنا التسعة الذين رُحلوا إلى البناية الأولى، هلك واحد؛ هو عبد السلام الرابحي. وأما الشاوي والرجالي والدغوغي فقد اغتنموا الوداعة التي نعِم بها القدر على تلك البناية فكُتبت لهم النجاة. وأما الخمسة الآخرون فقد عادوا ليصطلوا وإيانا بالجحيم فيلقوا حتفهم، ولا يفلت منهم غير عاشور.

لقد عادوا بُعيد وصول تعيس آخر إلى تازمامرت. وقد كان مقامه بها قصيراً كقصر حكايته.

في ذلك اليوم كانت البناية تنعم بالهدوء. فبعضٌ كان يسبح في أحلامه وبعضٌ يغرق في كوابيسه. ثم إذا الطيور تحدث بلبلة وضجيجاً. ثم نفخت جوقتها في الأبواق مؤذنة بزيارة مباغتة للحراس في تلك الساعة غير المعهودة. فاستبشرنا بالأمر؛ إذ كنا متعطشين إلى كل حدث، وكل مفاجأة - وإن لم تكن سارة -، وإلى كل ما من شأنه أن يخفف عنا رتابة المعتقل.

رنّت المفاتيح في الأقفال ثم اصطكت المزاليج، وبرز الحراس في البناية يتقدمون رجال الدرك الذين كانوا يسحبون شقياً سيئ الحظ قيدت يداه خلف ظهره وعصبت عيناه.



Twitter: @ketab_n

ذلك الرجل يسمى - كما سنعرف في ما بعد - الميلودي الصديق، وقد كان رقيباً أول في الحرس الملكي، وربما كان في لواء المظليين؛ فلم نعرف له انتساباً بعينه. غير أننا كنا موقنين أنه كان يقوم بالحراسة في القصر.

كان الصديق نفوراً متحرزاً، فأضرب عن أي اتصال وإيانا. وانكفأ على نفسه، وأقام من حوله سوراً من الصمت والتوجس. وقد كان الرجل - وذلك أمر نادر الحدوث في تازمامرت - لا يحدّث نفسه ولا يوجه أقل كلمة إلى الحراس، ويمتنع من الجواب إذا نادوا عليه. ولم يكن يغني أيضاً.

لم نكن نسمع له صوتاً إلا لمدة نصف ساعة؛ أثناء ما يكون يمارس تمارينه الرياضية. وكذلك كنا نميز ضجة غريبة ثقيلة كأنها لكيس يُسقطه أرضاً أو يقذفه بشدة ليصطدم بالحائط.

فأي جرم اقترف، وأي محرّم انتهك، ليُزج به في ذلك المعتقل البغيض؟ كان يلفه غموض كثيف. ولربما لم يكن يعرف بقضيته غير أولئك الأشخاص الذين أرسلوا به إلى ذلك المكان. وكذلك يعرف بها هو نفسه بطبيعة الحال، لكنه كان يعاند في الإضراب عن أي حديث.

وقد كانت الشائعات استبقت مجيئه، تتحدث عن نقله إلى تازمامرت. وظلت الشائعات ترافق لغز اعتقاله، وتزرع الرعب في مخيلة الناس. أليس الرعب قد كان هو مبتدأ تلك الحكاية الكريهة؟


Twitter: @ketab_n

سمعنا تلك الشائعات من أفواه الإخوة بوريكات، الذين التحقوا بنا بُعيد مجيء الصديق. وقد انثالت الافتراضات تشد بتلابيب بعضها. فمن قائل إن الرجل وقعت له مشاداة مع إحدى الأميرات أثناء ما كان يقوم بالحراسة عند مدخل القصر. ولربما يكون تطاول عليها بالسباب. وقائل إنه أطلق تهديدات بالقتل في حق الملك، وإنه تحدث عن دية كانت عند الملك لأهل الريف. لكن الظاهر أن ذلك الكلام لم يكن يعدو عن إشاعات. وأما الحقيقة فلم يكن يعرفها غير الصديق وغير خصومه.

استمرت عجلة الحياة في البناية الثانية في الدوران من غير أن يشارك فيها الميلودي. فما كنا ننتبه إلى وجوده إلا عندما يقبل على تمارينه الرياضية. إلى أن كان يوم خيم فيه الصمت على زنزانته. فما عدنا نسمع له صوتاً ولا عاد يقبل على رياضة؛ وانتفى الصديق من الوجود. فقلقنا عليه. لكن جهودنا للتحدث وإياه باءت بالفشل. فرجونا الحراس أن يتحروا عن حالته الصحية، لكن من دون طائل على الرغم من أنهم قد صاروا يومها إلى شيء من التساهل.

وذات يوم لم يكن علينا غير حارس واحد في الخدمة، فرجوته أن يتركني أنتقل إلى الزنزانة حيث يرقد جارنا المعاند، لأطمئن على حاله. وقد كان من حظي أن لقيت منه الاستجابة. فتوجهت إلى زنزانة رفيقنا. لبثت حيناً من زمن أتقرى الظلمة التي كانت تسود المكان لأميز الكتلة الجامدة المكومة فوق البلاطة. فقلت بصوت تعمدت أن يكون حازماً، لأظهر له أنني غير مستعد للاستسام : «السلام عليكم». فغمغم بكلام لا يبين. وكانت مفاجأتي كبيرة



Twitter: @ketab_n

أنني لم ألق منه مقاومة. بل إنني لمحت في عينيه البراقتين التائهتين المحملقتين فيَّ ما يشبه السكينة؛ أو كأنه رجاء. كمثل تلك النظرة التي يمكن أن نلاقيها ذات ليل شتوي في عيني طفل متخلى عنه. فتناولت إبريقه ومددت به إلى الحارس، فملأه. واقتربت منه بذلك الثقل الذي يقوم لدينا مقام الطعام. لكنه لبث ساكناً لا يأتي حركة. توجست أنه يشكو من شيء. فسألته :

- كيف حالك؟

صمت برهة. ثم همهم بصوت مضطرب :

- بخير، لكنك أنت لم تتناول وجبتك.

وبالفعل فقد سهوت في خضم تلك الأحداث، فلم أتناول طعامي. وبلغت الأريحية والسخاء بالحارس أن أوصد عليّ الغرفة مع مريضي. وأردت أن أكسب ثقته وأشعره بمزيد من الاطمئنان فأجبته بصوت تعمدت أن أجعله متقطعاً :

- سنتشارك غرفتك.

فتبسم وطأطأ رأسه قليلاً، ثم أطلق أنة خافته. فسألته :

- ماذا بك؟

- لاشيء.

ورأيت أنه يريد أن يخادعني. فدنوت منه وتجاسرت على أن أضع يدي على جبهته. فإذا هي ملتهبة. حدجته بنظرة قاسية وقلت له بصوت آمر :

- والآن، قل لي ماذا يسوؤك؟



Twitter: @ketab_n

فبدا أنه لم يتأثر لما قلت. فقد نظر إليّ بلطف، ثم قال لي :

- كلْ.

- موافق، فلنأكل معاً.

اقتربت منه، ومددت إليه بالإناء. فلم يأت حركة ليمسك به ودعاني أن أكون البادئ بالأكل، قائلاً :

- أما أنا فسآكل بعد حين. فليس بي الآن جوع.

وقد لاحظت منذ أن جئت إلى زنزانته أنه كان يحاول بشتى الوسائل أن يخفي شيئاً ما كان موضوعاً إلى جانبه، فوق البلاطة. وكان شديد الحرص عليه، فكان مثاراً لفضولي. فاقترحت عليه أن أساعده على النهوض، لكنه رفض بشدة. فما كان مني إلا أن هجمت على غطائه ورفعته. فلم يبد مقاومة، فما عادت قواه تسعفه عليها.

رأيت تحت الغطاء صُرّة كبيرة قد لُفت في خرق هي بقايا الثياب التي كان صاحبنا يرتديها حين مجيئه إلى تازمامرت. ودسست يدي داخلها، فأطلق صرخة رهيبة. وحانت مني قفزة إلى الوراء، وأنا أنظر إليه مذهولاً. المؤكد أنه تبين كل ما كانت تحبل به نظرتي من أسى. والمؤكد كذلك أنه قد أشفق عليّ أكثر مما كان يشفق على نفسه. ثم قال :

- إنها يدي، قد انكسرت حين كنت أمارس الرياضة، وهي تؤلمني كثيراً.


Twitter: @ketab_n

فسألته بصوت لم يكن بأفضل من صوته :

- هل يمكنني أن أراها؟

- نعم، لكن برفق.

فدنوت بحذر شديد، ورأيت ذراعه. فكنت مع كل حركة آتيها أنتزع منه شكاة حادة.

كنت كلما زدت في تعرية تلك الذراع تشد بخناقي رائحة لا تطاق، فكأنها رائحة الجيفة. ويعلم الله أننا اعتدنا على الروائح أشدها عطناً؛ رائحة العفن ورائحة الموت، لكن تلك الرائحة قد فاقتها جميعاً. وتملكتني رغبة حادة في التقيؤ، لكنني كنت مكباً بوجهي على المسكين الميلودي. فلم يكن لي بد من أن أتمالك نفسي فلا أفصح عن شيء. وفجأة بدت لي تلك الذراع التي تأكلتها الغنغرينة هائلة مائلة إلى الزرقة ومتقيحة. لقد زاد حجمها ثلاثة أضعاف.

كنت إخالني أدركت الصلابة، وما عاد يهزني شيء أو أتأثر لشيء في تازمامرت. فقد رأيت الموت وأحسسته ولامسته، لكنني في تلك المرة انهزمت وأنهرت انهياراً. أحسستني ضئيلاً وعاجزاً وأعزل أمام ذلك المشهد، إلى حد بدت لي آلامي وأحزاني شيئاً تافهاً. فتحولت بحزني نحو «القادر على كل شيء»، وتوجهت إليه بهذا الدعاء :

- ربي، خفف عنه آلامه، وهبه الخلاص.



Twitter: @ketab_n

نعم، لقد كنت أرجو وفاته، ولو كنت أمتلك القدرة، لفعلت كما يفعل السود في لويزيانا، ولتناولت سكْسيتي ونفيري، وصرت أرافق جنازته.

جعلنا نذهب عنده تباعاً لنغيثه ونصحبه إلى نهايته. لقد كان يمارس الرياضة ويتهالك بنفسه على الحائط ثم يستمسك بيديه. تلك هي الضجة المصمة التي كنا نسمعها. إلى أن كان يوم أخطأ التقدير، فكانت المأساة. ولربما كان يمكنه، لو أسعِف في أوانه، وربما لو كان قدمت إليه بعض المسكنات، وربما... وربما... وربما... وربما لم يكن فعل شيئاً، ربما...!

بعد وفاة الرجل المتوحد في ربيع 1980 عاد الرفاق المنفيون من البناية الثانية، أو على الأقل أولئك منهم الذين شاءت لهم لعنة القدر أن يعودوا إلى البناية الأولى.



Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

لم تكد تمضي بضعة أشهر على وفاة الصديق، وعودة رفاقي المرحلين إلى البناية الثانية، يوم أن حل بيننا الضيوف السود، حتى أصابني المرض. وكان مبتدؤه بتوعك هين ينتابني في مقدم الليل فتنمِل أصابعي قليلاً لبضع دقائق، ثم ينفك عنها التنمل. كان هذا الأمر يحدث لي مرة واحدة في الأسبوع، أو تزيد، فلم أكن لأقلق فوق المعتاد، وكنت أفكر أنه سيكون ألماً عابراً كغيره كثير من الآلام. ولكم كنت مخطئاً! فبتوالي الأسابيع، بل بتوالي الشهور، صارت الوعكات عليّ إلى اشتداد وتواتر. صرت أترقبها فتُستعلن عشية مجيئها بحلم يظل يتكرر علي الدوام؛ أراني فيه أشرب الكوكا كولا. ويكون ذلك النذير صحيحاً لا يخطئ. وكانت تستبق تلك الأزمة علامة أخرى؛ فأرى عضوي وقد بدأ يتضاءل إلى أن يختفي فإذا مددت إليه يدي ولم أجد له أثراً كانت تلك فاتحة عذابي. فالألم يبتدئني من أصبعين؛ السبابة والوسطى. ثم يقفز إلى الإبهام. ويمتد في الأخير إلى البنصر ثم الخنصر. فإذا تم له اكتساح اليد اليمنى هاجم اليسرى. فتتشنج أصابعي وتتصلب فكأنها قطع من خشب ويتجه كل منها في اتجاه. فلا يعود لي عليها من سلطان.



Twitter: @ketab_n

فإذا لمست وجهي شعرت كأني ألمسه بغصن جاف. ثم تنمل اليد كلها، وتصير مشلولة لا تقوى على حراك. فلاإحساس ولاانفعال. وحتى لا يعود لها بي من نسب. فأفكر أن تلك هي ولاشك حال الأغصان الميتة في الأشجار. ويتصاعد الألم بطول الذراع. ويجعل أثناء ذلك يكتسحني ألم جارف ماكر. فهو يبتدئني من القسم المصاب ويندفع اندفاعات على إيقاع وجيب القلب. ثم يشتد ليصير في الأخير مسترسلاً ليس فيه انقطاع.

ثم صارت الأزمات علي في تواتر. فهي تنتابني في كل ليلة فتشل جسدي كله حتى لا يتأبى منه غير رأسي، وحتى أصير لا أزيد عن كبة من ألم.

وعندما وعيت بخطورة حالتي قررت أن أتدبر الأمر. فقد صرت يومها خبيراً بذلك القبر، وأعرف أن أسوأ أعدائي لم يكن المرض نفسه فما كان يخيفني، ولا الموت أيضاً؛ إذ صرت والموت متآلفين. لقد بات أيسر علينا في تلك الأوضاع أن نموت من أن نعيش. وأجبنَ أيضاً. فما كان ينبغي لي أن أستكين وأمتنع من القتال. فوطنت نفسي على أن أقاوم.

صرت إذا استشعرت حدوث الأزمة أول ما أبادر إليه أن أندس تحت أغطيتي، وأتخذ لي وضعة مريحة وآمنة، لأطمئن إلى أنني إذا استولى عليَّ الشلل لن أخاطر بالتعري والبقاء معرضاً للبرد طوال الليل، فسيكون فيه هلاكي.


Twitter: @ketab_n

فإذا اتخذت لي وضعة مناسبة جعلت أنتظر متوجساً أن يتفاقم الألم. فإذا هو يصير يتصاعد بلاهوادة، ثم يكتسح هيكلي الممدد على الجنب، كبهيمة تحت أنياب صائدها، تؤمل في لحظة الموت لتخلصها من الألم ومن الرعب ومن الأهوال.

كان الشلل يكتسحني جرياً على طقس ثابت لا يتغيرك؛ فأنا حينها أتبعه كأني أسلك سبيلاً غابوية ماهدة. فقد كان يستوطن جسدي كأنه معشوقة نزقة غضوبة، مطمئنة إلى سلطانها على عشيقها العاجز. ثم يصحبه الألم، فإذا هو عنيد وعنيف، لا يفتأ في اشتداد إلى أن يصير شيئاً لا يطاق. وحتى يصير جسدي لا يزيد عن ذلك الألم الرهيب الذي يأتيه من حيث لا أحتسب. ولا يسلم منه غير رأسي. فالموضع بين العنق إلى قمة الجمجمة يكون كأنه الأرض الخلاء لا يطرقها ألم أو شلل. وإذا حواسي الأربع الأخرى قد زادت عشرة أضعاف، وتملكني وعي جارف وتنبّه قاس قهار. تكون رأسي صاحية. فأنا أستوعب كل ما يتنفس ويعتمل ويتحرك ويعيش داخل زنزانتي وفي البناية وحتى في ما يتعداها. وأسمع أنفاس رفاقي النائمين، أولئك الذين يكون نومهم هادئاً وديعاً وأولئك المهتاجين المضطربين. وحتى لأكاد أتحسس أحلامهم وكوابيسهم وأسمع الريح تئن وهي تحتك بالحيطان الجرداء لذلك المعتقل الذي بات كأنه مأوى للمحتضرين، وأسمع شكاة الحيوانات المرهقة ببرد الشتاء. ثم تشتد بي دوامة العذاب، وتبلغ بي الأزمة ذروتها، فأحس بنفَس كاسح يصعد إلى السماء، فكأنما هي تنهيدة تطلقها الطبيعة بجماع ما فيها. كنت أسميها نفَس الليل. في تلك اللحظة تبلغ بي



Twitter: @ketab_n

الأزمة مداها والألم ذروتَه. ثم ينبعث الأمل بعد لأي... فأكون بلغت القمة وأنا أسحب صليبي، ولن يكون هنالك بعد ما هو أسوأ. ثم تبدأ رحلة العودة. فكلما اقترب طلوع النهار صار الألم يخف عني لكن ببطء ماحق ثقيل. ثم إذا بي أسمع المؤذن من بعيد ينادي إلى صلاة الفجر، فكأنما هو دعوة للخلاص. ويأخذ جسمي في الارتخاء رويداً رويداً، فأجعل أقاوم بشدة لأسحب يدي مليمتراً بعد مليمترٍ إلى فمي، وتلك تكون تكلفة الخلاص. فيقتضيني ساعتين أو ثلاثاً لأقطع بيدي السنتيمترات الثلاثة أو الأربعة التي تفصلها عن فمي. فصرت قبل أن تعاجلني الأزمة، إذا اتخذت تلك الوضعة، أحرص على جعل يدي أقرب ما في الإمكان إلى فمي لأسده بها. ثم يكون عليّ بعد ذلك أن أختار الأصبع الأنسب للعملية، وأحاول جهدي أن أراه مهما اقتضتني المحاولة، إذ كنت لا أشعر به، فكنت من غير أن أتحول عن وضعتي، أجعل أقوم بما يشبه التمرين الرياضي لأوسع لي زاوية كافية للرؤية. فإذا تمكنت من تحديد تلك الزائدة المخلِّصة جعلت أحاول أن أميل برأسي ليسهل عليّ أن أدخل أصبعي في فمي. ثم أجعل أدفع عنقي بكل ما أوتيت من قوة، لأدلق لساني بطول تلك القطعة الخشبية الصلبة الباردة الخشنة، إلى أن تتشنج معدتي. فإذا تحقق لي ذلك الأمر عرفت أن المعركة انتهت، وأنني صرت في نهاية عذابي. فكنت أحافظ على وضعتي وأظل أدفع فتتوالى التشنجات وتصير حركاتي أيسر وأسهل، ويصير بمقدوري حينها أن أدخل أصبعي في جوف حنجرتي حتى أتقيأ؛ فيصعد من جوفي دفقٌ من الصفراء، ويندفع كطفح بركان عارم تفيض به أحشاء



Twitter: @ketab_n

الأرض، ويملأ فمي بسائل ساخن شديد المرورة. وتحضرني حينها تلك العبارة التهديدية نقولها للشخص نتوعده بأسوإ العذابات : «سأجعلك تتجرع الصفراء». فقد خبرت صحتها؛ لأنني ظللت أشرب الصفراء طوال شهور ويوماً في أثر يوم.

فإذا أفرغت بطني من كل ما كان فيها من تلك المجاجات الماحقة، تبدد عني الألم والشلل فلا أعود أشعر بغير تعب كاسح وفراغ هائل. وبعد أن كان فكري تحرر طوال ساعات من قيود الجسد إذا هو يعود فينسكب في رحابة الوعي؛ يحكي نهراً قد فاض عن مهده، ليسير في النهاية يشق له سبيلاً في مجرى الحياة الطبيعي.

كنت أجتهد لأمنع نفسي من الصراخ تحت وطأة الألم. فماذا كان ينفعني أن أجأر بالشكاة؟ ما كان لينفعني بشيء؛ فمن تراه يسمعني من رفاقي في المعتقل؟ لقد كانوا على قدر سوء حالي، ولن أعدو إلا أن أنغص عليهم منامهم، لا بصراخي، بل بشعور العجز الذي سيتملكهم لحالي.

في ذلك الوقت صار الحراس إلى شيء من تجاسر وتأنُّس؛ فهم يسمحون لنا بمساعدة بعضنا. وعندما جاء صديقي الداودي لزيارتي صباحاً ألفاني قد انفرغت فصرت كالأجوف، وبت منهكاً أعجز عن النهوض. كنت عرقان من أخمصي إلى ذؤابتي طي أغطيتي المبلولة هي الأخرى. فجاءني الداودي بمائي وطعامي وأعانني على تناول قليل من القهوة. وقال إنه كان يسمع لي أنيناً طوال الليل.



Twitter: @ketab_n

كان الرقيب أول باغازي هو بدون شك أشرس الحراس، لكنه كان كذلك أقلهم خوفاً. وقد اتفق أن كان في ذلك اليوم يقوم بالخدمة. وفي ذلك الوقت كان أحد رفاقنا نزلاء البناية الأولى، هو المقدم الطويل، يحظى برخصة استثنائية للتجول في الساحة، فأفلح في إقناع باغازي بأن يسلم بعض النقود إلى عاشور، المنتسب وإياه إلى قبيلة واحدة. فقبل الحارس. فإذا كان لوحده في الخدمة جعل بين الفينة والأخرى يشتري له بعض الأدوية. وقد كان سائر من في البناية على بينة من هذا الأمر لكن لم يكن أحد يتوقع الحصول على شيء من هذا الشخص.

وذات صباح استطالت بي الأزمة فوق المعتاد، وكان باغازي شاهداً عليها. والحقيقة أنه تأثر لذلك المشهد. ففي المساء وأثناء ما كان يقدم إليّ الأكل، سلمني لوحاً به أقراص لا أعرف نوع المرض الذي جعلت له. فقد كان يأتي بالأدوية كما اتفق... فأنى له أن يعرف احتياجاتنا؟ على أن كل ما كان يأتينا من الأدوية كان نافعاً لأجسادنا النخرة. فما هم؛ لقد جاءني باغازي بهدية. ومن عجب أنه اختلس ذلك الدواء من الطرد الموجه إلى عاشور. وقد كان يعرف أنه يراقب حركاته وسكناته، فقال بصوت مرتفع :

- تناول هذه الأقراص، يا بنبين، وادع الله أن يشفيك!

فقد وجه تحذيراً إلى صاحبه : «لو اعترضت، فسأعاقبك». فتحاشى عاشور أن يحتج في حينه، لكنه الآخرين سمعوه وهو يسب ويرغي ويزبد طوال المساء. حتى إذا عاد إلى هدوئه قال لي :



Twitter: @ketab_n

- بنبين، هل حصلت على الأدوية التي أرسلتها إليك؟

ولو كان سألني في الأوقات العادية لأجبته : «نعم، شكراً». وأما في تلك اللحظة فلم يكن يروق لي أن أصطنع الشهامة، فمنذ أسابيع وأنا على شفا الهلاك، وقد كان يحصل على الأدوية من غير أن يجود عليّ بشيء منها؛ مع أنه شيء لم يكن له أن ينقذي. وها إنه بعد ذلك يطلب مني شيئاً من العرفان الزائف.

تناولت تلك الأقراص؛ فقد كنت في حالة من وقف التنفيذ فما عاد لها أن تسوءني بأي حال. كنت أحتضر. الأزمات تزداد عليَّ تواتراً واستطالة واشتداداً. فما عاد لي من مهرب.

وذات ليلة بلغت بي الأزمة فوق اشتدادها المعتاد، فقد عاجلتني باكراً جداً، ثم صارت عليّ في اشتداد، إلى أن بلغت الذروة. لقد بات جسمي ورأسي منفصلين عن بعضهما لا يلحم بينهما شيء. كنت متنبهاً بشكل مريع. لقد انفصلت كلياً عن جسدي، فأنا أتفرج على نهايتي؛ لأنني كنت بالفعل أسير إلى النهاية. واشتد خفقان قلبي حتى ليوشك يحتدم احتداماً، واشتد وجيبه حتى ليكاد ينسيني ما كنت فيه من ألم. وفجأة إذا قوة عجيبة تجذبه بشدة كدت لها يُغشى عليّ. ثم ترخيه بالقدر نفسه من القوة. ولو أني كنت حينها واقفاً فمن المحقق أني كنت سأنقلب على قفاي من هول الصدمة. وإن هي إلا برهة حتى عاودتني الحالة نفسها. فإذا قوة تجذبني وتجذب. وكان القلب يقاوم. كنت على وشك لرحيل. فقبل أن أخلد إلى النوم كل مساء أتوضأ وأصلي. لقد كنت في



Twitter: @ketab_n

وئام مع ربي، وفي سلام مع نفسي. لا أفكر في شيء. أنظر إلى ما يجري من حولي، وإن لم يعد يعنيني في شيء.

في ذلك المساء أبى القلب إلا أن يقاوم، على الرغم من الهجومات المتواصلة يشنها عليه ذلك الشيء الذي يصر إصرارا على أن ينتزعه من قفصه. حتى إذا تعب الموت أخذ في الابتعاد. فكنت أتصوره حزيناً يكاد يتميز من الغيظ. لم يُكتب لي أني سأرحل في تلك الليلة؛ فلم تنبئ برحلتي إشارةٌ من الإشارات المنذرة، ولا كانت البومة في الموعد. وإذا حلمي الأول الذي اتفق لي في تازمامرت قد صار إلى تحقق. حقاً إنني بقيت مندفناً، لكنني كنت لا أزال حياً أرزق. وبعد تلك الليلة صارت الأزمات إلى خفوت وتباعد، إلى أن اختفت فما عاد لها وجود. وعندما خرجت من المعتقل اكتشف الأطباء أن مرارتي قد «انتخرت»، حسبما قالوا؛ فقد جفت بفعل ما تراكم فيها من الحصى. وكان في جفافها ما أنقذ حياتي.


Twitter: @ketab_n

تحضرني شخصية تتخلل أعمال دوستويفسكي جميعاً، وتظهر واضحة في روايته «الغبي». فلطالما بهرني ذلك الشخص المدعو لبيديف، إذ يمثل في نظري الجانب المظلم القاتم في الروح الروسية. وقد عرفت في تازمامرت لبيديف آخر؛ أي ذلك الوعي الأسود القاتم، الأشد نقمة، والأشد تعقيداً في الشعب المغربي، وفي معتقلنا بوجه خاص.

ذلك هو الرقيب أول عاشور. وقد كان الرجل تجند في صفوف الجيش الفرنسي؛ فكان فيه من الكوم. ثم وجد نفسه بمحض الصدفة بين الجنود المعينين تحت قيادة اعبابو، الذي رأى فيه مرشحاً مثالياً لما كان يرسم من مخططات. فأدخله في عصابته المعلومة. وقد سعى عاشور ليعوض عن افتقاره إلى التعلم، فاعتمد مبدأ غاية في البساطة وقديماً قدم العالم؛ ألا وهو النميمة. فكان شعاره : «نشوف نكول وحتى إلى ما شفتش نكول». فكان نماماً واشياً وجاسوساً خبيراً. ولكم كانت صفات ثمينة؛ فسرعان ما صار بها عاشور عينيّ العقيد اللتين يرى بهما وأذنيه اللتين يسمع بهما. بيد أنه عانى كثيراً من عقا؛ إذ كان يحسده على الموقع المفضل الذي تبوأه لدى المعلم


Twitter: @ketab_n

كما كان يروق لهما أن يسميا القائد. لقد عقا هو عدوه اللدود؛ إذ كان يعرف أن كلامه لا يساوي شيئاً أمام كلام منافسه. فقرر أن يعمل بالمثل الشعبي الذي كان يكثر من ترديده : «اليد اللي ما نقدر نقطعها نبوسها!».

كان عاشور ينزل في الزنزانة المجاورة لزنزانة إدريس الدغوغي القائمة قبالة زنزانتي تماماً. ولم تكن لي معرفة بإدريس، ولا كانت لي معرفة بعاشور، جاريّ المقابلين. لكن سيرتهما، بالإضافة إلى سيرة بندورو، كانت تحتم عليٍّ الاستماتة في المقاومة. وقد شاء الله أن يكون إدريس رجلاً شهماً. فقد كان لسلوكه فضل كبير على الآخرين وفضل في نجاتهم. فقد اضطلع بمسؤولياته، وانبرى يروض نفسه؛ فكان لذلك الترويض فضل في إنقاذه، كما كان له (والله يعلم) إسهام خارق في شفائه.

لقد كان أفضلَ وسيلة ليخرج من نفسه، ويفكر في الآخرين ويقدم إليهم يد المساعدة. فالسعي في حل مشكلات الآخرين يجعلنا نسلو عن مشكلاتنا، ويعلمنا أن ننسّب الأمور ونمضي إلى جوهر الأشياء.

وأما عاشور فقد كان بخلاف ذلك تماماً. فما كان يفكر إلا في نفسه،ولا كان يعيش إلا لأجل نفسه.وقد كان يراقب الجميع.والويل لمن سولت له نفسه أن يكلم حارساً! فأنت تراه يتحرق إلى معرفة ما دار بينهما من حديث، وهل جرؤ الحارس أن يعطي السجين شيئاً. كلا، وألف لا! فلو عنّ لحارس أن يقدم معروفاً إلى أحد المعتقلين


Twitter: @ketab_n

فينبغي أن يكون عاشور هو المخصوص بذلك المعروف، وإلا وشى به. ولم يكن يتوانى عن الإفصاح عن نيته إلى الحراس أنفسهم. فكان بطبيعة الحال يثنيهم عن تقديم المساعدة إلى أي واحد منا.

كان هذا السلوك يغضب عدداً كبيراً من رفاقنا ويعذبهم. فما كانوا يستطيعون أن يستوعبوا كيف يمكن لإنسان أن يفضل لو يموت الجميع، لا يستثني منهم حتى نفسه، بدلاً من أن يترك لآخرَ أن يحصل على مساعدة. وكيف غاب عنه أن الحراس إذا قبلوا بتقديم المساعدة إلى واحد منا، فسيؤول بهم المطاف إلى أن يقدموا المساعدة إلينا جميعاً؟ لقد كان عاشور حسوداً. والحسد فضلاً عن كونه إثماً هو أيضاً مرض يصيب صاحبه، وعذاب عظيم وعزلة كاسحة. فإذا زدنا إليها عند صاحبنا جرعة من الأمية وعقداً متراكمة بسبب وجوده في أحط دركات السلم الاجتماعي، حصلنا على ذلك الخليط من النيتروغليسيرين والصفراء.

لقد كان يعذب الآخرين، لكن تعذيبه لنفسه أشد وأعظم. فما كان يملك الكلمات ليفصح عنه، ولا كان يملك الوسائل ليفهمه. فما وسعه إلا أن يترجمه عنه في عدوانية انتحارية.

وقد كنت له السند الوحيد؛ فما كان أحد ليرضى بأن يكلمه وأحرى أن يقدم له المساعدة. ومع ذلك فلربما كنت أكثر شخص يكرهه. فما أكثر ما باغتته وهو يتجسس عليّ، ليحكي للحراس ما تزين له نفسه أن يختلق من ترهات. لكن شاء الله أن يجعل أرواحنا واضحة شفافة، فكان الحراس أنفسهم قادرين على أن يقرأوها كما


Twitter: @ketab_n

يقرأون في كتاب. فقد كانوا يعرفوننا جميعاً وبزيادة، بحيث لم يكونوا لينخدعوا بما يروج لهم عنا شخص مثل عاشور.

وكان صاحبنا، على الرغم من تلك العيوب لديه، ماكراً يعرف أين تكون مصلحته ولا يخطئها. فلم يكن يغيب عنه أنني كنت سبيله الوحيدة إلى الخلاص، وأنه بدوني وبدون الدغوغي سيتردى لامحالة في عزلة قاتلة. فكان يتظاهر أمامي بأنه يقبل ببعض التسويات بيننا. وما كان إلا يمالئني ظهيراً، فإذا استدرت طعنني في الظهر. كان يعرف أنني لست غبياً، وأنني كنت أعرف بطبيعته لكنه كان يعرف كذلك أنني لم أكن لأخذله. وكان يمتص ما أحكي له من قصص، ولا يتوانى عن سؤالي في الختام أن أشرح له الأمور التي غابت عنه فيها، أو التي لم يفهمها جيداً. وأما التلقين الجماعي للقرآن فقد كان يتعذر عليه الثلث اليومي الذي نحفظ من الآيات. فكنت أشتري صمته أثناء الدرس بأن أعيده عليه بعد الانتهاء. بيد أن ذاكرته لم تكن تقوى على استيعاب ثُمن السورة، وحتى لا تكاد تستوعب آية أو اثنتين حسب الطول. فقد كان يحفظ كل كلمة فيها بتفكيكها إلى حروف فلا يفلح، فكان ينزعج ويتذمر فيطلق عقيرته بالسباب، ويصرفني بلامراعاة. ثم لا يلبث أن يدعوني بعد هنيهة، ومن غير أن يعتذر لي، ويعود إلى مواصلة الدرس. فكنت أقبل بمعاكساته، وتقلبات مزاجه ونزواته؛ فقد كنت أتصور ما يمكن لإنسان بدون ثقافة، وبدون تعلم، وبدون خيال وبإيمان ضعيف، أن تكون معاناته في غيابة زنزانة معتمة، وحيداً في مواجهة شروره وهواجسه.



Twitter: @ketab_n

فإذا انتهى الدرس شكرني، ليس صراحة؛ بل يوجه إليَّ بعض الكلمات الرقيقة، أو التي يفترض أن تكون كذلك، لكنه يعجز أن يفصح عن كلمة شكر. فإذا فاه بها فمن غير أن يفقه معناها. فما كان يعرف ما هو العرفان ولا الامتنان.

وعندما حل بيننا أولئك الأفارقة، تم ترحيله إلى البناية الأولى حيث نعم بأيام أهنأ وأرغد. فقد كان يفيد فيها من الأدوية التي كانت تدخل في السر، وكان يقوم فيها بالابتزاز بالقوة. وبعد أشهر عاد إلينا وقد استعاد عافيته، يرافقه بندورو وحايفي. وقد كانت الأجواء في البناية تبدلت عن ذي قبلُ؛ فإذا الشقاق قد عرف سبيله إلينا، بعد أن زادت صحتنا اعتلالاً، ونال الضعف من ذاكرتنا ومن عزيمتنا وصبرنا. ثم جعل عاشور يسهب في الحديث عن النعم التي تغمر البناية الأخرى، ويحكي لنا عن الامتيازات التي كان يتمتع بها العقيد الطويل بفضل استماتة زوجته الأمريكية، التي لم تترك وسيلة إلا ركبتها في الولايات المتحدة من أجل الحصول لزوجها على معاملة خاصة كان فيها إنقاذ لحياته. وقد كان الطويل وعاشور من قبيلة واحدة ومن قرية واحدة؛ فكان عاشور يتذرع بهذا الأمر ليزعم أنه والطويل ابنا عمومة، فيكون له الحق في ما يحصل عليه الآخر. وقد عرفت في ما بعد أن الطويل كان يحاول جهده أن يكون عادلاً مع رفاقه، فكان يوزع عليهم بالعدل جزءاً مما كان يحصل عليه عدا أن تلك الأشياء كانت تخضع لمراقبة الحراس.

وإذا سُمح للطويل بالخروج إلى الفناء كان يهتبل الفراغ الذي يتركه تناوب الحراس، فيأتي ليحيينا من خلال باب البناية. وحتى


Twitter: @ketab_n

لقد أفلح، بتواطؤ من أحد الحراس، في أن يدس لنا بعض الأقراص لأجل... لا يهم! كانت أدوية سحرية تداوي كل داء. ثم صرنا على اقتناع بهذا الأمر، حتى بات عندنا شيئاً في باب الإمكان. وهو أمر خبرته بنفسي.

والواقع أن الطويل لم يكن لعاشور بابن عمومة. فما كان لهما ببعضهما من نسب، وما تعرفا على بعضهما إلا وهما في تازمامرت وإن يكونا من قبيلة واحدة. بيد أن عاشور، كان كمثل بعض المتعلمين لا يزال يعيش على شيء من الروح القبيلة يجره على الدوام إلى ماضوية مشؤومة وإلى تزمت وتعصب غريبين مضحكين.

كان الطويل نعمة على البناية التي كان فيها نزيلاً. فقد وضعه القدر في تازمامرت لتتحقق على يديه النجاة من الموت للكثيرين. كذلك كان الأمر عند نزلاء البناية الأولى، وعندنا نحن أيضاً بصورة غير مباشرة. ولئن لم نستفد مباشرة من امتيازاته فإننا نعمنا بنتائجها. لقد بعثت الأمل في نفوس الكثيرين، وكان بوجه خاص سبباً في التغير الذي وقع في سلوك الحراس؛ فصاروا إلى شيء من الرأفة. وقد كان السبب بسيطاً؛ يتلخص في تلك الجملة التي التقطتُها ذات يوم من فيه أحدهم :

- يا له من عار! يُنقذ البعض لأنهم متزوجون من أمريكيات ويُقتل الآخرون لأنهم متزوجون من مغربيات. فاليوم قد صار من الأفضل للمرء ألا يكون مغربياً!



Twitter: @ketab_n

لا تزال هذه الجملة ترن في مسمعي؛ لأنها تكشف عن الأزمة العميقة التي يتخبط فيها العالم الثالث. فأولئك الذين يزعمون أنهم يناضلون في سبيل حقوق الإنسان يفترض بهم أن يبدأوا بالنضال من أجل تحقيق الكرامة للإنسان وتحقيق الاحترام لشخصه. فبفضل الوضعية التي كانت للطويل، وبفضل تلك الرجفة الخافتة من الشعور الوطني التي تحركت في نفوس الحراس، كانت الضريبة المفروضة علينا في سنوات الثمانينيات أخف في الأرواح.

وأما عاشور فقد كان يخفي من وراء حماسه لأن يكون السباق بيننا إلى الكلام مع «ابن عمومته» خوفاً مرضياً من أن يبدي الطويل تعاطفاً نحو أحدنا، وأن يبالغ بكرمه فيرسل إليه، ومن يدري بشيء عن طريق الحراس. فكنا بعد كل زيارة يقوم بها الطويل نسمع صاحبنا يذرع زنزانته بخطى واسعة حانقة، وهو يدمدم بكلام غير مفهوم. فقد كان ذلك الأمر يصيبه بتكدر شديد. فكان يسعى في استذكار كل ثانية، وترجيع كل كلمة قيلت، وكل ضجة مريبة. ويجمح به خياله فيختلق ركاما من السيناريوهات غير المتناسقة، ثم لا يلبث أن يرجع عليها فيمحوها في لمح البصر. أو يتوقف لحظة، فيصيخ السمع إلى الضجات الصادرة عن البناية. ثم يعاود الانصراف وهو أشد حنقاً مما كان. وفجأة، ومن غير سبب واضح، كان يعود إلى هدوئه، فيناديني بصوت رقيق يوحي بالود. فلا يساورني شك أنني أكون في تلك اللحظات صديقه حقاً، وأنه يكون صادقاً في ما يقول. وما يكون حينها إلا يحتاج أن يسألني شيئاً. فربما تذكر أن في الحديث الذي دار بيننا والطويل فقرة قد سها



Twitter: @ketab_n

عنها، أو خبراً لم يسمعه، أو مجرد تلميح كان يرغب في الحصول له على توضيح. والواقع أن الضغط عليه كان شديداً، حتى إنه لم يجد مخرجاً إلا الهروب؛ فلا يقع في الجنون. فكان يتحدث إلى الشخص الوحيد الذي يحتمل أن يوليه شيئاً من شفقة. وقد كان يعرف أنني سأحكي له أي شيء، لكن ما كان ليصدقني ولو قلت له الحقيقة. فكنت أحكي له ما يحب أن يسمع. لقد كنت أشعره بالاطمئنان. حقاً إنه كان يجعلنا تعساء بيد أنه كان يفوقنا تعاسة. وما كنت أستطيع أن أخذله. لقد كان صليبي الذي أحمله.

كان الإخوة بوريكات هم ألد أعدائه. فقد كان يؤاخذهم بكونهم من المدنيين، فلم يكن يرى لهم مكاناً في سجن عسكري وكأنما كان يمكن للجحيم أن يميز بين نزلائه. فلافرق بين مدني وعسكري، ويهودي ومسيحي ومسلم، وغني وفقير، وأبيض وأسود فقلوبنا وأفعالنا هي التي تقودنا إلى حيث نستحق أن نكون. وكان يؤاخذهم بالتكلم باستمرار بالفرنسية، هو الذي كان لا يفقه شيئاً في هذه اللغة، وأنهم لم يكونوا لطفاء وإياه وأنهم لم يكونوا يعيرونه من اهتمام. ثم إنه قد كان يبغضهم لأنه كان يروق له أن يبغضهم.

وذات يوم خيّل إليه أن بايزيد بوريكات قد تحدث إلى أحد الحراس، وتهيأ له، في سورة هذيانه، أن حديثهما قد دار عليه، ولربما يكون الحارس دس لبايزيد شيئاً. وذلك أمر لم يكن عاشور ليطيقه. فكان أن اغتنم يوماً، كان فيه أحد الجنود - وليس هو بأرقهم - لوحده في الخدمة، وقد ارتضى أن يترك أبواب الزنازن مفتوحة ليسمح لنا بتنشق الهواء. فوثب خارج زنزانته، وهجم على بايزيد



Twitter: @ketab_n

المسكين، المقعد إلى الأرض، أشبه المشلول، وانهال عليه بالضرب. ولم ينفع المسكينَ إخوته بشيء، إذ كانوا مثله في أسوإ حال. وعقدت ألسنتنا الدهشة؛ فلم يسبق لنا أن شهدنا مثيلاً لذلك الحادث في تازمامرت؛ أن يتعرض المعتقل للاعتداء الجسماني! لقد كان شيئاً جللاً. فمن ذا الذي بين نزلاء المعتقل كان لا يزال يمتلك القوة ليقدم على مثل تلك البدعة؟ ومن ذا الذي كان يمتلك الشجاعة ليزهد في نفحة من الهواء النقي؟ ومن ذا الذي يمكن أن يبلغ به الجنون إلى أن يتجاسر على رفع يده في وجه محتضر؟ كان الجواب يتلخص في كلمة واحدة: عاشور.

لقد كان أقلنا انضراراً من الناحية الجسمانية؛ وإن يكن أكبرنا سناً. ولربما كان ذلك هو السبب الذي زين له أنه يسود على الحيوانات المرضى بالطاعون.

كنا قلقين بشأن رد فعل الحارس، فلسوف يكلفنا هذا الأمر الضرائب الفادحة. لكن وقعت المفاجأة، وجاءت على قدر شذوذ تلك الواقعة. فقد كان الحارس زميلاً سابقاً لعاشور، وله به معرفة طويلة. فلم يكن يبخل عليه بشيء من الاهتمام. لكن صور له جنونه أن الرجل قد يتستر عنه. بل زين إليه ما هو أسوأ؛ أن يعمد إلى إغلاق أبواب الزنازن بصفة نهائية، فيحرم المعتقلين نفحة الهواء ويحرمهم التحدث إلى بعضهم. فينتهي العذاب الذي كان يجده من عجزه أن يراقب كل شيء من عتبة زنزانته. واستولى الغضب على الحارس الذي أسدى إلينا تلك الخدمة الجليلة، وخاطر بنفسه من أجلنا فلقي شر جزاء. ومع ذلك فالرجل قد أمضى سنين طوالاً


Twitter: @ketab_n

إلى جانبنا وكان عارفاً بدخيلة كل واحد منا. وقد كانت الرياح في تلك الفترة تسير في الاتجاه المواتي؛ إذ بدأت الشائعات تروج عن احتمال الإفراج عنا. وبدأ الحديث يدور في الخارج، خاصة في البلاد الأجنبية، عن المعتقل. فخف عنا ما كنا نلقى من سوء المعاملة.

تفكر الحارس قليلاً، ثم توجه في هدوء إلى عاشور، وأمره بالعودة إلى زنزانته، وأحكم إيصادها من ورائه. ثم غادر البناية، من غير أن يكلمنا بشيء، وأحكم إغلاق الباب، وانصرف تاركاً أبواب زنازننا مفتوحة. وقد كان يمكن لذلك الفعل منه أن يكون عقاباً عادلاً وطبيعياً في حق أي واحد منا، وأما عاشور فما كان أقساه عليه من عقاب! وما كان أشده من حكم ينزله به ذلك الحارس الأمي! وقد ظل باغازي يتلذذ بإطالة تلك المحنة عليه ويمعن فيها. وواتاه أن يكون الحراس خلال الأيام التي بعدُ في إجازة. فكانت تلك أسوأ الأوقات التي مرت على عاشور طوال فترة اعتقاله. لقد خلق لنفسه أعداء ألداء من الإخوة بوريكات، كما خلق له عدواً في شخص باغازي إذ رأى ذلك الحارس أن صاحبنا قد استغل طيبوبته ليورطه في ما لا تُحمد عقباه.

وظل الحارس لا يكلم عاشوراً إلى أن كان الإفراج عنا. وكظم الإخوة بوريكات غيظهم، لكنهم ظلوا يبحثون بكل الوسائل عن سبيل للانتقام لأخيهم.


Twitter: @ketab_n

كأننا بالبناية الثانية كانت تريد هي الأخرى أن تنتقم لنفسها من أولئك الذين تركوها ولو إلى حين. فلم يمض علينا وقت يسير حتى نزلت بنا خسارة فادحة؛ إذ فقدنا أستاذنا عبد الله الفراوي الفقيه ابن الفقيه، الذي كان يحفظ القرآن عن ظهر قلب، ووطن نفسه على أن يلقنه لنا. لقد كانت نعمة ملأت علينا قسماً من وقتنا وأتاحت لنا أن نثقف أنفسنا، ونهرب من أنفسنا أيضاً. ثم لقي الفراوي الجزاء السيئ بما أسدى إلينا من خدمات؛ إذ كان ضحية للمذياع الوحيد الذي أمكن لنا أن نحصل عليه. فقد تمكنا من ذلك المذياع بفضل التقصير الذي كان من رجال الدرك، يوم أن فتشوا بوشعيب سكيبا فلم يتنبهوا إلى الخاتم الذهبي الذي كان في أصبعه؛ وأمكن لذلك الخاتم أن يمر بأعجوبة بعمليات التفتيش المتكررة والماسحة التي لم يكن منها مهربٌ لكل سجين. وندين بذلك المذياع كذلك إلى الجشع الذي كان يتملك الإنسان فيدفعه إلى التغلب على مخاوفه المتأصلة فيه.

كانت تأتي على الحراس بين الفينة والأخرى سورات من الحزن؛ فإذا موجة الروح المعنّاة من فرط الحسرة والندم تدفعهم



Twitter: @ketab_n

إلى البحث عن أذن مواسية لتخفف عنهم ما يكابدون من عذاب الضمير. وما كانوا يجرؤون على البوح بما في دخائلهم إلى زملائهم خشية أن يغتابوهم، فكانوا يرتدون إلينا ويجدون بغيتهم في صمتنا. وكانوا يجدون ضالتهم عامة في المعتقل الذي يبدو لهم شديد التكتم. وقد كان سكيباً واحداً من هؤلاء المعتقلين الكتومين.

ففي ذلك اليوم تقرب العريف أول، الذي لم نكن نعرف له اسماً من رفيقنا، وكان من أسوإ الحراس وأشرسهم. فقد كان مخوفاً من الجميع، لأنه كان، كما يقال، واشياً لدى القائد. فكان أن جاء ليتسمر أمام باب زنزانة سكيبا، وجعل يحكي له ما يلاقي في يومه من عنت. وفجأة إذا هو يرمق في الظلمة التي تغشى الزنزانة الخاتم الذي كان يلتمع في أصبعه. فقال له :

- عجباً، إنه خاتم، كيف حصلت عليه؟

فاندفع سكيبا إلى الفتحة التي جعلها الحارس في باب زنزانته وصاح به :

- كما ترى، فالله قد خلصه من طمع جلادينا ليصل إليك.

- كيف إليَّ؟ ماذا تعني؟

فواصل سكيبا كلامه :

- ببساطة، سأعطيك إياه لتبيعه وتأتيني بنصف المال. إنني أثق بك، فإذا كان الله قد سخرك لتحصل عليه، فلأنه يعلم أنك رجل خيّر، وأنك تخشاه.

فصاح الحارس :



Twitter: @ketab_n

- كلا، كلا! لا أستطيع أن أفعل! فماذا سيحل بي لو انكشف أمري؟ سيقتلونني. وفوق ذلك فإذا لم يكن بحوزتك وصلٌ فلربما اتُّهمت باللصوصية.

فأدرك سكيبا أن الرجل إن كان يخشى مغبة ذلك الفعل فلأنه قد كان يدور في خلده أن يأخذ ذلك الخاتم. واغتبط رفيقنا للأمر فقد كان يبحث منذ وقت غير يسير عن وسيلة للتخلص من تلك الحلية. فقد كان في بادئ الأمر سعيداً أن خلص شيئاً من ماله. وشيئاً فشيئاً بدأ الخاتم يصير له وصمة عار؛ فقد أصبح مسبة لبؤسه وللأهوال التي يحفل بها ذلك المكان، كما وأنه قد كان يربطه بخارج المعتقل ويصله بالحياة، وبالآمال المجهضة، ويكون له مصدر ندم وحسرة. فما أكثر ما فكر أن يلقي به في المرحاض، أو في القمامة لكنه كان لا يلبث أن يعدل عن قراره.

وها إنه قد وجد الفرصة مواتية ليضرب عصفورين بحجر واحد : أن يتخلص من ذلك الشيء الذي يذكره بماضيه ويفتح للبناية نافذة على العالم.

فأخذ رفيقنا يزايد على بضاعته؛ إذ قال للحارس :

- لست في حاجة لأن تبيعه، فخذه، إنني أهديك إياه!

- وماذا تطلب مقابلاً له؟

- لاشيء، إلا بركة الله.

- غير ممكن، إنك تعطيني إياه، وأنت لا تملك شيئاً.



Twitter: @ketab_n

كان متحيراً في طمعه؛ فلم يستطع أن يفهم ذلك الوضع غير المعقول : أشحاذ يعطي صدقة! فبدر منه حينها فعل تلقائي، ومن أغوار لاوعيه انبجس نور من بركة الله، حسب العبارة التي ظل سكيبا طوال حديثهما يرجعها على مسامعه.

- موافق، سآخذه، لكن ينبغي لي أنا أيضاً، أن آتيك بشيء.

فرد سكيبا بصوت هادئ يصطنع اللامبالاة :

- إن أبسط شيء وأسهل شيء سيكون مذياعاً صغيراً.

فإذا الحارس يصرخ كمن لسعته عقرب :

- ماذا! أنت مجنون! هل تريد لي الموت؟ أم تريد أن أجيء لأتعفن إلى جوارك؟

- طيب، لا بأس!

- هاك، خذ خاتمك، فلا حاجة بي إليه.

- كلا، والله، لقد أعطيتك إياه، فهو لك، ولا أريد عنه مقابلاً.

وعاد بوشعيب إلى زنزانته، وتركه متسمراً هناك. فجعل الرجل يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، لا يعرف ما يفعل. وفجأة صفّق الباب بشدة وتحقق من إغلاق الزنازن الأخرى، وانصرف يتميز حنقاً وحيرة.

مرت أسابيع وشهور دون أن يبدر من الحارس ما يدل على أنه لا يزال على قيد الحياة. وتخلص بوشعيب من حلية أصبحت تثقل على سكينته، وقذف بها في الوقت نفسه بذرةً في قلب الحارس كأنما يلقي بها في صحراء قاحلة ماحلة. فلربما تجود السماء بالمطر يوماً فتنبت تلك البذرة. فالله على كل شيء قدير.



Twitter: @ketab_n

وهمى المطر على قلب العريف أول، فأطلعت البذرة مذياعاً جاء يحمله ذات يوم لم يكن معه في الخدمة غير المساعد أول فريح. كان في غاية التوتر، يأتي حركات سريعة خاطفة، ولا يكف عن التذمر. فلما جاء زنزانة بوشعيب انهال عليه بسيل من السباب. فاقترب بوشعيب من باب الزنزانة، يلجمه الذهول. وإذا العريف أول يخرج من جيبه خفية شيئاً ويدسه بين يديه، ثم أغلق باب الزنزانة ومضى يكمل عمله.

لولا أن العريف أول قد أفرط في التحوط لإخفاء ما فعل فلم يلبث في الأخير أن أثار الشك في نفس المساعد أول، الذي كان يترصده، فلم يلبث أن اكتشف دسيسته. غير أنه لم يجرؤ أن يبادر بشيء. فقد كان يعرف أنه سيُجعل في مواجهة مرؤوسه. وقد كان يمكن لهذا الأخير أن يتهمه بالجرم الذي هو مقترفه؛ فهو يحظى بثقة القائد؛ فيمكن أن يتنصل من تلك التهمة ويلصقها به. ولذلك لزم الصمت. لكن إلى حين. فلما كان دوره الموالي في الخدمة إذا هو يخطئ الزنزانة المقصودة، ويتوجه رأساً إلى الفراوي متهماً إياه باستلام شيء من زميله. ثم قام بتفتيش زنزانته وقلبها رأساً على عقب فما وجد شيئاً. واستبد به الحنق، فلم يتورع أن ينزل بالفراوي عقوبته المفضلة. فقد حرمه الماء والطعام أياماً عديدة والفصل صيف. ومنع الجميع أن يسعفوه بجرعة ماء. وقد كان لهذه الواقعة ضربة قاصمة على صحة رفيقنا التي كانت قد ساءت كثيراً فكانت تأتي عليه نونبات من السعال ترافقها حمى ظل يصطلي بها سنين. ثم كان أن نُقل إلى البناية الأخرى عند مجيء السود



Twitter: @ketab_n

فعاد منها أشد اعتلالاً. لم ألبث بعيد ذلك أن حلمت بالكسكس. فإذا الفراوي قد بات يحتضر. فكان بصوته الواهن يطلب ماء وهو لا يستطيع حراكاً. ولم تجد توسلاتنا إلى المساعد أول؛ فقد ظل يمنعنا من إسعافه. وكان من المنتظر أن يذهب الحراس في عطلة وأبقيَ على اثنين منهم تحسباً لموت الفراوي، فكأنها عقوبة أنزلت بهما. فجعلا يتلكأن في الخدمة إلى أن رحل المساعد أول، وإذا أحدهما يقول لصاحبه:

- اعطه قليلاً من الماء، عساه يسلم الروح!

وكذلك كان. فقد صعدت روح عبد الله الفراوي عند باريها وذهب الحارسان في عطلة ذات يوم جميل من ربيع سنة 1983.

صار سكيبا من هذه المغامرة وقد اشتدت حساسيته وتفاقمت فرفض أن يحتفظ بالمذياع المنحوس. وصار منطوياً على نفسه، يمضي سحابة يومه في الصلاة وممارسة اليوغا، أو «التحدث إلى الطبيعة» كما كان يقول. لقد كان نهماً إلى الثقافة، ينصت شغوفاً إلى الروايات التي كنت أقصها عليه، ويتابع بانتباه دروسي في الفلسفة (في المستوى المعقول الذي كان لي)، وينصرف بأكبر اهتمامه إلى الدروس الدينية.

كان معظم رفاقي في الاعتقال على معرفة قليلة أو كثيرة بالمعتقدات الأخرى. وقد كنا نجد متعة كبيرة في الاجتهاد لفهم تلك المعتقدات، ونجد متعة أكبر في محاولة المقارنة بينها والإسلام. وكنا نخوض بعد ذلك في نقاشات ساخنة وجدالات محتدمة، لكن



Twitter: @ketab_n

لم تكن تخرج بنا قط إلى الخصومة؛ وإن كانت المجادلة تطول بنا أحياناً في بعض السفاسف والترهات. فكان سكيبا يصيخ السمع متنبهاً يمتص ما يهمه امتصاصاً، ولا يبدي من اعتراض. لقد كان أول من دعا المعتقلين إلى تعاطي اليوغا. ولم تكن لنا بها معرفة كثيرة ثم صار كل واحد منا يضيف إليها من عنده. وشرعنا نتعاطى هذه الرياضة بطريقتنا، ونتشارك انطباعاتنا فيها. وتميز سكيبا في غير اليوغا أيضاً، بانفصاله عن العالم، بما تزين له الحكايات المستوحاة من الديانة الهندوسية. وكذلك قام بمبادرات كثيرة ليمد لنفسه جسوراً للتواصل من داخل زنزانته مع ما كان يدعوه «الكون» ومعناه عندي «الكائن العالمي». وكان يكثر من تعذيب جسده، ليصير له عليه مطلق السلطان. تراه أفلح؟ لا أملك أن أجزم بجواب، لكن بوسع صاحبنا أن يجيب، فهو لا يزال على قيد الحياة.

وقد حانت على بوشعيب سورة من ذلك التجرد والانفصال عن الأشياء، فقرر أن يتنازل لنا عن المذياع. وإنه لأمر عجيب يتعذر عن الاستيعاب في تازمامرت، وفي بنايتنا بوجه خاص. فمن تراه سيكون السعيد الذي سيقع عليه الاختيار؟ وقررنا أن نصوت جهاراً، بأن يعلن الواحد منا اسم الشخص الذي يختار. وقد كان شرف افتتاح الانتخاب يعود إلى بوشعيب، فوقع اختياره عليّ. ولاحاجة بعد ذلك إلى التكهن بالنتيجة. فقد حصلت على تلك العلبة السحرية بأغلبية ساحقة. وكان الالتزام يقتضيني ألا أنصت إلى غير الأخبار وأن أقوم بنقلها إلى الآخرين. وقد كنا اتخذنا لنا لغة مرموزة صرفنا سنين في إعدادها وإحكامها.



Twitter: @ketab_n

وذات مساء كنت أنصت إلى الأخبار تبثها الإذاعة الوطنية فإذا المذيع يسرد أسماء الأشخاص الذين حصلوا على وسام الاستحقاق، وسمعت بينها اسم أمي، وقد كانت يومها مفتشة في المالية. ولم يكن لي الحق في التعلق بمثل تلك الانفعالات. وما همني إلا أن تكون أمي حية ترزق؛ فهنيئاً لها. ولم يكن بد لفكري أن يعود إلى زنزانته، التي هي عالمي.

لكن المذياع لم يعمر طويلاً؛ فقد انقضت بطاريته ولم نستطع أن نبدلها بأخرى. انتهت الفسحة. وعادت البومة لتأخذ مكان المذياع. لكن بأي أنباء؟ كانت أنباء تتعلق بمحمد عبد الصادقي الملقب بمنولو. وكان هو الآخر عاد من البناية الأولى. وما أسعفه الوقت ليغتنم حسناتها، ثم لم يلبث أن وقع مريضاً.

كان منولو محارباً قديماً من أصل ريفي، قد أدى خدمته في أنحاء البلاد، وجاب الجزائر في زمن الحماية، وعمل في أنحاء من إسبانيا وزاول حرفاً عديدة، قبل أن ينتهي به المطاف في صفوف الجيش؛ فشارك في الحرب الأهلية. وكان كسائر أولئك الذين أفنوا زهرة العمر في القتال يعرف متى يظهر فرحه ومتى يكظم دموعه. ويعرف كيف يواجه اللحظات الصعبة. وأما الذكرى الواضحة الجلية التي أحفظها له فتعود بي إلى تلك الليلة حين نادى علينا وهو يجهش بالبكاء ليقول إنه يحس بالبرد. قال إنه كان يحس أشبه بإبر تخترق أطرافه، فلا يتمالك نفسه من البكاء. فهالني الأمر؛ فما كنت أعرف أن البرد قد يُبكي المرء. وها إن هذا الرجل الصلب الذي زاول أصعب المهن، وحارب في إسبانيا وخبر محناً ومشاق



Twitter: @ketab_n

أخرى، لا يتمالك نفسه من البكاء كطفل متخلى عنه لأنه يحس بالبرد. وما بكى أمام المرض، ولا بكى أمام الموت الذي واجهه بكرامة، كفعل الجميع في تازمامرت، بل كان بكاؤه من البرد.

ثم كان أن تملك منولو ضعف شديد، فأخذ يقيئ دماً. أغلب الظن أن يكون نزيفاً داخلياً، لكن في أي درجة من الخطورة؟ أنى لنا أن نعرف. ثم صارت حالته تزداد سوءاً بمرور الوقت. واشتد عليه القيء، فصار يقذف دماً ضارباً إلى السواد، تنبعث منه رائحة كريهة. وصار الحراس لا يقدرون أن يفتحوا عليه زنزانة من فرط تلك الرائحة النتنة. فنادوا على واحد منا ليقدم إليه حصته من الماء والطعام. فاهتبلنا الفرصة لنقدم إليه المساعدة. وفي المساء الأخير شاء القدر أن يأتي دور لمين ليمضي الليلة مع منولو ويسعفه في لحظاته الأخيرة وهو لا يعرف أن موت رفيقه سيجره ليقذف به في أسوإ المتاهات.

كان رشيد ولداً لطيفاً، ذلق اللسان، لاشك أنه قد نعم بطفولة مدللة. فكان وجوده داخل الجيش مبعث استغراب لي على الدوام. فقد كنت أتصوره في متجر للأقمشة أكثر مما على دروب القتال. لكن بذلك قضت الأقدار! وقد كان صاحبنا في رتبة المساعد أول، وكان مسؤولاً عن المراقبة الجوية في قاعدة القنيطرة وقائداً على الأبنوسي والدغوغي. لم يكن يتحمل الانزواء، ويزعم أنه لم يكن ينام قط وما هو بالأمر الصحيح كله. فقد كان ينعس فنسخر منه إذا زعم أنه لم يغمض له جفن. وكفعلنا مع رفاق آخرين كانوا يزعمون أنهم لا ينامون، كنا ننادي عليه أحياناً أثناء ما نكون نروي حكاية أو نخوض في محادثة، فلا يجيب. فالواضح أنه يكون حينها مستسلماً للنوم.


Twitter: @ketab_n

حتى إذا انتهينا من تلك الحكاية أو تلك المحادثة كان يفلح في أن يعيدها علينا بالتمام والكمال. وما كان رشيد يسلو عن الزنزانة إلا متى خاض في الحديث. ثم ضعفت قدرته على الإنصات إلى أبعد الحدود. وكان يجد في صمت الليل محنة وأي محنة. وما أن تعلن طيور الدوري عن مجيء الحراس حتى ينادي لمين على أحدنا ويأخذ، أشبه بالغريق، يخرج رأسه من الماء ويشرع في الكلام. فصار أشبه بطقس صباحي؛ فالراغبون في الحديث كانوا ينتظرون أن يفتتح لهم رشيد محفل الكلام. لقد كانت معاناته المعنوية والنفسية تفوق بكثير ما كنا نجد منهما. وكان نقص النوم يزيد في مضاعفة وجوده داخل الزنزانة وأما نحن فقد كنا نقتطع ساعات النوم من مدة العقوبة. وكان يألم كذلك أنه لا يستطيع أن يفضي إلينا بكل ما في دخيلته من كلام فقد كانت لنا فترات من الصمت الإجباري في ما عدا الليل عندما تكون البناية تنصت مجتمعة إلى حكاية، أو أثناء دروس القرآن أو دروس اللغات، أو في غيرها من الأنشطة التي تنظمها المجموعة. ثم تكالبت عليه تلك التوترات فتأكلت فيه كل نسغ للحياة. فقد صار يحس بجنبه الأيمن يزداد عليه ثقلاً ويجد مشقة في تحريك أطرافه. ثم لم يجد بداً من طلب عصا يتوكأ عليها ليستطيع الوقوف. وكان الحراس قد صاروا يومذاك أكثر مرونة. فقد كانوا على دراية بالحالة التي تردينا إليها من الضعف، ويعرفون أننا لم يعد بمستطاعنا أن نقوم بأي عمل أخرق. ولو سولت لنا أنفسنا أن نركب ذلك الجنون فإن الواحد منهم كان كفيلاً بأن يقضي على جميع من بقي منا أحياء.



Twitter: @ketab_n

ويومها منحونا امتياز أن نقدم المساعدة إلى المرضى من رفاقنا وأذنوا لرشيد في تقديم المساعدة إلى منولو، وإن لم يكن بأفضل منه حالاً، إذ صار يومها هو الأخر على شفا الموت. وكانت العلامات المنذرة قد اجتمعت منذ عدة أيام؛ البومة والأحلام المنذرة. لكن لم يكن بيننا من جرؤ على التصريح بها مخافة أن يبث اليأس في نفس المحتضر. ثم فاحت الرائحة، فلم تترك شكاً في نهاية وشيكة فإن هي إلا ساعات على أكبر تقدير. لم يعد منولو يقوى على النهوض. وقد كان الرقيب أول بنغازي في الخدمة ذلك المساء فأوكل إلى رشيد جاره، أن يبقى إلى جانبه في تلك الليلة. وهذا أمر نادر الحدوث. فلم يكن بوسع لمين أن يرفض تقديم المساعدة لا تقعده عنها حالته الصحية. وذهب ليمضي الليلة بمعية منولو. وجده يجثم فوق الدكة وهو أشبه بالفاقد وعيه. فقد كان يعاني نزفاً داخلياً؛ فلا يفتأ يتقيأ دماً فيتجمد فوق وجهه وعنقه وأسماله. فإذا رائحة مغثية قد صارت تطغى على النتانة الثقيلة للزنازن والكائنات التي تعيش فيها. فلما انحنى رشيد على المريض ليقيمه ويسنده تملكه غثيان شديد حتى أوشك يقيئ ما في معدته لفرط كراهة الأوخام التي كانت تطلع من فيه رفيقه. ومع ذلك فالله يعلم أننا كنا قد تعودنا الروائح أشدها كراهة! وتغلب لمين على غثيانه، وأفلح بعد لأي في إسناد المريض. ثم قعد عند أسفل الدكة التي كان يفترشها المريض؛ فلربما أمكنه أن يسعفه بشيء. وفي منتصف الليل استيقظ بوقع صوت أجش أشبه بشخير مخنوق. أعقبته حشرجة حادة. فلم يسعفه الوقت لينهض لاستطلاع الأمر. كان منولو يرتجف ارتجافاً، فكأن أيد خفية



Twitter: @ketab_n

تخنقه. واشتدت عليه تلك الارتجافات حتى أطاحت به من فوق دكته. فسقط على وجهه فوق لمين، فشله عن الحركة، وتجمد بهول المفاجأة والخوف والتقزز من ذلك الحمل الذي كاد يخنقه ويسحقه وتلك الرائحة؛ رائحة الموت التي كانت تكتسحه وتنفذ إلى مسام جلده كلها. وود لو يهرب، أو يفقد وعيه ود لو يموت، فلا يسعفه دماغه ولا جسده. وكان الدم يغشى وجهه وعينيه وأذنيه. فكان يسد فاه حتى لا يبتلع ذلك الموت السائل. وود لو يقيىء؛ رغبةٌ تملكت عليه كيانه كله، وكأن على ذلك القيء تتوقف حياته كلها ولاشيء. فواقات تصعد من معدته، فتتوقف في حنجرته؛ فلا هي تصعد ولا هي تنزل. واستجمع تفكيره، وبجماع كيانه حاول أن يحرك ذراعيه، ويدفع عنه ذلك العبء الذي يصر على أن يجره معه إلى مهاوي الاحتضار. فكان يدفع بكل ما بقي في أطرافه المريضة من قوة، ويدفع بجماع كيانه. كان يتضرع إلى الله ويدفع وينادي على أمه ويدفع، ويفكر في زوجته ويدفع، ويفكر في أطفاله ويدفع ويتوسل العون من أخيه ويدفع، ويستجمع كل الغضب المتراكم في نفسه من تلك الأعوام التسعة التي قضاها في تازمامرت ويدفع، ويتوسل الموت ويدفع. سيزيف منسحقاً تحت ثقل صخرته. ولاجبل. ليس غير تلك الصخرة اللعينة التي تخني بثقلها على ما بقي فيه من أنفاس.

وعلى تلك الحال أمضى قسطاً كبيراً من الليل وهو يرزح تحت تلك الجثة. وكانت ليلة استطالت به إلى ما لانهاية؛ كانت ليلة قدره. فلما جاء الحراس صباحاً وجدوا رشيداً أشبه بالميت. وهب



Twitter: @ketab_n

الرفاق إليه ينتشلونه من الموت وهو لا يكاد يعي شيئاً، ثم أعادوه إلى زنزانته. فلبث لعدة أيام جامداً لا يقوى على الكلام، وقد شل القسم الأيمن من جسده، فكان يجرجر خطاه ويتلعثم بالكلام. لقد بات يومذاك يجرجر ثقل تلك الجثة، لم تفارقه حتى القبر. ظل يجرجرها طوال سنتين، قبل أن يلقي بها في سنة 1984، ويلقي معها بجسده في أتون الجير الحامي الأكال.


Twitter: @ketab_n

أحدث مجيء الإخوة بوريكات في سنة 1981 انقلاباً في حياة البناية. إنهم شخصيات جذابة؛ بل مبعث للجاذبية والخوف معاً. كانوا متشابهين أصواتاً، لكن مختلفين طبائع وأمزجة. فعلي أصغرهم، كان بمثابة العقل للمجموعة، وربما كان العقل المدبر للأسرة أيضاً؛ تميزه شخصية قوية وموهبة محققة في إخفاء هيمنته على المجموعة. وقد كان من شأن تلك المواهب التي اجتمعت له أن تجعل منه سياسياً فذاً أو موجهاً خفياً. وكان بارعاً في الحساب والتوجيه، وهما أمران لم ينشأ عليهما بل اكتسبهما غير متعمد في مختلف الأوساط التي تدرج فيها. وقد كان يباشر شؤونه وكأن حياته تتوقف عليها؛ فكأنه على أهبة القتال، وكذلك أن أخويه اللذين يكبرانه.

كان مدحت بقدر دهاء عليٍّ، وإن لم يكن له توقد ذهنه. وقد كان يتحاشى المواجهات المباشرة، ليس عن خجل أو جبن، بل هو طبعه الذي جبل عليه. وأما بايزيد فما أكثر ما وجدتني أتساءل عن سبب وجوده بيننا. فلم تكن له حدة الذهن ولا المزاج اللذان يميزان أخويه، بل كان كتاجر بورجوازي صغير يحيا حياة هادئة، لاهم له



Twitter: @ketab_n

إلا الإثراء. وقد كان الإخوة ثلاثتهم محبين للمال والمتع، وأكبر حبهم للأطعمة الشهية؛ ميول ورثوها من وضعهم الاجتماعي، أو قُلِ ورثوها من الوضع الاجتماعي لأسرتهم. فقد كانت أمهم من بنَات عمومة الملك محمد الخامس، وكان أبوهم ضابطاً في الشرطة الفرنسية على عهد الحماية. وقد كان الرجل حاملاً للجنسية التونسية ثم اكتسب الجنسية الفرنسية وبعدها الجنسية المغربية. ثم كان أن نادى عليه الملك لتكوين النواة الأولى للمصالح الخاصة في المغرب وهو يومذاك حديث عهد بالاستقلال. فهذا أتاح لبوريكات أن يعيشوا داخل القصر، وأتاح لبعضهم أن يعيشوا في محيط الأمراء.

كان عليٌّ هو بلاجدال الأكثر تقرباً بين إخوته إلى الأسرة الملكية، لأنه كان المفضل عند والديه.

وأما القضية التي جاءت بالإخوة بوريكات إلى تازمامرت وقادتهم قبل ذلك إلى أماكن سرية كثيرة، فقد كانت على صلة وثيقة بالمال ودسائس القصر. وهي أمور تحدثوا فيها هم أنفسهم في الكتب التي أصدروها عند خروجهم من المعتقل.

فلما نزلوا في تازمامرت صاروا يسخِّرون مواهبهم ليؤمنوا لأنفسهم البقاء. فسرعان ما وعوا بالقواعد الأولية للعيش في البناية الثانية، فاندمجوا في المجموعة وانصاعوا إلى الخط الذي وضع قبلهم ليعيشوا ويموتوا وسط المجموعة. ووعوا بمختلف أمزجة وطباع شركائهم في المعتقل، فكانوا يلائمون سلوكهم مع كل معتقل. وأكثر ما تميزوا بذلك الدم الجديد الذي صاروا يضخونه في رتابة المعتقل.



Twitter: @ketab_n

فقد جاءوا وفي جعبتهم حكايات جديدة : موت العقيد محمد اعبابو والقبطان الشلاط وعقا ومزيريغ، الذين تعرضوا للتصفية بعد محاولة فرار شارك فيها الإخوة بوريكات أنفسهم. ولا يبعد أن تكون هي السبب الذي وضعهم بين ظهرانينا. لقد نقلونا إلى عالم الأعمال والسياسة والسلطة الذي كان إلى ذلك الحين شيئاً غامضاً ملتبساً في أفهامنا. فقد كانت لهم معرفة بعدد من الأشخاص النافذين فذلك أتاح لهم أن يحيطوا معرفة بما كان يحاك من دسائس ويُعقد من تحالفات، ومكن لهم أن ينفذوا إلى الدواليب والخفايا الإدارية. فكانوا يجوسون بنا خلال دهاليز الدولة يحكون قناصين خبيرين بمصيدهم الأثير. وكانوا يزخرفون حكاياهم من الطرائف والمستملحات عن الأشخاص والأشياء والإدارات. فإذا هم قد صاروا بفضل ما جمعوا من أسرار وأقاويل عن الحياة الحضرية كأنهم ذاكرة للمجتمع المغربي. ولقد عرفنا منهم أموراً كثيرة؛ بعضها حقيقي وبعضها نسبي في حقيقته. لكن ما هم! فكل شيء يصلح أن نأخذ منه في تازمامرت.

كانت باريس مهوى فؤاد علي ومدحت بوريكات. فقد كانا يعرفان المدينة؛ شوارعها ومقاطعاتها ومقاهيها ومطاعمها وعلبها الليلية وحاناتها ومواخيرها ومسارحها ودور السينما فيها. فقد عاشا سنين عديدة في عاصمة العالم؛ فكانت أحب شيء إلى قلبيهما. وبالغا في هيامهما بها حتى أورثانا منه قدراً غير يسير. فكنا نسير قفْو خطاهما نتسكع سحابة يومنا في شوارع تلك المدينة التي صارت لنا كأنها بابل؛ نهيم بالمتاجر والمآثر ونحط الرحال في مقهى من مقاهيها


Twitter: @ketab_n

الشهيرة لنُصيب شراباً منعشاً، ثم نواصل المسير متنقلين من فتنة إلى فتنة ومن لقية إلى لقية. وقد ينفرط حبل ذلك السحر فجأة بخلاف ينشب بين الأخوين حول موضع متجر من المتاجر أو مقهى من المقاهي؛ ثم نعود إلى مواصلة ذلك التطواف بعد تسوية يرضخ لها الأخوان تحت إلحاح منا وتوسل.

وقد كانت لي بطبيعة الحال أمور أؤثرها في تلك المدينة؛ وأنى لي ألا أفعل! فقد كنت أحب الجلوس إلى مقهى صغير في شارع سان ميشيل، أو أقتعد أي دكة تتفق لي في شارع سان جرمان وأتفرج على المارة وأحلم بالحرية، فتتنبه عندي شياطين قديمة ظلت تسكنني من وقت كنت أراني مخرجاً سينمائياً أو كاتباً، ومن وقت كنت أحلم بالخلود.

ثم انتهى بنا المطاف إلى أن صرنا نعرف (وأنا أزيد قليلاً على الآخرين) شوارع باريس كمعرفة الإخوة بوريكات بها. وكان بين رفاقنا من يفوقونني إعجاباً بشغف الإخوة بوريكات بالأطعمة. فقد كنت تسمعهم يخوضون في نقاشات طويلة حول مختلف الأطعمة الفرنسية والمغربية والتونسية. والأطباق الراقية والحلويات التركية هي الرابطة الوحيدة التي كانت لا تزال تصل الإخوة بوريكات بأرض أجدادهم. فكانوا يمضون الساعات الطوال يقلبون الحديث في المآكل. وما كانوا بالشرهين إلى الأكل فحسب، بل كانوا طباخين ماهرين، وكانوا لا يترددون في التكرم علينا بما يعرفون.



Twitter: @ketab_n

أمضى الإخوة بوريكات بين ظهرانينا عشر سنين. وإنه لزمن طويل، فأتى على مخزونهم من الأحلام والأوهام، وباتوا مجبرين على مقاومة اليأس والضجر. ثم صارت ذاكراتهم تتآكل رويداً رويداً والصبر والتجلد يضعفان والنزاعات تنشب لأتفه الأسباب بين الإخوة ومعهم. فقد صار بايزيد يتشبث بالدين بكل قواه، فيما أخواه يبدوان متسامحين، وإن كانا لا يتورعان عن إعلان كفرهما. لكنه اختلاف لم يكن يثير من مشكلات؛ فقد كان الواحد منا يحترم قناعات الآخرين. لقد كانت عندنا مسألة الإيمان هناك كما كانت على الدوام : مسألة شخصية تماماً.

ثم أثرت ظروف العيش في المعتقل على صحتهم. وكان بايزيد أول المعتلين. فما عاد يقوى على المشي، وسرعان ما أدركه الوهن فصار يرجع في نفسه مونولوغات لا نستبين لها معنى. وقد تأتي عليه لحظات من صفاء الذهن فيكلم أخويه بكل وضوح. وقد يتفق له أحياناً أن يلتقط نتفاً من الأحاديث الدائرة، فإذا هو يدلي بدلوه في النقاش وكأن شيئاً لم يكن. لقد كان لقرب أخويه منه وعطفهما عليه ما جنبه الانحدار إلى الجنون. ثم كان أن أدرك الوهن بعد ذلك مدحت هو الآخر. فصار يعجز عن المشي. ثم فعل كمثل أخيه إذ جعل فرشه بإزاء الباب ليستطيع أن يتلقى حصته من الطعام وكذلك يزحف إلى المرحاض. وكان علي يعتني بأخويه، فيقوم على شؤونهما ويغسل لهما الثياب و«الأواني»، لكن لم يكن له أن يطمئن إلى ذلك التساهل من الحراس؛ فقد كان بوسعهم أن يغيروا رأيهم في أي وقت فيمنعوه من التردد على أخويه. وبلغ الأمر مداه


Twitter: @ketab_n

بالاعتداء الذي كان من عاشور على بايزيد وهو على تلك الحال من الشلل الذي كان يقعده أرضاً. فلقد تملكهم حقد أهوج على عاشور وأقسموا لينتقموا منه. وقد كانوا شديدي حقد وضغينة.

لبث الإخوة بوريكات في السجن لم يفرج عنهم إلا أسابيع معدودة بعد الإفراج عنا، وبعد أن تم التفاوض معهم لشراء صمتهم فقد كان في جعبتهم الكثير من الأسرار.

وقد كانوا عرفوا المساعد أول عقا قبل أن ينزلوا في تازمامرت. فقد تعرفوا عليه في «النقطة ميم» حيث كانوا معتقلين. وقد كانت تروج في ذلك الوقت أيضاً شائعات شاذة وغريبة عن المغامرات التي كان يأتيها هذا العملاق. فبعضها كان صحيحاً وبعضها كان من بنات الخيال التي تدفع الشعبَ إلى اختلاقها حاجتُه الطفولية إلى الخوارق والمعجزات يفرج بها عن تعاسته.

كان يروج أن رجلاً دخل ومعه بعض التلاميذ أثناء الانقلاب الجناح المخصص لخليلات الملك. فتملك أولئك النساء فزع شديد وكمنّ في إحدى الزوايا مستمسكات ببعضهن. واقترب الرجل منهن، وأخذ يقهقه بملء فيه. ثم جثا بقرب أحداهن، ووضع أستون سلاحه عند مستوى فرجها، وقال لها :

- أهذا هو المفضل عند السيد؟

وبلغ الهلع بالمرأة كل مبلغ؛ فكانت ترتجف كورقة في مهب الريح. وفي تلك الأثناء إذا عملاق يبرز خلف ذلك الرجل، فركله وأطاح به بعيداً، وقال له :



Twitter: @ketab_n

- ألا تستحي أن تتعرض للنساء أيها الجبان؟ انصرف من هنا وإلا قتلتك!

فانصرف الرجل يعدو. وغادر العملاق القاعة، بعد أن اطمأن إلى أنه لم يبق وراءه أحد. ثم قصت النساء تلك الحكاية، فتعرف المحققون من الأوصاف التي جئن بها لشخص ذلك البطل على عقا. فإذا خرافة قد نشأت من حول هذه الشخصية الغامضة الذي اشتهر بوفائه غير المشروط إلى سيده. وتقول الخرافة كذلك إن في الأيام الأولى من اعتقالنا، وقت أن كنا لا نزال في السجن العسكري بالقنيطرة، أرسل الملك في طلب عقا. فقد جاءه رجال الدرك ذات مساء وذهبوا به مكبل اليدين ومعصب العينين. وغاب قسطاً من الليل ثم أعيد إلى زنزانته. وفي اليوم الذي بعد راجت الشائعات أنه التقى بالملك. لكن عقا بقي متكتماً عن ذلك المشهد الأشبه بفاصل في مسرحية، لكنه لم يفلح في لجم الشائعات حوله. فقد قيل إن الملك سأله في تلك المقابلة عن اسم الشخص الذي اعتدى على إحدى خليلاته، ووعده في المقابل أن يفرج عنه. وقيل إن عقا أنكر معرفته باسم الجاني.

لقد حصل بيننا الاتفاق على الجزء الأول من هذه الحكاية وحول التدخل الذي كان من عقا، ولم نتفق كثيراً حول هوية الأفاق الذي يكون تعرّض للنساء. وقد كانت الشائعات تشير إلى أنه عاشور. ولست أدري كيف أمكن للإخوة بوريكات أن يعلموا بالأمر. فلما تم نقلنا إلى أهرمومو تمهيداً للإفراج عنا، طلبوا أن يقابلوا أحد المسؤولين، وحكوا له القصة بكاملها.


Twitter: @ketab_n

وجاءت العقوبة في الحين. فبعد الإفراج عنا جرى نقل عاشور والرايس إلى السجن المدني في القنيطرة. فلم يشملهما العفو الملكي. ولولا التدخل المحموم لجمعيات حقوق الإنسان لكانا بقيا هناك إلى اليوم.



Twitter: @ketab_n

ضمت تازمامرت بين جنباتها الحيوانات أيضاً. فقد أُنزلت فيها في البداية نعجة القائد بلقاضي؛ ذلك الحيوان الهزيل الذي لا يبعد أن يكون قائدنا الشرس اشتراه من السوق المجاورة بسعر زهيد. ولم يكن مكان لإيوائه أنسب من ساحة السجن بطبيعة الحال؛ فصار لنا جاراً. لكنه كان يفضلنا بما كان ينعم من الهواء الطلق والشمس ويصيب من العشب الطري. ودفعت بالجنود أصولهم القروية إلى إحسان المعاملة لهذا الحيوان. فكانوا جميعاً رحماء مع هذا الضيف الذي بدا كريماً سخياً؛ ففي كل حمْلت كانت النعجة تضع حمَلين على الأقل وكثيراً ما تضع أربعة. فمتى أتمت الحملان ستة أشهر كلف القائد رجاله باقتيادها إلى السوق لتباع. وهكذا أمضت النعجة سنين داخل المعتقل. ولئن لم تحقق الثروة للقاضي فإنها كانت من دون شك مصدر متعة للحراس، الذين كانوا ينظرون إليها بود إذ يرونها رمزاً للوفرة. وما دار في أذهانهم قط من أسئلة عن البؤس الذي كان ينزل ببني البشر غير بعيد عن ذلك الحيوان.

وذات يوم اختفت النعجة. واستفسرنا قلقين عن مصيرها من الحراس، فأجابوا في أسى أن السيد قام ببيعها.



Twitter: @ketab_n

وكأنما أراد العقيد أن يطرد الأشباح من ذلك المكان الذي بات مأوى للمحتضرين، فلم يشأ أن يترك ساحته فارغة. فقد جاءها بنزيل آخر؛ كان في تلك المرة كلبة. وقد استنتجنا من الضجيج الذي كانت تحدثه أنها كلبة عجوز، قد يكون صاحبها سعى في التخلص منها. فأُنزلت في الموضع نفسه الذي كانت تشغله قبلها النعجة الولود. بيد أن النزيلة الجديدة لم يحالفها كمثل التوفيق الذي كان للنعجة مع الحراس؛ فما كانت تذر حليباً أو تضع حملاناً. فكانوا يطعمونها من فضلات الثكنة، ويشتكون من نزواتها؛ إذ كانت تمتنع من تناول بعض الأطعمة. فهم يرمونها بكلبة العقيد المدللة.

وقد سمعناهم ذات يوم يشتكون أن رفضت أن تطعم الخبز بالزبدة. فهالنا ذلك الأمر. فقد مرت علينا سنون لم نكن نرى فيها الزبدة إلا في الأحلام، وها إنهم يعطون منها لكلبة المدير العجوز فتشاء سخرية الأقدار أن تتذوقها فتعافها نفسها!

ومرة أخرى زادتنا استغراباً على استغراب؛ إذ قامت بزيارتنا. فمنذ أن حلت في تازمامرت لم تطرق علينا بنايتنا، إلى أن كان أحد الأعياد، فجاءت قدام بنايتنا وتوقفت طويلاً، كأنما تتردد في الدخول. فما الذي كان يمنعها من الاقتراب من البنايتين؟ أتكون تراءت لها أشباح على هيأة الحراس؟ ذلك شيء لن يتسنى لنا أن نعرفه أبداً. وفي الأخير عقدت العزم على الدخول، ثم جعلت تطوف بالزنازن تباعاً، وتتوقف للحظة أمام أبوابها؛ لم تستثن واحدة. ثم انصرفت ولم تعد أبداً. فلاشك أن حاسة الشم المرهفة لديها لم تستطب تلك العفونة تغلف جيرانها التعساء.



Twitter: @ketab_n

الموت والأفكار السوداء والكرب والغم... أحياناً في تلك اللحظات الثقيلة التي تنحط فيها المعنويات إلى أسفل سافلين ويصير الأمل عناء والعتمة مطبقة، إذا «النور ينبثق من أحلك الزوايا». وقد كانت تصرمت بضعة شهور على واقعة المذياع، فصار الجميع يكادون ينسونها. وإذا بندورو، المستاء منا جميعاً، والمتلفع في تنسكه المغالي، يطلب الكلام مرة. فخيم على البناية صمت محيّر. وأصخنا السمع تعقد الدهشة ألسنتنا، ويتملكنا الفضول لمعرفة ما يريد أن يبوح لنا به ذلك المتمرد. وإذا هو يرفع صوته بالسؤال :

- سكيبا! هل قايضت خاتمك بمذياع؟

- هذا صحيح، رد سكيبا.

- إذن، فلتنصتوا إليَّ جميعاً، إن بحوزتي ذهباً، الكثير من الذهب. وكما تعلمون فالحراس لا يحبونني، لذلك سأعهد به إلى من سيسعى منكم في استبداله بالمال.

فاستولت علينا الحيرة والذهول. الكثير من الذهب! كيف يمكن؟ أم أن القائد كان يخرف؟

- من أين حصلت على هذا الذهب؟ سأله أحدنا.

- لا يهم! سترون، سأرسل به من ثقوب الحائط إلى أن يصل إلى سكيبا؛ وما دام قد كان له اتصال بصاحبه فيمكنه أن يطلبه مرة أخرى.

وإذا البناية قد قامت مجتمعة على قدم وساق تبحث عن وسيلة لإيصال ذلك الكنز إلى وجهته المقصودة. وارتقى الرفاق



Twitter: @ketab_n

فوق أباريقهم وجعلوا يجتهدون لتمرير تلك الحمولة النفيسة مسترشدين بأصوات الرفاق من الزنازن المقابلة. واستغرقت الرحلة وقتاً غير يسير. كنا بها نهرب من رتابتنا اليومية ومن هواجسنا ومن ملالتنا. وعندما وصل الطرد بعد لأي إلى وجهته، خاطب بندورو رجله المؤتمن بقوله :

- أنصت، إنني أعرف قيمة هذا الذهب، فلا تحاول أن تستغفلني؛ إن قيمته تقدر بالملايين.

وحينئذ أطلق سكيبا ضحكة مدوية، هو الذي كان شديد التكتم؛ وجعل يتلوى من الضحك حتى ليوشك يختنق وهو يقول :

- إن هي إلا أسنان!

فوقع علينا كلامه كالصاعقة. ماذا؟ أسنان؟ فلم يكن له مناص من أن يقص علينا الحكاية!

- إنها تلبيسات وجسور للأسنان من الذهب والبلاتين!

فبدأنا نفهم. لقد كان القبطان السابق يفقد أسنانه على غرار الغالبية منا، فكان يحتفظ منها بكل ما له قيمة. حتى إذا استيقن من أن خاتم سكيبا قد سُعِّر بمال كثير عنَّ له هو الآخر أن يقايض تلك الأسنان.

فانطلقنا نضحك مقهقهين. ثم انثالت الدعابات من سائر الأنحاء. وما زاد بندورو انزعاجاً وما انهال علينا بالسباب إلا زدنا تمادياً في الضحك.



Twitter: @ketab_n

فلما تبدد عنا ذلك الحبور، جعلنا نفكر في أفضل وسيلة للتصرف، وإن كنا نعرف أن وجود ذلك الكنز لن يكون مما يخيف الحراس؛ فما دام الأمر يتعلق بأسنان فلن يُتهم أحد منهم بأنه هو هو من أدخلها إلى تازمامرت.

لكن باءت كل المحاولات بالفشل؛ فلم يكن بين الحراس من رضي بالقيام بتلك العملية، ولا حتى العريف أول. واسترد بندورو ماله، وظل يستميت في اكتنازه إلى أن كانت وفاته. وما أكثر ما كنت أسمعه يدمدم في زنزانته؛ يتهمنا بأننا لم نشأ أن نحول ذهبه إلى ملايين. فما كنا سوى طغمة من الغيورين الحسودين.



Twitter: @ketab_n

*Twitter: @ketab_n*

كنا نمضي وقتنا نقتل الوقت؛ فبعض بالكلام وبعض بما يسرد من حكايات أو يروي من قصص أو يحكي عن حياته. وكان بيننا من يركب مراكب التهويل. لكن ما همّ؛ فالمهم كان أن نهرب من الواقع ونفلت من الألم والجنون. ولذلك فليس بوسعي أن أقول ما نصيب الحقيقة وما نصيب الكذب في ما أحكي من حيوات رفاقي قبل أن تجمعنا تازمامرت. وأما ما حدث داخل تازمامرت فالله يشهد على أنني لم أعدُ في روايته عين الحقيقة.

كان بوجمعة أزندور رفيقي في الفوج ورفيقي في الزنزانة وموضع أسراري. وقد كان التحق بالأكاديمية الملكية العسكرية وتخرج منها برتبة الضابط. فكان ثأرَه من الحياة ومن أبيه؛ وقد كان من الجنود الكوم في الجيش الاستعماري. ثم انتقل إلى القوات المسلحة الملكية برتبة العريف. وكان الرجل طويل القامة، عريض المنكبين، تحف بوجهه لحية كلحية النبي، فأهلته هيأته لحمل الراية في الاستعراضات والحفلات الرسمية.

وقد كان الرجل جنِّد وهو في ميعة الشباب في الجيوش المرسلة إلى الهند الصينية؛ فعهد بزوجته وابنيه؛ وكانا فتاة وولداً هو بوجمعة



Twitter: @ketab_n

إلى أبيه الشيخ، وكان شخصاً عدوانياً قصيرة القامة سميناً، ذا طبع عنيد وقوة جبارة. ثم كان أن توفيت الأم فشب الطفلان في غياب من الأب وتحت نير هذا الشيخ الشرس الطماع.

فقد كان له في الصغيرين نعمة حقيقية وأيد عاملة لا تكلفه فلساً. فالصبية تقوم بالأعمال المنزلية، فيما الصبي يحرس البقرتين والعنزات الثلاث، وهي كل الماشية التي كانت بيد الأسرة. وإذا كان وقت الجني أو الحصاد؛ وقت أن تجتمع القبيلة عن بكرة أبيها على الأشغال ذات المنفعة العامة، أو «التويزة»، كان الصبيان هما اللذان يمثلان الأسرة في نصيبها من السخرات.

و«التويزة» مؤسسة ذات أصول أمازيغية تعود إلى زمن النظام القبلي في المغرب. فقد كان مجلس القبيلة يجتمع لإحصاء الأسر التي لا تملك الرجال ولا الوسائل المالية للقيام بعملية الجني أو الحصاد. فتعين كل واحدة من تلك الأسر عنها شاباً أو صبياً ليقوم بأعمال الحقل وفتاة أو صبية لتقوم على إعداد الطعام وتقديمه.

وفي كل مرة كان الشيخ يدفع إلى القبيلة بحفيديه. فما كانت العملية تكلفه شيئاً، وكانت تعود عليه بنوع من الاعتبار وسط القبيلة. وأما الطفلان فقد كانا يغتنمان تلك المناسبة للابتعاد بنفسيهما عن جدهما والاستمتاع بجو الاحتفال الذي يسود أيام التويزة. فقد كان الناس يطلقون العنان في تلك النهارات المشهودة لأنفسهم لتنطلق بما اختزنت من أهازيج ونوادر وحكايات. وكانت قبيلة مغراوة تتفرد بين قبائل المملكة بأنها القبيلة الوحيدة حيث يتكلم الناس بالأمازيغية ويغنون بالعربية.



Twitter: @ketab_n

وأما الشيخ فقد كان، لما لا يُعرف من الأسباب، لكن ليس بدافع الأنفة بكل يقين، يرد مساعدة الجماعة له. فكان يتولى بنفسه عمليات الحرث والجني والحصاد لا تقعده عنها الإعاقة.

ولم يكن يقتصر بأن يتخذ من حفيديه عاملين من غير أجر بل كان له فيهما مصدر رزق حقيقي؛ إذ كان يطالب أبويهما ثمنَ المأوى والغطاء، فكان الأب يدفع إليه من غير تذمر، بل كان فرحاً مسروراً أن وجد من يهتم بذريته، في البدء أثناء مقامه في الهند الصينية، وبعد ذلك لدى عودته؛ حين تزوج مرة أخرى وأنشأ له بيتاً جديداً.

لم يعرفه الطفلان إلا خلال الزيارات الخاطفة والنادرة التي كان يقوم بها للبلد. وقد كان غائباً في جميع أطوار الخلافات الكبرى التي صارت تنشب بعد ذلك بين بوجمعة والجد.

ثم كان أن قرر الشيخ تزويج الصبية وهي في سن الثانية عشرة (وهي سن الزواج الطبيعي عند القرويات في ذلك الزمان) برجل يكبرها بأربعة عقود، لمجرد أنه يمتلك قطيعاً كبيراً من الماشية وأرضاً فلاحية جيدة. وكان المهر كبيراً، فلم يتردد الشيخ أن يقايضه الصبية به. فإذا المسكينة تنتقل من وضع الصبية الأَمَة إلى وضع الصبية الأم الأمة. واحتج الأخ واعترض فلم تجد احتجاجاته ولا اعتراضاته فتيلاً. وما كان له، وهو الطفل ذو العشر، غير الدموع والغضب سلاحاً يقاوم به جشع الجد. ثم رحلت أخيّته، ولم يُكتب له أن يراها بعدُ أبداً.


Twitter: @ketab_n

كان هذا الحدث إيذاناً بتمرد الصبي. فلطالما توسل إلى جده أن يسجله في المدرسة، فكان يلقى منه على الدوام الرد نفسه المحمل بكل العنف الذي جُبل عليه الرجل. فقد كان ينهال عليه بالضرب المبرح يوزعه عليه خبط عشواء كفعل العميان. غير أن الصبي كان يلاقي جيرانه من الأطفال على الطريق إلى المدرسة فتستخفه الأحلام ويرى المدرسة كأنها له جنة الفردوس. فقد كان يجد لهذه الكلمة في نفسه كفعل السحر، وكان يراها كأنها بوابة سمسم ستشرع في وجهه طاقات المستقبل، وتمهد له السبيل إلى المدينة التي كان يسمع الناس يلهجون بالحديث عنها. ثم... إنها كانت تمثل له خاصة طوق الخلاص من النير البغيض الذي كان يحكمه عليه ذلك الطاغية الجبار.

وذات صباحٍ أخرج البهائم كالعادة واقتادها لترعى في الغابة. فقد كان خبيراً بالمواضع الجيدة حيث يتلاقى رعاة القرية. وعندما بدأت الشمس تبزغ في الأفق توجه إلى صديق له، وطلب منه أن يحرس له قطيعه خلال ذلك النهار.

- إلى أين أنت ذاهب، سأله صديقه.

- إلى المدرسة، أجابه.

- أيها البائس! سيقتلك جدك! ثم إن المدرسة تبعد بخمسة عشر كيلومتراً.

- أرجوك أن تحرس لي بهائمي.

- حسناً، كما تريد.



Twitter: @ketab_n

وانصرف بوجمعة راكضاً، فقطع الكيلومترات الخمسة عشر كما لو في حلم، ليجد نفسه أمام باب المدرسة وهي لا تزال بعد خالية. فقعد في ركن ينتظر. ثم بدأ التلاميذ يتوافدون في مجموعات صغيرة وبأيدهم حقائبهم. كان بعضهم يرتدون وزرات متشابهة. فحدث نفسه أن هؤلاء ربما يكونون أنجب من الآخرين. وأنا أيضاً سأرتدي ذات يوم قميصاً طويلاً، وسأكون أنا الأخر من النجباء. ثم انتشلته من حلمه صافرة المدرسة. وسأل نفسه ماذا تكون تلك الضجة المصمة، فكأنها صادرة عن ناي عظيم. وفُتحت الباب، فتسابق إليها التلاميذ. واقترب بوجمعة خجولاً مرتبكاً، ونظر إلى الأطفال الذين كانوا يركضون في جميع الأنحاء، وهم في جلبة وصياح تحكي صأصأة طيور الدوري. فاندفع بدوره، وتسلل خفية إلى الداخل ومضى ليختبئ خلف جذع شجرة. كان تائهاً عن نفسه. فماذا يفعل؟ وإلى أين يذهب؟ ومن يكلم؟ ناهيك عن تلك الضوضاء... وفجأة زعقت الصافرة ثانية من موضع قريب إليه. فتملكه الذهول. ثم ساد الصمت. وخرس الأطفال، وذهبوا ليصطفوا أمام قسم. وخرج رجل في هندام أوروبي من القاعة وبيده عصا طويلة، وألقى بنظرة قاسية إلى التلاميذ. فخرسوا فلا تسمع نأمة وسط الصفوف. وأحس بوجمعة بنفسه قد خارت قواه، فكانت ركبتاه ترتعدان، وعن له أن يهرب، لكن فات أوان الهرب، فقد سدت باب المدرسة. وود لو يلتحم بتلك الشجرة التي اختبأ خلفها. ثم بدأ التلاميذ يدخلون القسم. ولم يعد له بد من اتخاذ قرار. فليكن ما يكون؛ فلا يمكنه أن يظل متسمراً في ذلك الركن إلى أن يحين وقت الخروج. فحزم أمره واندفع صوب القسْم وقت أن كان آخر تلميذ يجوز بابه.



Twitter: @ketab_n

كان التلاميذ الآخرون وقوفاً، كلاً أمام طاولته. فتملكه الفزع لحظة. ثم رأى مقعداً شاغراً في الصف الأخير. فجعل يندس إلى أن وصل إليه وجلس فيه. وأحس بنفسه شديد الضآلة. لم يلحظ المعلم شيئاً لكن بقية القسم انتبهت إليه، وبدأت الأسئلة تنطلق همساً ووشوشة. وأشار إليهم المعلم إلى التلاميذ بالجلوس، لكن تزايدت الوشوشات. وجعل التلاميذ جميعاً يلتفتون صوب ذلك الدخيل. كان بوجمعة المسكين يبدو كطائر وقع من عشه. وارتفع صوت المعلم ليخرس ذلك الهرج :

- ماذا هناك؟

- تلميذ جديد، سيدي.

- ماذا؟ أين هو؟ ولماذا لم يخبرني به أحد؟ من أنت أيها الصغير؟ وما اسمك؟ ومن أين أتيت؟

تملك بوجمعة فزع شديد. فكان ينظر حواليه أشبه بحيوان وقع في فخ. واشتد قلقه عند اقتراب المعلم منه. وقد تنبه هذا الأخير إلى الحيرة التي تملكت الصبي. فتوقف وسأله بصوت قد لطف منه :

- هل تتكلم الفرنسية يا صغيري؟

لا كلمة.

- هل تتكلم العربية؟

لا كلمة دائماً. ولا بصيص جواب.

- ربما تتكلم الشلحة؟

فلمح بارقة أمل تلوح في نظرة الصبي. فواصل حديثه إليه بها.



Twitter: @ketab_n

- من أنت؟

- بوجمعة، أجاب بصوت مخنوق.

- وماذا جئت تصنع ههنا؟

- جئت إلى المدرسة؟

- لماذا؟

- لأقرأ.

- لتقرأ ماذا؟

- لأقرأ فقط.

- وهل تعرف القراءة؟

- كلا، فلم يسبق لي أن ذهبت إلى المدرسة.

- وهل تسجلت؟

فعاد ليلوذ بصمته وهو يطأطئ رأسه.

- لابأس، قال المعلم.

ثم مضى إلى خزانة وتناول دفتراً وقلما ولوحاً وسلمها إلى الصبي، وقال له أن يجلس في صف الدروس التمهيدية.

- سننظر في ما بعد في تسجيلك مع السيد المدير.

كان القسم يضم مجموعة من الصفوف حسب المستويات الدراسية، انتهاء بمستوى شهادة الدروس الابتدائية. وقد جُعل بوجمعة في صف الصغار. لكن ما هم! فلقد أفلح أخيراً في دخول المدرسة. كان رث الثياب مشعث الشعر، حافي القدمين، لكنه في المدرسة.



Twitter: @ketab_n

وفي الزوال عاد معظم التلاميذ إلى بيوتهم ليصيبوا فيها طعام الغذاء، وجلس آخرون يقضمون الشطائر التي جاءوا بها من بيوتهم. وجعل بوجمعة ينظر إليهم بعينيه الجائعتين. غير أنه لم يهتم للأمر. وظل متسمراً أمام المدرسة، تستخفه فرحة عارمة. ما هم أن يكون بدون محفظة، فإن هو إلا أمر ثانوي. ولابد أن ينتهي الأمر بالجد إلى القبول. وعلى كل حال فهو لن يستسلم، ولن يذعن لما يريد له مثل أخته. فهو رجل. وسيكتب برسالة إلى أبيه؛ فربما يتفهم هذه المرة، ويتدخل لدى الشيخ. فالأمر بالغ الأهمية.

وفي الثانية بعد الزوال عاد إلى قاعة الدرس. وما أن خرج من المدرسة في الخامسة مساء حتى مرق كالرمح، فقطع الكيلومترات الخمسة عشر التي تفصله عن القرية في لمح البصر. غير أنه لم يفلح في أن يدرك الراعي الذي عهد إليه ببهائمة. فقد خشي الراعي الصغير على نفسه، فعاد إلى القرية وأودع البهائم لدى الجد. ولم تسعفه الوسيلة في التكتم عن غياب بوجمعة، وأخبر الجد بقصة المدرسة. فتلقى الشيخ ذلك الخبر بثورة من الغضب شلت دماغه عن الفهم :

- المدرسة! ومن في عائلتنا قد ذهب يوماً إلى المدرسة؟ هذا ما كان ينقص! ومن سيحرس لي بقراتي؟ أواه! الخسيس، لم يستطع أن ينتظر! سأذهب لأحطم أضلعه بعصاي، سيرى!

وجد بوجمعة الشيخ يتوضأ عند عتبة البيت. فما أن سمع الجد بوقع خطى الصبي حتى أخذ يرغي ويزبد. ثم جعل يهرول عبثاً ليمسك به.


Twitter: @ketab_n

– كيف عن لك أيها الجاحد أن تذهب إلى المدرسة وأنا الذي ربيتك وأطعمتك وعلمتك أن تحرس البقرات؟ أويتك في بيتي وتجرؤ على الغدر بي.

كان الصبي يعرف أنه لم يكن له أن يأمل خيراً من جده، وأنه إن دخل فقد يعرض نفسه لضربة قاتلة. فانسحب في حذر، وذهب ليختبئ في ركن خفي، فربما يلطف الليل من غلواء جلاده.

وفي اليوم الذي بعد توجه بوجمعة إلى المدرسة من غير أن يمر بالبيت. وجعل يطعم في الطريق من الثمار يلتقطها من الغابة. وامتدت المغامرة أياماً. وذات صباح إذا الجد يطلع في ساحة المدرسة وهو يسب ويزعق ويصرخ أن ردوا إليَّ ولدي. فتدافع التلاميذ إلى النوافذ، وأسرع المعلم إلى الخارج، وسمع المدير صياح الجد فجاء مهرولاً يتبعه الحارس. وإذا المدرسة الصغيرة قد اهتزت بوقع تلك البلبلة التي لم يسبق لها أن شهدت مثيلة لها. وتطلب الأمر بعض الوقت لفهم أسباب تلك الضوضاء وفي أي أمر جاء ذلك الرجل الأرعن. وقد حاول المسؤولون أن يعيدوه إلى هدوئه، ويبينوا له فوائد المدرسة عليه وعلى الطفل سواء بسواء. لكن عبثاً فعلوا؛ فلم يكن يستمع إلى أحد، وتمادى في الصراخ والزعيق.

وإذا المعلم، وهو جزائري من القبايل، طويل القامة، عظيم الهيئة قد أخذ هو الآخر في الصياح أقوى من الجد، وأمره بالخروج على الفور من المدرسة وإلا استدعى رجال الدرك. واحتج بأن التعليم أصبح يومها إجبارياً وأن لاحق للجد في حرمان حفيده من التعلم.


Twitter: @ketab_n

ورأى الشيخ أنه لن يحصل على طائل، فانصرف وهو يرغي ويزبد. وتوجه من فوره عند القايد ليشتكي. فرد على أعقابه بالحجج نفسها. وتلك كانت أول مرة يشعر فيها الجد بالعجز، أكثر مما وجد منه يوم أن فقد بصره. فلقد تعود العمى، لكن أنى له أن يسيغ هذا التمرد وهذه العزيمة يلاقيها من صبي؟ واختلطت في ذهنه مشاعر الكراهية والنقمة والعجز. فقد تملكه شعور كالذي غُدر به ودُحر وسيم المهانة والاحتقار. واستبدت به الرغبة في الانتقام. فعاد إلى بيته، وتوجه إلى جذع شجرة كان يقوم عماداً لسقف البيت الترابي، وأخذ يحاول اقتلاعه وهو يدفعه بكل ما أوتي من قوة، إلى أن زحزحه عن موضعه، فتهاوى له قسم من ذلك الكوخ، وسقط الشيخ أرضاً وهو لا يكاد يبين تحت أكوام التراب. وهب إليه الجيران، وجعلوا ينتشلونه من تحت الأنقاض، وأرسلوا في طلب حفيده ليقوم على العناية به. فجاء بوجمعة مسرعاً، ولم يكن له بد من الاعتناء بجده. وخيل إلى الشيخ أن ما لم يحصل عليه بالقوة يمكنه أن يحصل عليه بالحيلة. لكن خاب مسعاه.

ففي اليوم الذي بعدُ عاد بوجمعة ليجتاز الطريق إلى المدرسة. ولكم توسل إليه الجد وتماوت، وجرب كل الحيل التي اختزنتها روحه الماكرة؛ فلم تجد في رد الصبي عما اعتزم. ولم يعد أمام الشيخ إلا أن يحاول قهر الصبي بالإصرار. فرضي، كما قال، بحكم الله، لكن استمر يخوض حربه الخفية. وأما بوجمعة فلم ينقطع عن الدراسة وأصبح يومها يلقى التعاطف من الجميع، بعد أن كان ذلك التدخل العاصف من جده. وما أسرع ما أخذ يتعلم القراءة والكتابة. وصار


Twitter: @ketab_n

يطوي المراحل طياً. فانتقل من الصف الأول إلى الصف الثاني، ثم الصف الثالث؛ بحيث لم تمض عليه ثلاث سنوات حتى حصل على شهادة الدروس الابتدائية. وأمكنه أن يلتحق بالإعدادية بتنويه؛ فذلك أهله للحصول على منحة للداخلية في مدينة تازة. وها إنه قد تجاوز المرحلة الصعبة! وأصبحت السبيل ممهدة له صوب النجاح، ولم يعد لشيء أن يقف في وجهه. لم يخبر جده إلا في يوم رحيله. وقد خشي أن يتعرض منه للتعنيف. لكن من عجب أن لبث الشيخ مطرقاً. فقد نبا إلى علمه أن حفيده نجح بتفوق، وأن عليه أن يرحل لمتابعة دراساته. لقد حسب حساباً لهذه القوة التي كانت تملأ حفيده، وأصبح يعرف أنه بات في غاية الضعف؛ وما عاد بوسعه إلا الرضوخ. فهل تكون روحه الهوجاء اخترقتها بارقة من رقة؟ يقال إن النور ينبثق أحياناً من الزوايا الحالكة. وقد ظل الرجل طوال سنوات الدراسة الثانوية التي قضاها حفيده وحتى آخر رمق لا يعطي أمراً لحفيده، ولا يدعوه إلا «سيدي» بوجمعة.

لم يكن في مدينة تازة يومها ثانوية. فلما أنهى بوجمعة دراسته الإعدادية لزمه أن يترك تلك المدينة إلى مكان آخر. فكتب إلى أبيه في حامية مراكش، وتلك كانت أول مرة في حياته سيعيش فيها عند والده، ويتعلم أن يعرفه. فتسجل في إحدى الثانويات وجاء ليسكن في عاصمة الجنوب؛ حيث سيكتشف طرازاً آخر من العيش وعقلية أخرى وساكنة شديدة الاختلاف. لكن اتفق أن جاء الأمر منذ السنة الأولى بنقل الأب إلى مدينة أخرى صغيرة لم تكن بها ثانوية. فعاد الابن ليواجه مشكلة التعليم من جديد. لكن شاء القدر


Twitter: @ketab_n

مرة أخر أن يكون النصر من نصيب المدرسة. فقد اقترح صديق لأبيه، وهو رقيب لم يدخل مدرسة عسكرية، وكان مثله أمياً، أن يستضيف بوجمعة في بيته إلى أن يحصل على الباكالوريا. لم يكن للرجل أبناء وكان يحمل احتراماً أقرب إلى التقديس للمتعلمين أو «العلماء» كما كان يسميهم. وها إن بوجمعة قد صار مقدراً له أن ينعم بالعطف والحنان اللذين حُرمهما أمداً طويلاً، وصار ينعم بالجو الأسري الذي لم يكن يعرفه إلا سماعاً. فقد كان الزوجان الطيبان يغدقان عليه من الحدب والرعاية. فإذا تحدث عن هذه الفترة من حياته طفرت الدموع إلى عينيه. فلما كانت السنة التي سيجري فيها الامتحان جعل كفيله يزوره كل مساء بعد أن يفرغ من عمله فيعد له القهوة ويجلس بجواره لينظر إليه وهو يهيئ دروسه، دون أن يصدر نأمة أو يأتي حركة. فإذا رغب بوجمعة في استظهار درس من الدروس تناول الرقيب الكتاب أو الدفتر من غير أن يستشيره وقال له :

- هيا استظهرْ، إنني أنصت!

وفيما هو يستظهر كان الرقيب يهز رأسه بالموافقة. فإذا أخطأ بوجمعة تنحنح وقال :

- أعتقد أن الأمر ليس كذلك. فانظر وتحقق.

ومن غريب أنه كان كثيراً ما يصيب. وتفسير ذلك بسيط : فقد كان الرقيب الأمي إذا لمس تردداً أو تغيراً في صوت التلميذ تأكد لديه أنه قد وقع في خطإ.



Twitter: @ketab_n

وبفضل هذه الأسرة تمكن بوجمعة من اجتياز امتحانات الباكالوريا في أفضل الشروط، وانتزاع تلك الشهادة بكل جدارة. وفي ذلك اليوم بكى الوصيان عليه؛ فكأنما هما اللذان نجحا في ذلك الامتحان أو أحد أبنائهما من حاز تلك الشهادة. لقد كانا يبكيان من فرط فرحتهم بالثأر من الأمية.

وتقدم بوجمعة على الشهادة تقدم إلى مباراة الأكاديمية الملكية العسكرية، فاجتازها بنجاح. ودرس فيها سنتين تخرج بعدهما ضابطاً. فأصبح يومذاك ينتمي إلى تلك الطبقة التي أنفق أبوه حياته في خدمتها، وفي سبيلها تخلى عنه وعن أخته. فلما رآه الأب في زيه المتلامع هنأه كأنما يهنئ شخصاً أجنبياً، دون أن ينظر في وجهه. فلم يكن يشعر بأي فخر. ولم يكن له بأي حال أن ينسب إلى نفسه النجاح الذي حققه ابنه؛ فما كان إلا ثمرة لعزيمة بوجمعة وإصراره.

في تازمامرت عاش بوجمعة كما كان دأبه على الدوام؛ بكرامة وشجاعة. لم يكن يولي كبير اهتمام إلى توافه الأمور، أو يهتم لغيرها من منغصات الحياة اليومية. لقد كان ينعم بالحصانة. ثم اتفق له أن مرض من غير أن نهتدي قط إلى مرضه. فلم يجأر بشكوى وكانت وفاته أشبه بالمفاجئة. فهل خانته عزيمته التي جبل عليها منذ أن كان راعياً صغيراً يسير حافي القدمين؟ ذلك الأمازيغي الصغير الذي كان يتغنى بلسان عربي، وكان كل حلمه في الحياة أن يُكتب له في يوم من الأيام أن يرعى أخته ويدللها ويرد إليها قسطاً ولو يسيراً من تلك الطفولة المغتصبة، ومن تلك الأحلام المجهضة. فما الأطفال إلا أطفال، وإن ألمنا يشملهم كصلاة.



Twitter: @ketab_n

*Twitter: @ketab_n*

لو أردت أن أرسم صورة لعبد السلام حايفي قبل أن تجمعنا تازمامرت، لما كان عليّ بالأمر الهين اليسير. فالرجل كان يتقدمني في الخدمة بسنة؛ فكان «سابقاً» عليّ. وعندما وعى بوضعيتنا الميئوس منها إذا هو يغادر عالم الواقع ويلوذ بعالم ملؤه بغضاء وثأر. لقد كانت معجزة أن استطاع العيش ذلك الوقت الطويل. فلقد تردى ببطء إلى ما يشبه الخرف. فجعل يمضي نهاراته يصب جام سبابه على الكون كله، في خطبة عصماء لم يكن يقطعها عليه إلا النعاس. كان ينهال سباً وشماً على أناس نعرفهم وآخرين ليس لنا بهم من علم. وكان ينهال بالشتائم على أشخاص كثيرين، لكنه لم يكن ينال بشتائمه واحداً من نزلاء البناية.

تميز حايفي في الأيام الأولى من نزوله في تازمامرت بفعل شاذ غريب؛ فقد فتح الحراس باب زنزانته ذات يوم ليقدموا إليه حصته من أكلة القطاني، فإذا هو يطلق ساقيه للريح؛ فاجتاز المجاز في سرعة الريح وأصبح في الساحة خارج البناية. ولقد ذهل الحراس وعقدت المفاجأة ألسنتهم. حتى إذا عادوا إلى رشدهم انطلقوا في أعقابه وأمسكوا به في الساحة؛ حيث كان يدور حول نفسه لا يقوى



Twitter: @ketab_n

على الذهاب أبعد. وتملكهم الحنق فأنحوا عليه بالسباب، وعادوا يقتادونه إلى زنزانته وهم ينهالون عليه بالضرب. ثم ظلوا لوقت طويل لا يفتحون زنزانة حايفي إلا حانقين ناقمين. ولاحاجة إلى القول إنهم قد تركوا المسكين أياماً عديدة من غير طعام. وقد كان أقسى الحراس في تلك الواقعة هو الجلاد ابن إدريس. فعندما قلت لفريح قائد الحراس على بنايتنا، إن عقابهم لهم كان أقسى بكثير؛ إذ لم يكن أمام حايفي من سبيل إلى الفرار، رد عليّ وهو يتميز من الغيظ بقوله إن الحراس قد أعطيتهم الأوامر بإطلاق النار على كل من يخرج من البناية، وإنهم قد أوشكوا في ذلك اليوم أن يتعرضوا هم أنفسهم لإطلاق النار ومعهم حايفي.

وكان أن مرض عبد السلام في بداية الثمانينيات. ثم إذا هو قد صار فجأة لا يقوى على الحراك. فإذن الحراس لأحدنا في أن يحمل إليه طعامه أثناء ما يكونون يقدمون الطعام للآخرين. ولم يمت حايفي في حينه. وطال به الاحتضار إلى ما لانهاية. وقد ظل حتى آخر رمق يمعن في السباب والشتائم. فلما توفي كلفنا الحراس بأن نخرجه إلى الرواق؛ إذ صاروا يمتنعون من دخول الزنازن لفرط الرائحة المنبعثة منها وخوفهم من العدوى. لكن أنى لهم أن يلتقطوا العدوى من تلك البناية التي لم تكن لتنجو منها ولا حتى الجراثيم؟ فكان مشهداً رهيباً؛ إذ صار حايفي لا يزيد حجماً عن بضع عشرات السنتيمترات، وصارت ساقاه مطويتين تلتصقان بصدره، وما عاد يحمل أوقية من لحم، وما بقي منه كان قد بدأ يتأكله الدود. فإذا أحد الحراس يحمله بيد واحدة، ويذهب به إلى حمامه الجيري الأخير. وقد خلف



Twitter: @ketab_n

الفقيد من ورائه مئات الآلاف من الصراصير تنغل بها زنزانته؛ حتى لم يخل شبر واحد في السقف أو على الحيطان أو في الأرض من أعشاش تلك الصراصير التي صارت من بعد حايفي كاليتيمة.

في اليوم الذي بعد جاءنا الحراس بمضخة من مبيد الحشرات وقالوا إنهم حصلوا عليها من الأعوان العاملين في محاربة الجراد الجوال، وإنهم قد نصحوهم إذا أرادوا أن يستعملوها بلبْس الأقنعة الواقية من الغاز. ولم تكن بحوزتهم تلك الأقنعة فقالوا في غير حياء إننا نحن من سيتولى تلك العملية؛ إذ كنا في أنظارهم أشخاصاً هالكين لم يعد لهم أمل في شيء. فقبلنا؛ فربما كنا نشاطرهم ذلك الاعتقاد! فلما فرغنا من رش الصراصير التعيسة بتلك المادة القاتلة أغلقنا الباب وتركنا للسم أن يفعل مفعوله. وفي اليوم الذي بعدُ كنا لا نزال على قيد الحياة وأما الصراصير فقد أبيدت عن آخرها. فجعل الحراس يخلصوننا من تلك القذارة باستعمال المجارف والمناقل.

في سنة 1985 أُنهك الموت. فقد كانت تلك أول سنة تنقضي علينا من غير وفيات (لكن من أسف أن تلك الهدنة كانت قصيرة). لقد بتنا يومها منهكين ومتهالكين كالمحتضرين. فما عاد الموت يهتم لأمرنا. تيبست جلودنا والتصقت بهياكلنا العظمية الشائهة. وإذا تمشينا ففي صورة شاذة عريبة، فكأننا نوشك أن نتفكك في أي لحظة. وصرنا نبدو كالأموات بعيوننا المنخطفة الغائرة في شعر مشعث قذر، نحكي تذكارات الصيد والسلب المعلقة على الأعواد في القرى التي يسكنها قطاع الطرق.


Twitter: @ketab_n

وصار الدماغ كذلك لا يقوى على المجاراة؛ إذ فقدنا القدرة على التركيز وفقدنا صفاء الذاكرة وقوة الخيال وتوقد الذهن. وكلها أمور ناجمة عن الظروف التي كنا نحيا فيها، وعن صنوف الحرمان والصدمات الانفعالية، وناجمة، كما علمنا بعد ذلك من الطويل عن نقص الأوكسجين. فبين الأدوية التي كانت ترسلها زوجته إليه كانت هنالك أقراص لمد الدماغ بالأوكسجين. وفي ذلك الوقت نبهني رفاقي، والحراس أنفسهم، إلى أنني كنت لا أكف عن تحريك رأسي أماما فوراء بصورة آلية غير واعية. فبدأت حينها أنتبه إلى الأمر وأتنبه إليه بشدة. لقد كانت مهمة صعبة عسيرة؛ ولاسيما أنني قد مر عليّ وقت دون أن أعيها. ثم أمكنني في الأخير أن أتحكم في اختلاجاتي. واقتضاني الأمر تيقظاً دائماً.

صرنا نمضي الشتاء فوق بلاطاتنا، غارقين في خضم من الأحلام والذكريات التي باتت يومها مفتتة ومتهالكة ومترنحة ومتفلّتة. وانحصر كل تفكيرنا في أن نعيش اللحظة التي نحن فيها، وأن ننجو بجلودنا؛ فما عاد لنا رجاء في شيء. وصرنا نجرجر أقدامنا صوب النهاية بما نستطيع من كرامة. نضب معيننا من الكلام ومن الحكي. وصرنا لا نكاد نستطيع إنصاتاً أو احتفاظاً بحواسنا متنبهة. لقد باتت قدرتنا على التركيز يومها أقرب إلى درجة الصفر.

وفي الصيف نجعل نسحب أنفسنا إلى الزاوية في محاولة للاستمساك بالحياة؛ فلم نكن نتنازل بل نواصل النضال، ما دام فينا رمق...! حتى في يوم جاء الحراس إلى الساحة وأنفقوا الصبيحة يحفرون فيها. كنا نسمعهم؛ فماذا تراهم عادوا يفعلون مرة أخرى؟


Twitter: @ketab_n

تملكتنا الحيرة واستبد بنا القلق، وأكثر منه الفضول. فلما كان اليوم الثالث توقفوا عن الحفر. ورأى رفيقنا الذي توجد زنزانته قبالة الباب ما كان يحدث فلم يشأ أن يخبرنا فيكدر علينا. حتى إذا ألححنا عليه في السؤال حكى لنا أنهم كانوا يحفرون بطول الرجل على امتداد الحائط. فلما أحصينا الحفر وجدناها بعدد السجناء الذين نجوا من الموت في البنايتين. ولم تكن بنا حاجة إلى البحث عن تفسير للأمر. فمن البديهي أن تلك الحفر قد جعلت لنا وبذلك اعترف لنا الحراس في ما بعد. لكن تم التخلي عن ذلك المشروع. فلماذا؟ لقد علمنا أنه بعد صدور كتاب جيل بيرو «صديقنا الملك» وبعد العمل العظيم الذي قامت بها السيدة كريستين دور السرفاتي اشتد الضغط الدولي على النظام المغربي من القوة حتى لم يعد له مناص من الإذعان والرضوخ. فبدأ الجلادون في مرحلة أولى يصرفون النظر عن التخلص منا. واعترفوا بعد ذلك للعالم بوجودنا. ثم بدأت فكرة الإفراج عنا في الاختمار. لقد استطاعت امرأة بما أوتيت من عناد وإيمان أن تنتصر على دولة تريد لتُخفي وجهها بقناع.

واصلنا حياتنا اليومية كالمعتاد. وقد أصبح الحراس قلما يوصدون الأبواب؛ فما عادوا يخشون شيئاً من قبلنا بعد أن صرنا لا نزيد عن هياكل عظمية متحركة، وصارت الأيام علينا تزداد شدة من الناحية الجسمانية وفقراً من الناحية المعنوية. لكنها صارت تفقد شهيتها إلى الوفيات. فقد مات بوجمعة في 1986 وسنوات ثلاث بعدُ توفي حايفي. سنوات ثلاث أمضيناها نطوف بالذهن رفقة الإخوة



Twitter: @ketab_n

بوريكات في شوارع باريس. وإن ذلك التطواف هو الذي أبقانا على قيد الحياة.

ثم كان أن نزل علينا ذات يوم ممرضان، ففحصا حالتنا الصحية ووزعا علينا بعض أقراص الإسپرين ومسحوقاً سحرياً لعلاج آلام البطن. لم يكن بشيء ذي بال، لكن جماجمنا الناشفة وجدت فيه نفعاً كثيراً. ثم بدأنا نلمس تحسناً في أحوالنا المعنوية. وبدأ يهب علينا من المحيط نسيم فيداعب وجوهنا، وينفخ فينا نفحة جدلى من حرية.


Twitter: @ketab_n

عشرين سنة قبل؛ أي قبل أن تقع تلك المغامرة الكبرى التي ستؤدي بنا إلى معتقل تازمامرت، كنا نعيش هانئين خاملين في رتابة الحياة اليومية في حامية أهرمومو.

كنا في ريق الشباب، خليّي البال أغراراً، حديثي التحاق بالأكاديمية الملكية العسكرية؛ فكنا نحسب أنفسنا سنصير في المستقبل مخططين كباراً. وسرعان ما سيخيب لدينا ذلك التوهم. فإذا نحن في الواقع ضباط سابقون قد خاب مسعاهم وخسروا أوهامهم وخسروا معها تلك الشعلة التي تدفع المرء إلى الإقدام وكسر أغلال العادة والرتابة وتحاشي فخاخ الاستسهال والتشبث بجمرات الطموح.

وقد كان بين هؤلاء الضباط واحد قد خلف في نفسي أثراً لا يمحي أو يزول. فقد اقترن مصيري بمصيره إلى أن فرق بيننا الموت.

لقد جاء مدججاً بأسلحته، يخب بفرسه الأبيض، ويُنفذ رمحه في ما يعترض سبيله من طواحين المشاة. كان ذلك الفارس النبيل في رتبة القبطان؛ قد جاء من الدرك الملكي الذي يبدو أن القائمين عليه لم يكونوا يقدرون أحلامه البائدة. وحط في فيلقنا، فتولى



Twitter: @ketab_n

قيادته. فإذا هو يبادر من أول يوم إلى توزيع مذكرة للخدمة يأمر فيها باجتماع لهيأة الأركان. ترانا وقعنا من السماء! فأي اجتماع؟ وأي هيأة للأركان؟ فما كنا في الواقع إلا أشباه مراقبين مكلفين بإعطاء الدروس التي تبرمجها إدارة الدروس، وما كان هو يزيد عن مراقب عام. وأما تسميات «رئيس القسم» و«قائد الفرقة» و«قائد الفيلق» فلم تكن تزيد عن كلمات من خطة عضوية مستنسخة عن الخطة المنظمة للوحدات التي سيلاقيها التلميذ المتخرج وقت أن يتم له التعيين.

وهكذا ابتدأت مغامرتي بجانب هذا الشخص الذي سيصير جاري في الزنزانة في البناية الثانية من تازمامرت.

كان عبد الحميد بندورو متين البنية، عريض المنكبين، معقوف الأنف، مربع الفك، صلب اليدين. فكان يفرض نفسه بقوته البدنية لكن لم يكن له كبير حظ من ذكاء أو حس عملي. فكان دائماً ما يخطئ جواهر الأمور. فما كانت الصداقة ولا كان الاحترام أو الكرم ولا حتى الحب، لديه سوى كلمات فارغة من أي مدلول. لكن ما يشبه الطيبة كان يكمن في ناحية من أغوار نفسه، ويطفر إلى السطح كلما تحدث عن ابنته. فهي اللحظات الوحيدة التي تشرق فيها عيناه بلمع من إنسانية. غير أن وجهه كان لا يلبث يكفهر إذا تحدث عن ابنه؛ فيخيل إلي أنه قد تربى على العصا فيريد أن يفرغ ضغينته المتراكمة على ولده.

وتلك كانت سيرته كذلك في الجنود الذين كانوا تحت إمرته وكانت أول أسباب الخلاف بيننا. فقد كنت قائد فرقة في الفيلق



Twitter: @ketab_n

الذي كان هو المشرف عليه؛ فكنت أكره أن يسيء المعاملة إلى رجالي. فقد كنت أرفض التوقيفات مع الاقتطاعات من الأجر التي كان ينزلها بالجنود لا تأخذه فيهم رحمة ولاشفقة. ثم إنه إذا خرج بهم في تمارين المشي كان يتقدمهم، فيطلق لرجليه العنان تاركاً المتأخرين بطول المسار. فكنت أحرص على أن أعود بوحدتي كاملة فأدفع الأقوياء إلى أن يساعدوا الضعفاء، وهو شيء كان يمنعنا منه.

ثم شاء القدر أن يجعلنا جارين في المعتقل، ويحكم علينا بالعيش في ذلك «المكان المغلق».

مرت السنة الأولى من غير مصاعب كثيرة. فهو يتظاهر بالنوم عندما نكون نحكي الحكايات، وما كان يفلت منها شاذة ولا فادة. فإذا شرعنا في درس القرآن انخرط في المجموعة وشرع يحفظ وإيانا. وقد كنا في بادئ الأمر نحفظ ثُمن الآية في اليوم الواحد. لكنه كان عند مطلع السور الجديدة يضيع، مثل آخرين، الخيط الرابط؛ إذ كان يلزمنا أن نحفظ الثمن اليومي ونقوم بمراجعة المحفوظات السابقة حتى لا ننساها. فكان بندورو بحاجة إلي لأساعده على استذكار ما يحفظ من آيات ليستطيع مجاراة المجموعة. وقد كنت جاره الجنب فكنت الوحيد الذي بمكنته أن يقدم له يد المساعدة. وأما الآخرون فقد كانوا سيمتنعون من مساعدته بكل تأكيد، لعجرفته وطريقته في طلب ما يريد وكأنه شيء مستحق له أو واجب على الآخرين. غير أنني لم أكن أكترث للأمر؛ فما كنت إلا أبذل ما حصلت عليه بسخاء كبير. ثم إنها كانت أفعالي الخيرية. فأنا أساعده على نحو ما أقدم يد المساعدة لعاشور أو الدغوغي.



Twitter: @ketab_n

ثم كان اليومٍ الذي وصل فيه إلى منتهاه، فإذا هو يتوقف. وقد ظللت أسأله عبثاً هل يحتاج مساعدة، فلم يكن يجيب. عدا أنه لم يكن يرد على أحد. فقد بات يشعر أنه مكلف بمهمة سماوية تأمره بالصوم والصلاة وتلاوة القرآن آناء الليل وأطراف النهار. وأما نحن المذنبين الأشقياء، فما عدنا جديرين بأن نكون من عالمه.

كان يحتفظ بطعام النهار كله ليأكله في المساء، جامداً في الشتاء وتخالطه حموضة في الصيف. وقد ظل ملتزماً هذا النظام إلى النهاية. وما كان في الحقيقة يلتزم ذلك الصوم إلا لأنه كان يؤثر أن يلتهم ما يقدم إلينا من ذلك الزاد البائس في المساء في وجبة واحدة عساها تكفيه في سد جوعه.

فالناس إذا ابتلوا بتصرفات شاذة غريبة اتخذوا لهم حجاباً من معتقدات وإديولوجيات، أو طقوس يحسبون أنهم صاروا بها فوق بني البشر.

وقد نصحته ذات يوم ألا يترك طعامه يحمض لأن الأمر قد ينقلب وبالاً عليه. فرماني بالشيطان، وقال إنني حسود وإنني أريد أن أحول دونه والجنة. وكان هنالك سبب آخر للخلاف بيننا؛ فقد كان إذا آوى إلى فراشه يجعل يتلو القرآن بصوت خفيض وإيقاع رتيب، يحكي الهدير المتواصل لمحرك. وما أكثر ما توسلت إليه أن يتوقف، لكن من دون طائل. فما كان إلا يزيده إصراراً على الإمعان في تلك التلاوة.

فإذا ألححت عليه صرخ فيَّ :



Twitter: @ketab_n

- اصمت أيها الشيطان!

وذات يوم بعيد مجيء الحراس في خدمة المساء، التي تكون في الساعة السادسة، إذا صاحبنا قد شرع يغمغم كالعادة. فأمرته بصوت حازم أن يصمت. فلم يجب. وشتمته. فسكت برهة ثم قال لي :

- وتجرؤ على أن تسبني يا ابن الحرام، فأنت تعرف جيداً والجميع ههنا كما في الخارج يعرفون أنك لست سوى ابن حرام فقد أنكرك أبوك رسمياً على مسمع من البلاد كلها!

وبإطلاقه هذه الشتيمة أدرك أنه قد أعلن عليّ حرباً مفتوحة. فهذا السيد الذي يتظاهر بأنه غائب ومستغرق بجماعه في ورعه وصلواته، لم يكن يعزب عنه شيء من شؤون البناية. وتلك ممارسة قد وقعنا فيها جميعاً، وبدون استثناء؛ وهي تتمثل في الإنصات بانتباه إلى كل ما يحكي الآخرون عن حيواتهم وماضيهم ومغامراتهم فكنا نحصد كل ما يمكن أن يكون في يوم من الأيام، في حال وقع شجار أو خصام، وسيلة لتجريحهم وإيلامهم. فقد كنا نسجل مواطن الضعف ومواطن القوة عند كل واحد. وما كنت استثناء من تلك القاعدة. فقد حكيت ما حكيت عن حياتي وعن ماضيّ، ورويت ذلك الحديث الذي نُقل إليّ في البدء، وقت أن كنا لا نزال ننزل بسجن مدني. فقد كان والدي من المقربين إلى الملك، فلما وقع حادث الصخيرات سأله الملك :

- ماذا ترى يا بنبين، هل ترضى عما فعل ابنك؟


Twitter: @ketab_n

فرد والدي بما أفترض أنه كان دفاعه عن نفسه :

- يا صاحب الجلالة إنني أنكر عني هذا الشخص؛ فمن يخون ملكي لا يمكن أن يكون لي ابناً!

ولاشك أنه جوابٍ قد راق للملك؛ فلم يعد إلى مفاتحة والدي في ذلك الموضوع أبداً. وها إن تلك الحكاية تقذَف في وجهي يومها في قصد واضح لإيلامي. وأما القبطان بندورو فلم يسبق له أن أفصح عن حياته، فكان يحسب أنه في حمى إذ يتمترس خلف خرسه وتكتمه، وزينت له نفسه أنه بمنجاة من الهجومات القاتلة التي كنا عليها قادرين. وغاب عنه ما يفعل الشيطان، وأنه يبحث على الدوام عن مثل تلك المواقف والأوضاع، وما حسب حساباً كذلك لذاكرتي التي تقمصت في ذلك اليوم لبوس الماكيافيلية. فقد كنت أعرف منذ سنين أن المواجهة معه أمر محتوم ليس منه مناص. لذلك انبريت أعدّ لخطتي بصبر وأناة. وكنت موقناً أن خصمي عملاق بقدمين من طين. فكنت أعرف متى وكيف أوجه إليه ضرباتي. لكن لزمني في البداية أن أستثيره وأدفعه إلى درجة الانفعال التي لا يستطيع معها أن يعقل شيئاً.

لقد طال بنا الشجار الليل كله، إلى أن جاء الحراس في اليوم الذي بعد. فالمنهزم في هذا النوع من المواجهة يكون هو الذي يسكت أولاً. ففي منتصف الليل، وقد بلغ بنا الشجار أوجه، قلت له بنبرة باردة توحي بالهدوء :

- كوكو!



Twitter: @ketab_n

لم يدرك في الحال معنى ذلك التلميح. فأعدت عليه تلك الكلمة ثلاث مرات أو أربعاً بكثير من الهدوء، لأبث الاضطراب في نفسه. فعندما وجدت أنه ارتبك قليلاً، وأيقنت أنه سينصت إلى كلامي قلت له :

- كوكو، إنك أب لابن لقيط!

ثم سكتت. فخرس. وفهمت أنه وقع في الفخ، وأنه قد صار موزعاً بين الشك والغضب، وأنه قد بات مرتبكاً بما يكفي لأشن عليه هجومي من قبل أن يتوب إلى رشده. فأردفت في نبرة كأنها ودية :

- قل لي، عندما كنا في سجن القنيطرة، ألم تزرك زوجتك في المستشفى؟ وقد جامعتها، وإن كنت نسيت فذلك حدث في تاريخ كذا، أليس صحيحاً؟

لقد هالته دقة معلوماتي، فرد بـ«نعم» لا تكاد تُسمع. ثم واصلت كلامي بصوت أقوى (إذ كان يلزمني أن أظهر تفوقي) :

- ووضعت ابناً في تاريخ كذا، أليس صحيحاً؟

ومرة أخرى أذهلته الدقة. ثم قلت له، كأنما أنهال عليه بسياط :

- قل لي لماذا تكون المدة بين ذينك التاريخين هي على وجه التحديد تسعة أشهر إلا عشرة أيام، وأما فترة الحمل الطبيعي فهي تسعة أشهر بالتمام والكمال؟

كانت الحسابات متناهية الدقة. بيد أن الحمل لا يخضع لقواعد رياضية. وقد كانت شهور الحمل التسعة لا تنقص بغير أيام معدودة


Twitter: @ketab_n

لكنه شيء حرصت على أن أصرف ذهنه عنه؛ فلم أترك له الوقت ليفكر. فقد كان يلزم أن أشغله بالحسابات ليسهو عما عداها. وما أن أدرك قصدي من ذلك الكلام حتى انتقلت إلى أمر آخر، فهجمت عليه بسيل من الشتائم استهدفت بها مختلف مواطن الضعف لديه، ليلاّ يكون في مقدوره أن يعود لمراجعة حساباته. لكنه كان قد فقد رباطة الجأش.

وفي الصباح قبل مجيء الحراس، واصلت سبّي له برهة من زمن لألتذّ انتصاري. لقد كان أطول شجار وأعنف شجار وأقسى شجار يدور بين حيطان البناية الثانية. وكان أول شجار وآخر شجار أخوض فيه أثناء مقامي في تازمامرت، وما كنت فخوراً بنفسي.

فلما انصرف الحراس، دعاني بندورو إلى استئناف تلك الحرب لكن لم يعد لي فيها من غرض، بعد أن تحقق لي الانتصار، وما كنت أريد خاصة أن أمنح خصمي الفرصة ليستعيد نقوده، بتعبير لاعبي البوكر.

وبعد أيام قلائل، ناداني وسألني في صوت متردد :

- هل أنت موقن من أن حساباتك صحيحة، ألا يمكن أن تكون أخطأت؟

فكيف أشرح له أن تلك الحسابات لا تعني شيئاً، وأن أهميتها تتأتى من الحالة النفسية التي كان عليها في وقت الشجار؟ لقد تحطمت الكأس، وكنت أنا المذنب، وأنى لي أن أعيد لحم القطع المنكسرة؟



Twitter: @ketab_n

وعندما استبد المرض ببندورو بادرت إلى فعل ما في وسعي لأكفر عما بدر مني في حقه. وقد كنا يومها على وشك الخروج من المعتقل. فإذا الحراس قد صاروا يومها أكثر تساهلاً؛ فسمحوا لي أن أذهب لأكنس له زنزانته. فكنت أغسل له أوانيه وثيابه فيما هو لا يفتأ يسبني ويتهمني بأنني أسرق أغراضه. ولم يعد أحد يرغب في ماعدته بسبب طبعه ومزاجه. ولم تكن تبدو عليه علامات مرض لائحة، لكنه كان يسير إلى الانهيار؛ وبات من الضعف حتى إنه لا يقوى على النهوض من فرط ذلك النظام القهار الذي فرضه على بدنه.

كنا يومها في بداية فصل الربيع، فشرعنا نخرج رويداً رويداً من سباتنا الإجباري. وقد تحمل العملاق الهائل أعباء الشتاء لكن تراه يستطيع أن يتحمل الشك الذي بات يسكن فكره؟ وهل سيكون في مقدوره، وقد جاز العاصفة، أن يرسو على ضفاف الخلاص الذي صار يومها يمد إليه اليد؟ وهل سيكون في مقدوره أن يحول عنه المصير المحتوم في تازمامرت، والذي كان يخني علينا بثقل أعوامه الثمانية عشر الطويلة من أهوال وفظاعات؟ وهل سيكون في مقدوره أن يكذب تنبؤات الرائية المشؤومة التي كانت تأتي كل مساء لترجّع أغنيتها التي تزرع اليأس في النفوس؟ وهل في مقدوره في الأخير أن يتشبث بالأمل أن سيأتيه المرضان المسكينان بالترياق السحري الذي سيحقق له النجاة؟ وهل يقنع نفسه أنهما أحضِرا إلى ذلك المكان لشيء آخر غير المظاهر؟

وفيما نحنُ ننتظر...!



Twitter: @ketab_n

توفي بندورو في 8 ماي 1991، وقد صرنا على أبواب الحرية كمثل ذلك الجندي الذي نهض من الخندق ليعلن انتهاء الحرب فتلقى رصاصة في الرأس.

كان بندورو آخر من توفي في البناية الثانية. فتجرع الكأس حتى الثمالة. وكان آخر الأشباح.



Twitter: @ketab_n

وفيما نحن ننتظر...!

بقينا نعيش يتنازعنا الأمل الوليد في احتمال الإفراج عنا والخوف القاصم أن يسفر عن وهم ليس إلا.

وانقلب حال الحراس؛ فإذا هم بشوشون ودودون. وإذا هم قد صاروا لنا أصدقاء. وصرنا إخوة في الإسلام. أليس الصفح أعظم فضائل الإسلام؟

فنحن نسمعهم ولسان حالهم:

- إن كنتم أذنبتم في حقنا فنحن نصفح عنكم! وإن كنا أذنبنا في حقكم فإننا نرجو منكم الصفح!

وهل كنا جميعاً إلا عسكريين في نهاية المطاف؟ فكنا نعرف معنى الخدمة ومعنى الأوامر وكل ما يترتب عنها. لقد كان يمكن أن نكون في موضعهم! بالطبع! كلام سمعته من أحد السجانين فقلت له:

- فلتعلم أنني لن أبادلك موضعي ما حييت، ولو بكنوز الدنيا، وحتى لو حتم أن أظل في السجن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.



Twitter: @ketab_n

إن الانتظار وانعدام اليقين، وحتى الأمل، تصبح أشياء لاإنسانية بعد تلك السنين المديدة، وتلك التجارب والمحن ووطأة ذلك الزمن الذي يتمطط إلى ما لانهاية، وينتفخ حتى ليوشك يُطير بصبر أحكم الحكماء.

لم نعد نزيد عن سبعة في تلك البناية : العمداء الثلاثة (سكيبا والداودي وأنا)، والإخوة بوريكات وعاشور الذي كان قد أمضى عدة أشهر من المداوة في البناية الأولى. الأجواء كئيبة والتكهنات تتواتر من كل حدب وصوب. إلى أن كان صباح أعلنت فيه طيور الدوري عن مجيء الحراس. ففتحوا أبواب الزنازن، في ما عدا التي ينزل فيها الإخوة بوريكات. ثم أمرونا أن نلملم أغراضنا. فاستولى علينا الذهول؛ إذ لم تكن هنالك عربات ولا بلبلة توحي باحتمال الإفراج عنا. ثم صاحوا بنا في وقار مصطنع :

- ستذهبون إلى البناية الأخرى.

إجراء مؤقت، لكنه فأل خير.

كنت مشلول الذهن، أعجز عن التفكير؛ قد اختلط في رأسي كل شيء. فلو كانوا سيذهبون بنا إلى الجحيم لذهبت ولم أبد نفوراً.

فلما صرت قبالة الباب، توقفت وقد بهر عيني الضوء وانبهرت بلون السماء، وهجمت عليّ روائح الطبيعة. فتوقفت أنعم بمداعبات الشمس الساحرة على جلدي، وذاكرتي تجهد حائرة أن تعيد الأحاسيس إلى مواضعها فوق رقعة الوعي.


Twitter: @ketab_n

بدا الحراس صبورين، فقد صاروا فجأة متفهمين. فتركوا لي أن أستلذ تلك اللحظة النادرة في حياة الإنسان؛ لحظة ميلاد شيخ هرم. ذلك الشعور الغريب الذي لاشك أنه يعتري الوليد إذ يبرح بطن أمه؛ خروج إلى العالم من غير صراخ.

مشينا مترنحين تحت ثقل أغراضنا ومخاوفنا وآمالنا. واهتاجت حواسنا، فهي تَلغُ من الحياة في نهم شديد، فكأنها تخشى عليها النضوب. كان عاشور عارفاً بالطريق فانطلق يعدو صوب البناية الأولى. فقد كانت لديه أولويات أخرى؛ أن يظفر بالمكان الأمثل أقرب ما في الإمكان إلى المعتقل الذي يملك أكثر من غيره من الأشياء الذي يحركه الطمع فيها.

كان الرفاق ينتظروننا، يتملكهم الفضول ويستبد بهم التوتر والترقب. فبعض لم نروهم أو يرونا منذ ثمانية عشر عاماً وبعض - الطيارون - لم يسبق لنا أن رأيناهم أو رأونا قط.

كان اللقاء مشبعاً بالمشاعر والانفعالات. فقد فاقرنا بعضنا ونحن في ميعة الشباب، وها نحن نتلاقى ونحن في أرذل العمر. فأما عزيز الداودي وبوشعيب سكيبا وأنا فقد كنا في أسوإ حال. فكنت أتقرى في النظرات المنذهلة لرفاقنا من البناية الأولى الحالة المزرية التي كنا عليها. ومنا من كان يبكي بحر الدمع. ثم جعلوا جميعاً يفيضون علينا من الحدب والكرم. فمن يجود علينا بأقراص الڤيتامينات ومن يمد إلينا بقطعة من الصابون. وحصلنا منهم على قطع من المرايا وأقمشة وركام من الأشياء المعبر بها عن


Twitter: @ketab_n

العناية والاهتمام. وما أكثر الاستيهمات التي كنا نحملها عن الهبات التي كان القدر يغدقها على هذه البناية؛ وما كان نزلاؤها إلا تعساء مساكين مثلنا، قد حافظوا على شيء من لياقة، لكنهم كانوا بقدرنا إرهاقاً وانهياراً.

تركنا وراءنا الإخوة بوريكات، مع كل ما يبعث عليه البقاء في ذلك المكان من قلق وانشغال : ماذا سيكون مصيرهم؟ ولماذا فرقوا بيننا وبينهم؟ وهل سيُفرج عنهم؟ وماذا تراهم يبيّتون لهم؟ لقد كانوا جزءاً لا يتجزأ من مجموعتنا؛ كما هو الأجنبي الأسود أو الميلودي الصديق. ففي تازمامرت انتفت الحدود، فما عاد هنالك طيارون ومشاة ولا مدنيون وعسكريون، ولا ضباط وضباط صف، ولا بيض وسود، ولا مسلمون ومسيحيون؛ فإن هم إلا أناس قد جمعت بينهم المعاناة والبؤس وخوف يتعذر عن الوصف من السقوط والخسران.

ثم بدأت الشائعات في الاتضاح؛ فأخذت تلوح لأنظارنا نهاية النفق. وسرعان ما انفرجت الأجواء. وقد كنت حينها في الزنزانة المجاورة لزنزانة المرزوقي، رفيقي في الفوج وصديقي. والتقيت كذلك رفيقيّ الشاوي والرجالي. فقد ترك الحراس أبواب الزنازن مفتوحة، فالمؤكد أنهم قد تلقوا بذلك التعليمات. ثم بدأوا يحسنون لنا الطعام، لكن لم يكن هنالك ما ينبئ حقاً بقرب الفرج؛ فقد كان في الإمكان وقوع تراجعات في أي وقت وحين.



Twitter: @ketab_n

كنت منشطراً؛ لا أقدر أن أعزم على الاندفاع إلى المستقبل. ففي عشية وقوع أحداث جليلة ترى الأناسي يتكهنون ويتبصرون ويؤملون؛ وأما أنا فلا أفعل شيئاً من ذلك كله! كنت أتشبث بالحاضر كالغريق بقشة تنقذه. أهي الحكمة؟ أم الخوف الشديد؟ لست أدري. كنت أؤثر الشعار البراغماتي : «انتظر وانظر». فقد كان يعفيني من أسئلة شتى، وربما كان يجنبني خيبات قاصمة.

وكما هي العادة عند الحراس فقد تعمدوا مباغتتنا. فجاءونا ذات ظهيرة من الأسبوع الأول من شهر شتنبر 1991، من غير أن تعلن عن مجيئهم طيور الدوري. ففتحوا أبواب البناية وطلبوا منا أن نعود إلى زنازننا وأن نلتزم الصمت. ثم أمرونا أن نسلمهم أغراضنا. فكانت مفاجأة عظيمة، لكنها أهون مما كنا نذوق منها في السنين التي قبلُ؛ فسوف لا نسلم جلودنا، بل سنبدلها جلوداً أخرى.

سلمت الحراس ما تبقى من أغطيتي وأسمالي، وفي القلب غصة وموجدة وما يشبه الحنين، كما في تلك اللحظة من الصمت التي تعقب أغنية، والروح لا تزال نهباً لأشتات من الانفعالات.

وقبل نهاية ذلك النهار كنا وقوفاً في زنازننا كما في أول يوم يوم كنا ننعم بالعافية والشباب ونحمل أوهاماً أقل.

ومع حلول الليل جاءت الشاحنات. فلم نكن من الداخل نسمع غير أوامر صارمة تختلط بهدير المحركات. لكن لم تكن هرولة ولا فوضى. وهو أمر غير معهود؛ يوحي بوجود شخصية برتبة عالية؛ لاشك أنه العقيد الدموي فضول.



Twitter: @ketab_n

ودخل الحراس فجعلوا يخرجوننا واحداً بعد آخر. ووقف دركيان في زيهما الرسمي ينتظراننا في الردهة ليوثقا أيدينا خلف ظهورنا بالأصفاد، ويجعلا على أعيننا العصابات التي لا تتبدل أو تتغير. وجعل دركيان آخران يمسكان بأكتافنا ويقتاداننا إلى الشاحنات. فكان حفلاً راقصاً للرعب يقوم على تنسيقه مصاصو دماء في زي مقاتلين.

فلما جاء دوري قلت للدركي الذي كان يمسك بالأصفاد :

- لا أقدر أن أسافر باليدين خلف الظهر.

فنظر إليَّ لبرهة باستغراب. ثم رأى أنني كنت بالفعل مطوياً على نفسي؛ فلا أقدر أن أستقيم في وقوفي. وكأن زميله التقط إشارة أو إيماءة من أحد رؤسائه، فقال له :

- حسناً، فلتوثق يديه قدامه.

ففرحت بذلك الفوز. وما كنت أعرف ما ينتظرني، بل ينتظرنا جميعاً!

قعدت فوق الكرسي الحديدي في الشاحنة، وأنا مشدود بين اثنين من رفاقي، ومتكئ على قضبان حديدية مربعة. وتلك كانت فاتحة ليلة هي الأشد والأطول في حياتي. فما أن شرعت الشاحنة تهتز حتى ابتدأ معها العذاب. فقد صرت لا أملك عضلات ولم تكن عليّ من ثياب أقي بها عظامي المتآكلة الاهتزازات المجنونة التي تملكت ذلك الوحش الآلي. وكان العذاب يزداد اشتداداً على هيكلي العظمي بما يسلك ذلك الموكب من الطرق



Twitter: @ketab_n

الثانوية. فكان كل اهتزاز يترجّع في كياني كله؛ وتتوتر له أعصابي المشدودة؛ فلا أقدر أبكي ولا أقدر أتوجع.

وجدتني فريسة آلة تسحق العظام، وفي فاتحة للجحيم والمعاناة المتواصلة، التي لا تفتر ولا تتوقف، الأكالة المكرورة. فشُل دماغي واختلطت أفكاري، وبلغ بي اليأس والقنوط كل مبلغ.

كنت أتضرع إلى الله وأتألم، وأكظم شكاتي وأتألم، وأفزع وأتألم. وأعرف أن ليس بوسع شيء أن يوقف تلك الآلة الجهنمية ما لم تصل إلى مبتغاها.

طالت بنا الرحلة ليلة كاملة، لتنتهي من حيث ابتدأ كل شيء؛ إلى أهرمومو، الذي جرى تحويله إلى مستوصف سجني لذلك الغرض. وبذلك انغلقت الدائرة.

توقفت الشاحنات. وكانت الشمس قد طلعت، والجو عليلاً. وسرني خاصة أننا قد انتهينا من ذلك الطواف العصيب. فصار بمقدورنا أن نستمتع بفيض تلك اللحظة، كما يستمرئ المعذبون لحظة الاستراحة؛ إذا توقف عنهم سوط الجلاد.

أسندتني أذرع قوية وأنزلتني من العربة. لكن استحال عليّ أن أنتصب على قدمي أو أسير لوحدي. فجعل أحد الحراس ساعده تحت إبطي وسحبني نحو مأواي الجديد. فمشينا متئدين وكنت لا أزال لم أتخلص من آلامي وانفعالاتي. اجتزنا حواجز من ردهات وسلالم، وانتهينا إلى المكان المراد. فأزال عني الدركي قيودي ونبهني إلى أننا سنجوز باباً. ثم قادني إلى الداخل وقال لي :

Twitter: @ketab_n

- انتبه ستجلس فوق سرير.

ثم أفلتني. فكأنما أحسست حينها بالحشية تحت عجيزتي لكنني فجأة سقطت في الفراغ. فصعدت أحشائي إلى جوفي وأوشك قلبي يتوقف، كمثل المظلي الذي يقذف بنفسه لأول مرة من الطائرة. ثم توقفت السقطة وبدأت أصعد إلى السطح. وأزال الحارس عني عصابتي، فإذا بي أجدني في قاعة كبيرة مضاءة نقية بيضاء. جلست فوق سرير، سرير حقيقي، لينّ المفرش، من شدة ليونته حتى لقد خيّل إليّ أنني أهوي إلى الفراغ.

عندما انصرف الحراس لبثت في ذلك القصر، وأنا أتميز من التعب والإجهاد. لكن حواسي كانت متنبهة، فكنت أغترف من النور وأتشبع من الهواء وأتقلب في النقاء، ويغمى عليّ في سريري. فأستغرق في النظر إلى الزاوية حيث يقوم المرحاض ومغسلته وكرسيه وكلها تتميز نقاء، وتلك النوافذ الكبيرة من غير قضبان.

قدموا لنا وجبة، ولم تكن من الفضلات التي كنا نطعم، فقد اشتملت على بفتيك مقلي وشيء من المرق وحساء مركز وخبزة مذهبة وتفاحة وياوورت. لم تكن بالوجبة الباذخة، لكن لم يكن شيء في تلك اللحظة يعادل تلك الوليمة. وأتاحوا لنا كذلك أن ننعم بدش ساخن بالصابون. وعلى الرغم من أنه كان قصيراً فإن نفعه علينا كان أكبر من شتى الأدوية التي كانوا يقدمونها لنا. فأحسستني كالإنسان الجديد؛ قد اغتسلت من كل ما نابني من



Twitter: @ketab_n

تلك السنين بما حفلت من أهوال وعذابات ودموع. وأحاطت بنا مجموعة كبيرة من الأطباء من مختلف الاختصاصات. وما جاءوا ليعالجونا، بل ليرمموا شروخنا ويجعلونا في هيأة لائقة إذا وقعت علينا الأنظار حين الإفراج عنا، فإنما جاءوا ليتداركوا المظاهر، في بلد كل ما فيه لا يعدو عن مظاهر.

وتم لنا كذلك العرض على طبيب للأسنان؛ وقد كنا فقدنا معظم أسناننا، ومنا من فقد أسنانه كلها. فكانت فرصة لي للخروج من غرفتي. كانت عيادة الطبيب توجد في سيارة تقف أمام بنايتنا وسط ساحة تشرف على الجرف الهائل المحاذي للمدرسة. وقد جعلوا السيارات المدنية والعسكرية من حول تلك الساحة لتكون ستاراً يحجب عنا المنظر الطبيعي، ويمنعنا أن نتعرف على المكان الذي كنا ننزل فيه، وكذلك لدفع النظرات المتطفلة التي يحتمل أن تأتي من الخارج. إنها أول مرة أخرج فيها منذ أن كان اعتقالي من غير عصابة ولا أصفاد. فتملكني انفعال شديد وأنا أرى في الخلفية جبل بويبلان تغمره الثلوج وتنيره شمس الربيع الحارة، فكأنه ينبثق من الفراغ الهائل الذي كنت أخمنه خلف حاجز السيارات ذات الأشكال المستقبلية؛ فإخالني أنظر إلى عربات فضائية. وزيّن إليّ لبرهة أنني في كوكب غير الكوكب. لكنني سرعان ما ارتددت إلى الواقع لدى رؤيتي رجال الدرك المسلحين وهم يتفحصونني بفضول كأنما ينظرون إلى حيوان غريب أو ينظرون إلى بقايا إنسان من عهود ما قبل التاريخ.



Twitter: @ketab_n

دخلت عيادة يغمرها الضوء، نقية وطاهرة ومنظمة. كان الطبيب يلتمع بمثل ما تلتمع عربته. فنظرت كالمسحور إلى أصابعه النظيفة وأظافره المقلمة القصيرة وجلده الأشبه بالشفاف من شدة النقاء. جعل يتحدث، وما كنت أسمعه. فقد تجمعت حواسي كلها في عيني المائجتين بجماع تلك الحياة. وإذا أيد تمسك بي في رقة وترفعني. أواه! بلى! لقد انتهت الحصة. فنهضت بصورة آلية. وفجأة توقف الزمن. فإذا كل شيءٍ من حولي قد تجمد. كنت أقلب كالمسحور بصري في مرآة، مبهوراً بتلك النظرة القادمة من الغيب وتينك العينين الزائغتين اللتين كانتا تتفرّسان فيَّ. فلمن كانت تانك العينان؟ ومن أين جاءتا؟ فكرت لبرهة في نظرة ڤان كوخ، لا وألف لا؛ فما كان جنوناً، لقد كان شيئاً آخر؛ شيءٌ أبعد ما يكون عن الجنون. ثم تحررت من تينك العينين، لأحدق في وجه شيخ لاقيت عنتاً كبيراً في التعرف عليه وتقبله. ذلك كان أنا.

عدت إلى غرفتي وأنا لا أقدر أن أطرد عني صورة ذلك الناسك الأشبه بالمجنون، الذي طالعني في المرآة. وظلت نظرته تلاحقني سنين بعدُ، وما زلت إلى اليوم لا أعرف هل تخلصت منها حقاً.

بقيت خلال تلك الفترة الانتقالية أكتفي بالنظر والإنصات. كنت أمتنع من الحديث مع مسؤولين يطمعون في تبرئة ذممهم بمجرد التظاهر لي بالاهتمام، أو أجلاف وقحين يبدون لي التعطاف والتسامح. فكنت أحدجهم بنظراتي ولا أحري جواباً. فأبث الوجل في أنفسهم. فما كان أغناني عن شفقتهم!



Twitter: @ketab_n

وجاء اليوم المقدّر. وقد كان أفرِج قبله بأسبوع عن أولئك من رفاقنا الذين كانت الإدارة تحرص كثيراً على التكتم عنهم. وعلم المسؤلون أن الصحافة ستكون في انتظارنا لدى خروجنا من المعتقل فارتأوا أن يفرجوا عنا في مجموعات صغيرة، وابتدأوا بأحسننا هيأة. فلما حان دوري جاءني فضول ومعه طبيب وأخبراني أن الملك قد شملني بعطفه العميم وعفا عني، فينبغي لي أن أظل ممتناً له ما حييت. ولذلك فلا ينبغي لي أن أتحدث إلى أي صحافي أو أدلي بأي تصريح... فأطرقت أنصت إليه في خشوع وتواضع واستسلام كأشد رعايا جلالته طاعة وخضوعاً. وقد كان كل تفكيري في أمر واحد؛ أنني لا أريد بأي ثمن أن أعود لأتجرع العذاب الذي تكبدته حين نقلي من تازمامرت. فلما انتهى من كلامه قلت له :

- سيدي العقيد لا يمكنني أن أتحمل السفر على متن الشاحنة. فسأكون عند الوصول في أسوإ حال. فكيف سأقدر أن أقف على قدميّ بمحضر أسرتي والأشخاص الذين من المحتمل أن يأتوا لاستقبالي؟

كانت حجة دامغة. فاستدار نحو الطبيب وسأله رأيه، فوجد منه موافقة. فجعلا يقلبان التفكير في حل للأمر. لكن لم يكن أمامهما متسع من الوقت. وكنت أملك الجواب الجاهز، بعد أن أمضيت شهرين كاملين أقلب فيه الفكر. ثم التفت نحو الطبيب وقلت له :

- هل لي في حشية على متن الشاحنة؟



Twitter: @ketab_n

فصاح العقيد باسم، طلع علينا صاحبه كما لو بسحر ساحر وقال له :

- اجعل له حشية في الشاحنة!

- أوامرك سيدي العقيد!

وبذلك جنبني فضول الجلاد ستمائة كيلومتر من المحن والعذابات الزائدة.

مرت الرحلة كما توقعت لها. وكان معي رفيقان آخران شاركاني محنة السفر. وواتاني أن أكون معصب العينين ومقيد اليدين؛ فقد كنت أضطجع على أحد جنبيّ ثم على الآخر، أو أقتعد حشيتي. فكنت حين تسليمي إلى قيادة أركان الدرك في مراكش أشعر بشيء من الراحة.

أقلتني سيارة إلى المركز الإداري للحي حيث كانت تقطن والدتي. وهنالك وجدت السلطات الأمنية للولاية يغص بها مكتب القايد رئيس الدائرة. فكلمني هذا الأخير على نحو ما كان يفعل معي العقيد فضول؛ بيد أني في هذه المرة لم أكن قيد الاعتقال. فجعلت أحدجه بنظراتي من غير أن أنبس بكلمة أو يرف لي جفن. وشعر هو بالإحراج فجعل يتلوى في كرسيه. كنت أتصور حالته في مواجهة تلك النظرة الزائغة، الأشبه بنظرة معتوه؛ تلك النظرة التي لطالما هزت كياني أنا أيضاً. وأدرك مفوض المقاطعة عظم المأزق الذي كان فيه يتخبط، فهب لنجدته قائلاً :

- أعتقد أن علينا أن نترك السيد يعود إلى ذويه.



Twitter: @ketab_n

التقف القايد الأمر التقافاً، وأومأ إلى مساعد له، فأدخل شخصين. تعرفت في الأول على أخي عبد الله، ولم أتعرف في الثاني على أختي الصغيرة إلهام، التي كانت في الخامسة عشرة وقت أن تعرضت للاعتقال. وعندما هممت بمغادرة المكتب لمحت دركياً يقف هناك. فنضوت عني المعطف العسكري المهلهل الذي كنت أرتديه، وسلمته له قائلاً :

- هذا يخصكم.



Twitter: @ketab_n

# تازمامرت

أُقحِم الضابط الشاب عزيز بنبين في المحاولة الانقلابية التي دارت وقائعها في قصر الصخيرات يوم 10 يوليوز 1971، ثم قُدم إلى محاكمة تعسفية، ليُلقَى به في المعتقل العسكري الرهيب، الذي نبت يومها في قلب الصحراء المغربية...

ولد عزيز بنبين بمراكش سنة 1946. عاش مخضرماً؛ يجمع بين المدرسة الفرنسية الحديثة والمدينة العتيقة في مراكش، وبين صرامة الأدب الحديث ومتخيَّل الحكاية الشرقية. أمضى عشرين سنة رهينَ السجن سلخَ منها ثمانية عشرَ في معتقل تازمامرت.

لقد أقبر صاحبنا طوال عقدين من الزمن، في زنزانته رقم 13، التي لم تكن تزيد عن قبو إسمنتي بسعة مترين على ثلاثة. لا تطرقه عليه غير العقارب والأفاعي والرتيلاءات والصراصير. وظل المعتقل الشاب يكابد مصيره كسيزيف وكأنتيغون. وظل يتسلح بإيمانه على مغالبة ذلك الجحيم، الذي يؤثثه العذاب والجنون والموت، ليس له فيه من وسيلة للاتصال بالحياة غير السمع. فجعل يفيض من مخزونه من الحكايات على رفاقه في المأساة، ويجعل من نفسه لهم حكاءً أو بائع أحلام...

**يعود عزيز بنبين ليرفع هذا القبر المؤلم الممض من كلمات. تمجيداً لكل واحد من إخوته ضحايا تازمامرت. ويضع شهادة ثمينة عن كابوس سجني حديث. إنها قصة تضرب عميقاً في أغوار الطبيعة البشرية. وتشحذ قوة الإيمان والخيال الفائقة في مواجهة الوحشية الكاسرة.**